العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية
قسم الاستشراق

المستشرقون
وموقفهم من التراث العربي الإسلامي

البحوث التي ألقيت في المؤتمر العلمي الأول لكلية الفقه
الجامعة المستنصرية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م

المستشرقون

وموقفهم من التراث العربي الإسلامي

البحوث التي ألقيت في المؤتمر العلمي الأول

لكلية الفقه ـ الجامعة المستنصرية

١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م

العتبة العباسية المقدسة

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

المستشرقون
وموقفهم من التراث العربي الإسلامي

المؤلف : مجموعة مؤلفين

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع

التنضيد والإخراج الفنّي: نصير شكر

الطبعة: الأُولى ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنّ هذا الكتاب في الأصل محاضرات ألقاها عدد من الأساتذة الجامعيين في المؤتمر العلمي الأول الذي عقدته كلية الفقه في ١٥و١٦/٤/١٩٨٦م تحت شعار: (موقف المستشرقين من التراث العربي الإسلامي) برعاية الدكتور رياض حامد الدباغ رئيس الجامعة المستنصرية، وترأس جلسة الافتتاح الدكتور علي جواد الطاهر، وكانت كلية الفقه قد ألّفت لجنة علمية لإدارة المؤتمر برئاسة الدكتور محمد حسين علي الصغير، وعضوية الدكتور حسن عيسى الحكيم والدكتور مهدي جواد حبيب، والسيد عبد العظيم البكاء.

كان المؤتمر تظاهرة علمية كبيرة حيث حضره عدد من العلماء والمفكرين والأساتذة والمعنيين، وكان فاتحة مؤتمرات علمية أخرى عن المستشرقين وآثارهم ونشاطهم.

كما إنّ كلية الفقه أخذت على عاتقها إقامة مؤتمرات علمية بشكل دوري وفي مواضيع ذات بعد تراثي وحضاري.

لقد لقيت الفكرة قبولاً حسناً لدى المسؤولين في الجامعة المستنصرية واقترح السيد رئيس الجامعة طبع بحوث المؤتمر على نفقة الجامعة، فشكلّت عمادة كلية الفقه لجنة برئاسة الدكتور حسن عيسى الحكيم وعضوية الدكتور حازم سليمان الحلي والسيد نعمة محمد إبراهيم تشرف على طبع الكتاب وإخراجه بشكل يليق بمادته العلمية.

فأخذت اللجنة من بين بحوث المؤتمر هذه البحوث التي ضمها هذا الكتاب، وعرضتها على أساتذة خبراء مختصين لتقويمها حتى تأخذ طابعها العلمي، ثم عرضت على أساتذة خبراء آخرين للتأكد من سلامتها الفكرية وبعد استكمال هذين الجانبين أخذت البحوث طريقها إلى النشر، ومع أنّ التقديم والتأخير في البحوث لا يغير شيئاً من مادتها العلمية، ولا من قيمتها فقد روعي تقديم البحوث التي تتعلق بالقران الكريم لسمو منزلته وشرفه ثمّ ما يتعلق بالسيرة النبوية الشريفة ثمّ البحوث الأخرى.

عسى أن يكون في هذا العمل ما يخدم لغة القرآن وتراثنا وحضارتنا، والله من وراء القصد.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

مضمون الكلمة التي ارتجلها السيد عدنان علي البكاء عميد الكلية في افتتاح المؤتمر العلمي الأول لكلية الفقه.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد نبيه المصطفى وآله الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

السيد رئيس الجامعة المستنصرية المحترم.

السيد محافظ النجف المحترم.

السادة الأساتذة والضيوف الكرام.

مرحباً بكم باحثين، ومناقشين ومستمعين. لدى إرهاصات اليقظة والانبعاث في الأمّة تلتفت ضمناً إلى ذاتها وإلى ما حولها، وتلك بداية التجاوز لفترة الخمود والهيمنة الأجنبية، وما تخلفه هذه الفترة عادة من انهيارات لدى الفرد والجماعة، على الأصعدة النفسية والفكرية والسياسية والاقتصادية وما يتخلق ضمن مناخها من تقزّم وانشطار نفسي وانفصام حضاري لدى المثقفين فضلاً عن غيرهم عادة

حتى لتكاد تنعدم لديهم المعايير المتوازنة في النظر إلى أنفسهم وإلى الآخرين، هذا إذا كانوا يملكون إمكانية النظر فعلاً.

وهذا ما حدث لدى أمّتنا العربية والإسلامية قبل إرهاصات اليقظة ـ بالضبط ـ من خلال فترة السحق الاستعماري الأجنبي، وبتأثيراته المختلفة المباشرة وغير المباشرة وبركائزه المنظورة وغير المنظورة، داخل الأمّة في المرافق المختلفة وقد ساعد على الانفعال بذلك، والاستجابة لآثاره واقع التجهيل الذي هو إفراز ممتد إلى انتكاسات داخلية ليست قريبة من جهة، وانعدام الثورات التي هي وليد شرعي للأمة وحضارتها وقيمها من جهة أخرى، مما أعطى الفرصة على أن يطول عمر هذا الانفعال وهذه الاستجابة وبحسبك انّ أغلب الانتفاضات والثورات كانت تتكئ شعبياً على الحس العاطفي ورد الفعل أكثر مما تستند إلى الوعي الفكري والحضاري ـ عدا القلّة من قادتها ـ وهذه بعض أسباب التقهقر والانتكاس التي تحدث فيها أو بعدها.

ومن هنا كانت تقوم بطرد الاستعمار، باذلة في ذلك التضحيات الكبيرة من الدماء والأموال لكنها تكتفي، أو لا ترى شيئاً أن يخرج من الباب ليدخل من الشباك، أو بعبارة أوضح تكتفي أن يرحل الوجود المادي المتمثل بشخوص قادته وجنده ومؤسساته التي تحمل عنوانه الصريح ليبقى بوجودٍ مادي آخر تراه الجماهير من الأمّة، وليس منها، وهم عملاء الأجنبي وربائبه وصنائعه الذين انفصموا عن

الأمّة أفكاراً ومصالح وأصبحوا له أكثر مما هم لها.

ثمّ هي لا تلتفت بعد ذلك إلى الامتداد الفكري والحضاري، وبقاء المصالح السياسية والاقتصادية والعسكرية أحياناً لهذا المستعمر، مما يجهز عليها ـ مادام ذلك باقياً ـ كأمّة ذات أصالة وذات رسالة تعطيها خصائص خلقية وحضارية متميزة، وتجعلها ذات فرادة. وفي هذا وذاك بيت الداء الذي ما تزال ظواهره وآثاره ماثلة في امتنا العربية الإسلامية، في هذا القطر أو ذاك، وبهذا الوجه من حياتنا أو ذاك:

المستشار هو الذي شرب الطلا فعلام يا هذا الوزير تعربد
علم ودستور ومجلس أمة كل عن المعنى الصحيح محرف

وعلى أرضية ما ذكرناه كان للمستشرقين بعضهم خاصة ـ لبعضهم الأكثر ـ أثر بارز في خلق هذه الأرضية، وفي تدعيمها، وبناء الركائز لاستمرارها.

وإنّك لتجد بصماتها في بعض كتابنا، وفي المستغربين من أبناء امتنا أفكاراً وتوجهات، وأخلاقاً وسلوكاً.

ولا ريب انّ ساسة الأمة ومفكريها الثوريين الذين يعانون من ذلك لا تعوزهم الأمثلة على كل ما أوردته، فأنا لم أغفل إلاّ الذكر الصريح للجهات والأوجه المعبرة عنها والأفراد والوثائق المعبرة عنها.

وإنّ الانخداع المبرّر بالفهم العلمي والمنهجية العلمية، وما يتوهّمونه من الإحاطة العلمية بما يدرسه هؤلاء المستشرقون هو ما

يتذرع، وينبهر به هؤلاء النفر من دعاة الاغتراب، لا يستثنون من ذلك حتى ما يقولونه في خصوصياتنا كأمة ديناً وتاريخاً، وأخلاقاً، وعطاء علمياً، في هذا الجانب ، أو ذاك، وبدلا من أن تكون وثائقنا هي المرجع في الدراسة والتقويم، يكون قول المستشرق في ذلك، سلباً، أو إيجاباً هو قول حذام التي قال لنا الشاعر (فصدقوها) ونحن نأبى ذلك. هذا هو الأمر السائد لدى بعض مثقفينا، جامعيين وغير جامعيين، إلى درجة تقضي منها عجباً.

وعلم ربي سبحانه ـ ومع التواضع ـ إنّي لم أجد في المواضيع التي يتحرونها للدس أو يثيرونها لزرع وهم معين حول الأمة إلا جهلاً مطبقاً من الناحية العلمية يشفع له. ربما انّ هذه هي مهمتهم كأصحاب مهمة في تشويه حضارتنا وتاريخنا وهم قد يعلمون الحقيقة ويخفونها، وقد لا يعلمون أقولها دون تردد، فمن قال إنّ أجنبياً يفهم خصائص وتراث أمتي أكثر مما افهمه؟ اللهم إنّ هذه العقدة ليست مزروعة لدي شكراً لك!!

لهذا رأيت، واتّفق معي زملائي في مجلس كلية الفقه: انّ مما يدخل في رسالة الثورة المباركة وأهدافها في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بحث مواقف وآثار هؤلاء المستشرقين على حضارة امتنا ومسيرتها، ورأيت واتفق معي زملائي في مجلس الكلية والتدريسيون، أن يكون مؤتمرنا العلمي الأول، وبحدود اختصاص

الكلية الإسلامي تحت عنوان موقف المستشرقين من التراث العربي الإسلامي ورغم ضيق الوقت فقد توفر من البحوث من الزملاء في كليتنا، في كلية الشريعة ـ بجامعة بغداد ـ ما يصلح للإشارة من هذه الزاوية ويفتح الباب للمعاودة منها، ومن غيرها إن شاء الله وعلى مستوى الجامعات في القطر.

وأعود لأقول: إنّه وبحدود اطلاعي كمثقف لا باحث إنّ هؤلاء المستشرقين، وأذكر ذلك بحدود ما تحتمل كلمة مرتجلة، ينقسمون إلى الفئات التالية:

أ ـ المبشرون الأجانب: ولهؤلاء مواقع، وحملات، وأساليب، وطرق مدروسة، وهي الدقة والكثافة، والقوة وتنوع الأساليب، وبما وراءها من دعم رؤوس الكهنوت ورؤوس الإدارات السياسية في الدول الاستعمارية، كانت من أخطر الحراب الموجهة إلى قلب امتنا، فقد استطاعت أن تعمل تحت ضوء الشمس دون خوف، وتمارس الهدم عبر المدارس[1] والجامعات والجمعيات والنوادي دون توجس، ولست بصدد التحديد[2].

---

(١) مما يسجل لثورة ١٧ تموز إنها أممت هذه المدارس التي كان أبناء الذوات يعدون فيها، بما تعطي من نموذجية في النظام والكادر، وما تحققه من مستوى بسبيل هدفها المشار إليه.

(٢) إقرأ التبشير والاستعمار للدكتور عمر فروخ والدكتور مصطفى الخالدي، واقرأ الغارة على الإسلام، لمحب الدين الخطيب. ففيهما الكفاية.

ب ـ **المستشرقون السياسيون**: وأعني بهم الذين يدفعون لدراسة الأمّة أو تراثها، لا بدافع علمي، ولا ديني، وإنما بدافع التمهيد للغايات الاستعمارية لبلدانهم، وهؤلاء يرسلون تحت غطاء أو آخر، للتوغل بين أبناء الأمّة، ومحاولة فهمها من الداخل، والتعرف على حاضرها وماضيها ومواطن القوة والضعف في ذلك، وما ترتكز عليه لتلمس مسارب التسلل لنفسية الأمّة وفكرها، وفك روابط القيم الدينية والخلقية، واستغلال مواضع الخلاف المذهبي لديها، وتحويله من مسألة علمية اجتهادية إلى مسألة طائفية هي أشبه بالقبلية، ومن منطلق عبادة إلى منطلق فتوى دنيوي، قتلوا كيف قدروا[1] وبذلك يمكن للدولة المستعمرة إضعاف الأمّة، والإجهاز على وحدتها، ومن ثم السيطرة عليها. والأمثلة لا تعوز للدارسين.

ج ـ **المستشرقون العلميون**: ونعني بهم من يقصدون العلم والمعرفة دون مخالطة أي دافع آخر. ولابدّ أن نفترض في بعض هؤلاء من هو موضوعي تماماً ومن هو قابل لتحسس التعصب ضمن نقاط معينة بدرجة أو أخرى، وحتى الموضوعي قد يكون مستوعباً لموضوع دراسته، أو غير مستوعب.

وكل هؤلاء لهم أمثلة في قراءاتنا لآثار المستشرقين وبذلك فتحت طائفة (جـ) ثلاث فئات:

---

(١) أخذ لمضمون الآية الشريفة: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾.

١ ـ **الموضوعيون**: ولابد أن نعترف بوجود هؤلاء، فهناك في تاريخنا زوايا حادة تتناقض مع مفاهيم الغرب في الفلسفة والأخلاق والسياسة، ومع ذلك فإنّ موضوعية بعض أعلام المستشرقين كانت قائمة كما ينبغي، ثمّ ماذا يمكن ان تصل إليه الموضوعية أكثر من ان يصل البعض منهم إلى مستوى ان يسلم وبإخلاص، ولابدّ أن تعرف أنّ إسلام المسيحي الغربي ليس سهلاً، إذا قارنت متطلبات كل من الدينين والتزاماتهما.

٢ـ **المنحازون**: والتعصّب موجود وبأبشع صورة لدى بعضهم، حتى ليصل بهم إلى إنكار صور الواقع الملموس، وبديهيات التاريخ الثابت، وهم من خلال الصورة التي يعطونها لاستيعاب موضوع القضية المبحوثة، وإثارة التساؤلات حول المناشئ الطبيعية المفهومة لها، وشطبها حسب طرح تاريخنا العربي، واستبعاد الغيبيات التي هي أساس الدين مطلقاً لدى كل الأمم، يوهمون وبافتراض لا يقوم إلاّ على حذلقات يسمونها علماً بإنكار أن تكون لنا فلسفة، فهي ميراث يوناني وأن تكون لنا شريعة فهي ميراث روماني، وأن يكون لنا إسهام في الرياضيات والعلوم الطبيعية على اختلافها، حتى ليكاد يصل الأمر إلى تجريد أمّتنا من كل قدراتها في الإبداع والعطاء، وفي الإسهام في التحضر البشري؟!! إنها مجرد أمّة ناقلة لتراث أسلافهم، ومن العجب أن يجعلوا أسلافهم لم يفيدوا منها هم أنفسهم سبباً لانطلاق أمّتنا

البعيدة لغة واهتمامات وأماكن عنها.

على أن الوعي الكوني الشامل الذي يعطيه القرآن للأمّة، ودعوته للتفكير، ودراسته الآثار والحضارات، والتفكير في النفس والأرض، وما فيها، والسماوات وما بها، حمل الأمّة على التفكير، كما حملها على النشاط العملي ولذلك كانت انطلاقتها قبل الترجمة التي تمكن من الاستفادة لا بعدها فهي مسببة لا سبب، وهي دراسة غايتها الهداية للأمم المدروسة، لا الاهتداء، ولذلك تضررت الأمّة بما زرعت هذه الفلسفات من شبه باطلة حول الوجود، وكيفية الخلق والعشرات غيرها مما تعب العلماء في ردها ومناقشتها، وقد أضيفت إليها موضوعات ليست منها إسلامية خالصة، وهي تضمّ الدليل النقلي إلى العقلي ولكن لابد للأمّة الشاهدة أن تناقش على علم:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

٣ ـ العلميون القاصرون: هذه فئة قصورها أنها لم تستوعب موضوع دراستها، ولم تعرف أنّ حرية الرأي، وعملية الاجتهاد أعطت للإسلام سعة غير معهودة، ومن هنا قد يصور رأياً على أنه الإسلام كله، وهو ليس إلاّ رأياً مذهبياً في الكلام، أو في الفقه، وقد يختار من الآراء ما هو أقرب إلى فهمه، وهؤلاء كثير أيضاً.

هذه اجتيازة سريعة، ولست هنا بصدد البحث، فأعطي الأرقام

والشواهد، وأحيل المراجع والمصادر، وإنما هي كلمة أقدم فيها خلفيات، ودوافع التفكير، والعمل لإقامة هذا المؤتمر مع زملائي في الكلية، وظني بزملائي الباحثين أن يقدّموا ـ بحدود ما بحثوه ـ ما يكفي للتدليل على ما كان منى إشارة يمكن معاودتها على مستوى أوسع من كليتنا، أو على مستوى الجامعات في القطر، فهي من أهم الموضوعات بطريق الدفاع عن أسس وجود الأمّة، ديناً وحضارة، وأخلاقاً وتاريخاً وبالتالي عن كيانها ككل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عدنان علي البكاء

***

القراءات القرآنية..
بين المستشرقين والنحاة

د.حازم سليمان الحلي

القرآن والقراءات متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما[1] أما القراءات فإنّها: علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة ولابدّ فيها من التلقّي والمشافهة؛ لأن في القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسماع والمشافهة[2].

وقد نزل القرآن الكريم على النبي محمد ﷺ نجوماً متفرقة في

---

(١) البرهان للزركشي ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط ١ مطبعة عيسى البابي الحلبي: ٣١٨/١.

(٢) منجد المقرئين لابن الجزري ـ نشر مكتبة القدسي ـ القاهرة:٣.

ثلاث وعشرين سنة[1] بلهجة قريش[2] وكانت القبائل على لهجات شتى[3] وبعضها مذموم كعنعة تميم وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن وتضجع قيس و عجرفية ضبة وتلتلة بهراء[4] وعجعجة قضاعة واستنطاء سعد والأزد وقيس وشنشنة اليمن[5] وقد شق على سائر القبائل قراءة القرآن بلهجة قريش، وزعموا ان الرخصة صدرت من النبي ﷺ بأن تقرأ كل أمة بلغتهم وما جرت عليه عاداتهم وذلك للتيسير[6] . وفي الروايات ما يشير إلى أن الصحابة قرأوا في عهد

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ ط٣ دار التراث ـ القاهرة:٢٣٢.

(٢) السبعة لابن مجاهد ـ تحقيق الدكتور شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر: المقدمة ـ ٧ والتهذيب للأزهري، تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين، القاهرة ـ عرب: ٢٦٧/٢ والمحتسب لابن جني ـ تحقيق علي النجدي ناصف وصاحبيه، القاهرة:٣٤٣/١ وفتح الباري للقسطلاني، المطبعة البهية، القاهرة: ١٥/٩ وغيث النفع لعلي النوري السفاقسي؛ القاهرة: ٤ وتاريخ القرآن، تأليف الدكتور عبد الصبور شاهين؛ القاهرة: ٢٢٩ والجمع الصوتي الأول للقرآن، تأليف لبيب سعيد، القاهرة: ٥٨.

(٣) النشر لابن الجزري، تصوير بيروت عن طبعة القاهرة ٢٢٢/١.

(٤) مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر ٨١/١ والخصائص لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، تصوير بيروت عن طبعة دار الكتب المصرية:١١/٢، والصاحبي لابن فارس تحقيق: مصطفى الشريمي، بيروت:٥٣.

(٥) المزهر السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وصاحبيه مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة:٢٢/١.

(٦) تأويل مشكل القرآن:٣٩ والنشر:١٩/١، ٢٢ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي مطبعة دار الكتاب القاهرة: ٤٢/١.

رسول الله ﷺ قراءات مختلفة، واختلفوا فيما بينهم ثم رجعوا إلى الرسول ﷺ فأقرهم على تلك القراءات. نسبوا له قوله ﷺ: [نزل القرآن على سبعة أحرف][1] على أنّ هذه الروايات بمجموعها يشوبها الغموض فلم تبين لنا بجلاء نص الآية التي اختلف في قراءتها ولا نوع الخلاف في قراءتها حتى رجحوا أنّ الخلاف بين القارئين لم يكن يعدو تلك النواحي الصوتية التي تفرق بين اللهجات في النطق وطريقة الأداء[2] غير إننا نجد بعض المختلفين في القراءة من قبيلة واحدة كالخلاف بين عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم بن حزام.

وهناك من ذهب إلى أنّ القرآن نزل على حرف واحد.

قال الإمام محمّد الباقر عليه السلام: إنّ القرآن واحد نزل من عند واحد ولكن الاختلاف من قبل الرواة[3].

وروي عن الفضل بن يسار قال: قلت لأبي عبد الله ـ يريد

---

(١) جامع البيان للطبري، تحقيق محمود محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر: ٢١/١ وما بعدها.

وتأويل مشكل القرآن: ٣٣، والمرشد الوجيز لأبي شامة ـ تحقيق طيار آلتي قولاج ـ دار صادر، بيروت: وفضائل القرآن ٧٧ ـ ٩٠ لابن كثير ـ ط ٤ دار الأندلس بيروت:٢٨ـ٣٦ وصحيح البخاري بشرح الكرماني، ط ٢ ـ دار أحياء التراث العربي ـ بيروت ١١/١٩ وتاريخ القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين: ٢٢٩ وما بعدها.

(٢) في اللهجات العربية للدكتور ابراهيم انيس ـ القاهرة:٥٥.

(٣) أصول الكافي لمحمد بن يعقوب ـ الكليني ـ طهران:٦٣٠/٢.

الإمام جعفر الصادق عليه السلام: إنّ الناس يقولون إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف. فقال: كذبوا أعداء الله؛ ولكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد[1].

وما رواه ابن أبي داود[2] قريب من هذا[3].

وذهب بعض الذين رووا حديث الأحرف السبعة إلى أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص بل المراد السعة والتيسير، وأنّه لا حرج عليهم في قراءته بما هو من لغات العرب، فالعرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبعمائة ولا يريدون حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص بل يريدون الكثرة[4].

وذهب بعضهم إلى أنّ تلك السبعة الأحرف إنّما كانت في وقت خاص لضرورة دعت ثم ارتفعت تلك الضرورة، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف وعاد ما يقرؤون به القرآن على حرف واحد[5].

---

(١) أصول الكافي: ٦٣٠/٢.

(٢) هو عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني من علماء الحديث وعلوم القرآن توفي سنة ٣١٦هـ. المصاحف لابن أبي داود تحقيق آرثر جفري ـ الرحمانية ـ القاهرة:١١ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي دار الكتب العربي ـ بيروت:٤٦٤/٩.

(٣) المصاحف:١٨.

(٤) النشر:٢٥/١ والبرهان:٢١٢/١.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ٤٣/١.

ولقد كان رسول الله ﷺ شديد العناية بالقرآن يستحفظ أصحابه ما يتلوه عليهم منه، وكان له كتّاب يكتبون بين يديه وبأمره ما ينزل عليه[1] وكانوا يكتبونه في اللخاف[2] والعسب[3] والأكتاف[4] والرقاع[5] والاقتاب[6] وقطع الأديم[7].

وفي البخاري ما يشير إلى أنّ النبي ﷺ استدعى زيد بن ثابت قال وليجئ بالكتف والدواة ليكتب ما نزل عليه من القرآن[8].

---

(١) البداية والنهاية لأبي الفداء بن كثير ـ ط ١ـ بيروت:٤٣٩/٥.

(٢) حجارة بيض عريضة رقاق واحدتها لخفة بفتح اللام وضمها وسكون الحاء. العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ـ تحقيق الدكتور مهدي المخزومي وللدكتور إبراهيم السامرائي ـ نشر وزارة الثقافة والأعلام العراقية ـ لحف ـ :٤٦٥/٤ وديوان الأدب للفارابي، تحقيق الدكتور أحمد مختار عمر ـ القاهرة: ١٤٢/١ و ١٧١. ولسان العرب لابن منظور/بولاق/ لحف ٢٢٧/١١.

(٣) وهو جريد النخل أو هو الجزء الواقع فويق الكرب لم ينبت عليه خوص وما نبت عليه خوص فهو السعف. العين ـ عسب ـ ٣٤٢/١ ، وديوان الأدب:٣٩٩/١، ولسان العرب عسب: ٥٨٨/٢.

(٤) جمع كتف وهو عظم عريض يكتبون عليه إذا جفّ لقلة القراطيس، لسان العرب ـ كتف ـ ٢٠٢/١١.

(٥) الرقاع: بكسر الراء جمع رقعة بضم الراء من جلد أو ورق يكتب فيها. لسان العرب ـ رقع ـ ٤١٩/٩.

(٦) مفرده قتب وهو رحل صغير على السنام ـ لسان العرب ـ قتب ١٥٤/٢.

(٧) الجلد: لسان العرب ـ ادم ـ ٢٧٥/١٤.

(٨) صحيح البخاري:١٠/١٩.

وما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلاّ والقرآن مكتوب ومحفوظ في صدور الصحابة، وقد بلغ حفاظ القرآن من الكثرة بحيث قتل منهم في معركة اليمامة أكثر من خمسمائة[1] فأُشير على أبي بكر بجمع القرآن في مصحف واحد؛ لئلّا يذهب منه بسبب موت الحفّاظ شيء[2]، فتردّد أوّلاً ثم اجتمع رأيه ورأي الصحابة على ذلك[3].

وفي خلافة عثمان حدث ما دعا إلى جمع القرآن وكتابة مصحف دعي بالمصحف الإمام، كتب منه عدة مصاحف ووزعت إلى عدة أمصار، وبقي مصحف في المدينة، وقرأ كل أهل مصر بما في مصحفهم[4].

اختلاف القراءات:

حصرت أوجه الاختلاف في القراءات بما يلي[5]:

---

(١) تاريخ الطبري ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر، ٢٩٦/٣ ـ ٢٩٧، والكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الفكر بيروت: ٢٤٧/٢.

(٢) فضائل القرآن: ١٥ وصحيح البخاري: ٦/١٩ ـ ٧.

(٣) القراءات واللهجات ـ لعبد الوهاب حمودة ـ ط١ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة: ١١٦.

(٤) القراءات واللهجات: ١١٦.

(٥) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ٣٦ والنشر: ٢٦/١ والقراءات واللهجات: ١٤ وتاريخ القرآن لإبراهيم الأبياري ـ دار القلم ـ بيروت : ١٢٧والقراءات القرآنية. للدكتور عبد الهادي الفضلي ـ دار القلم ـ بيروت: ٨٩.

١ـ الاختلاف في حركات الكلمة أو في إعرابها من غير تغيير معنى الكلمة وصورتها نحو: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ [١] بضمّ القاف وفتحها[٢] و﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [٣] برفع (أطهر) ونصبها[٤].

٢ـ الاختلاف في الحركات مع تغيير المعنى لا صورة، نحو ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بضمّ الهمزة وتشديد الميم[٥] وبعد أمة بفتح الهمزة وتخفيف الميم[٦] و﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [٧] فقد قُرئ ربنا باعد بين

---

(١) آل عمران: ١٤٠/٣.

(٢) قرأ أبو بكر والكسائي وخلف بضم القاف ووافقهم الأعمش وقرأ الباقون بالفتح. ينظر النشر: ١٠٨/١.

(٣) هود: ٧٨/١١.

(٤) قرأ بالنصب سعيد بن جبير والحسن بخلاف ومحمد بن مروان وقيس بن عمر الثقفي وابن أبي إسحاق. ينظر: إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري؛ تحقيق محي الدين عبد الرحمن رمضان ـ دمشق: ٥٣ ومختصر في شواذ القرآن لابن خالويه ـ تحقيق براجشتراسر المطبعة الرحمانية: ٦٠ والمحتسب: ٣٢٥/١ والبحر المحيط. لأبي حيان، القاهرة: ٢٤٧/٥ وعيسى بن عمر للدكتور صباح عباس السالم، بيروت: ١٢٣.

(٥) يوسف: ٤٥/١٢.

(٦) الأمة: النسيان. وهي قراءة ابن عباس وابن عمر بخلاف وعكرمة ومجاهد بخلاف عنهما والضحاك وأبي رجاء وقتادة وشبيل بن عزرة الضبعي، وربيعة بن عمر وزيد بن علي. ينظر: مختصر في شواذ القرآن: ٦٤ والمحتسب ٣٥٤/١ ومجمع البيان للطبرسي بيروت: ٦٤/١٣ ولسان العرب، أمة: ٣٦٣/١٧.

(٧) سبأ: ١٩/٣٤.

أسفارنا بضمّ الياء وفتح الدال[1].

٣ ـ الاختلاف في حروف الكلمة وتغيير المعنى مع بقاء الصورة:

نحو قوله تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ [2] قرئ (ننشزها) بالزاي المعجمة وقُرئ (ننشرها) بالراء المهملة[3] ونحو قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [4] وفرغ[5].

٤ ـ الاختلاف في الحروف بما يغير الصورة ولا يغير المعنى:

نحو ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [6] حيث قرئ: كالصوف المنفوش[7]

---

(١) هي قراءة ابن عباس وابن يعمر ومحمد بن علي وأبي رجاء والحسن، بخلاف، وأبي صالح وسلام ويعقوب وابن أبي ليلى والكلبي، ينظر: مختصر في شواذ القرآن: ١٣١ والمحتسب ١٨٩/٢ ومجمع البيان: ١٩٥/٢٢.

(٢) البقرة: ٢٥٩/٢.

(٣) قرأ ابن عامر وحمزة وخلف والكسائي بالزاي والباقون بالراء وعن الحسن أنه قرأ بالنون المفتوحة والشين المضمومة والراء. ينظر: مجمع البيان: ٣١٥/٣ وإتحاف فضلاء البشر الدمياطي، المطبعة الميمونة القاهرة: ١٦٢.

(٤) سبأ: ٢٣/٣٤.

(٥) هي قراءة عبد الله بن عمر والحسن وأيوب السختياني ينظر: مختصر في شواذ القرآن: ١٢٢ والمحتسب: ١٩٢/٢ ومجمع البيان: ٢٠٢/٢٢.

(٦) القارعة: ٥/١٠١.

(٧) قراءة ابن مسعود. ينظر: مختصر في شواذ القرآن: ١٧٨ ومفاتيح الغيب، الرازي المطبعة الميمونية: ١٦٥/٨.

و ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً﴾ [1] وزقية[2].

٥ ـ الاختلاف في الحروف بما يغير المعنى والصورة:

نحو قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ [3] حيث قرئ وطلع منضود[4].

٦ ـ الاختلاف في التقديم والتأخير:

نحو قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [5] حيث قرئ فيها: (وجاءت سكرة الحق بالموت)[6] ونحو: ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [7] فقد قرئ (فأذاقها الله لباس الخوف والجوع)[8].

---

(١) يس: ٢٩/٣٦.

(٢) قراءة ابن مسعود وعبد الرحمن بن الأسود. ينظر: مختصر في شواذ القرآن، ١٢٥ والمحتسب، ٢٠٦/٢ ومجمع البيان، ١٦/٢٣.

(٣) الواقعة، ٢٩/٥٦.

(٤) قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام وجعفر بن محمد عليه السلام. ينظر: مختصر شواذ القرآن: ١٥١ والكشاف للزمخشري ط ١ مطبعة البابي الحلبي: ٥٨/٤ وللبحر المحيط: ٢٠٦/٨.

(٥) سورة ق: ١٩/٥٠.

(٦) قراءة أبي بكر، ينظر: مختصر في شواذ القرآن، ١٤٤والمحتسب: ٢٨٢/٢ والكشاف: ٢١/٤.

(٧) النحل: ١١٢/١٦.

(٨) قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب. ينظر: مختصر في شواذ القرآن: ٧٤.

٧ ـ الاختلاف في الزيادة والنقصان:

نحو: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [١] فقد قرئ: (وما عملت أيديهم)[٢] ومثل: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [٣]. فقد قرئ: (إن الله الغني الحميد)[٤].

أسباب اختلاف القراءات:

للمهتمين بالقراءات أقوال مختلفة في أسباب اختلاف القراءات أهمها:

١ ـ اختلاف قراءة النبي ﷺ: فقد زعموا أنّ النبي ﷺ كان يُقرئ الصحابة القرآن قراءات مختلفة[٥]، وما روي عن عاصم الجحدري[٦] (ت١٢٨ هـ) عن أبي بكر أنّ النبي ﷺ قرأ[٧] ﴿متكئين

---

(١) يس: ٣٥/٣٦.

(٢) قرأ أهل الكوفة غير حفص وما عملت بغير هاء، وكذلك هي في مصاحفهم. ينظر مجمع البيان: ٢٠/٢٣ وغيث النفع: ٢٢٦.

(٣) لقمان: ٢٦/٣١.

(٤) كما ثبت في مصحف أبي بن كعب. ينظر البحر المحيط: ٥٤٤/٥.

(٥) فضائل القرآن: ٢٨.

(٦) هو عاصم بن أبي الصباح الجحدري البصري ممن قرأ عليه عيسى بن عمر الثقفي وهارون الأعور. غاية النهاية: ٣٤٩/١.

(٧) وقرأ بها عثمان ونصر بن علي وأبو الجلد وملك بن دينار وأبو طعمة وأبن محيصن وزهير الفرقبي. المحتسب:٣٠٥/٢.

على رفارف خضر وعبقريّ حسان﴾[1]. وما روي عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قرأ[2]: (أفلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرات أعين)[3]. وما روي عنه ﷺ أنه قرأ[4] ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[5] (ملك يوم الدين)[6].

٢ ـ اختلاف تقرير النبي ﷺ لقراءة المسلمين: فقد روى ابن قتيبة[7] (ت٢٧٦هـ) أنّ النبي ﷺ أمره الله من تيسيره أن يقرئ كلّ قوم بلغتهم، وما جرت عليه عاداتهم فالهذلي يقرأ (عتى حين) يريد (حَتَّى حِينٍ)[8]؛ لأنه هكذا يلفظ بها، والأسدي يقرأ (تَعْلَمُونَ)[9]

---

(١) الرحمن: ٧٦/٥٥ والذي في المصحف:﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾.

(٢) وبها قرأ أبو الدرداء وابن مسعود وعون العقيلي.

(٣) السجدة:١٧/٢٢ وفي المصحف، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

(٤) إبراز المعاني لأبي شامة، القاهرة:٥٥.

(٥) الفاتحة:٤. وبها قرأ عاصم والكسائي وخلف ويعقوب الحضرمي. مجمع البيان: ٤٨/١.

(٦) وبها قرأ ابن عامر وأبن كثير وأبو عمرو بن العلاء وحمزة الزيات ونافع ويزيد بن القعقاع. المصدر السابق.

(٧) هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري النحوي اللغوي ينظر: بغية الوعاة للسيوطي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. مطبعة عيسى البابي الحلبي: ٦٣/٢.

(٨) يوسف:٣٥/١٢.

(٩) البقرة: ٢٢/٢.

(وَتَعْلَم)[1] و﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[2] بكسر التاء و﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾[3]. والتميمي يهمز و القريشي لا يهمز... ولو إنّ كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً لاشتدّ ذلك عليه وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلاّ بعد رياضة للنفس طويلة وتذليل اللسان وقطع المعادة، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات ومتصرفاً في الحركات كتيسيره عليهم في الدين[4].

٣ـ اختلاف النزول: ومما ذكروا من الأسباب (ما اختلف باختلاف النزول مما كان يعرض رسول الله ﷺ القرآن على جبريل في كل شهر رمضان، وذلك بعد ما هاجر إلى المدينة فكان أصحاب رسول الله ﷺ يتلقّفون منه حروف كل عرض فمنهم من يقرأ على حرف ومنهم من يقرأ عل آخر...)[5]، وربّما حملهم على هذا الاعتقاد ما نقلوا من اختلاف في قراءة لم يذكروها بين عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ فقرأ عمر فقال رسول لله ﷺ هكذا نزلت ثم قرأ هشام قراءة تختلف، فقال رسول الله ﷺ: هكذا نزلت[6].

---

(١) البقرة: ١٠٦/٢.

(٢) آل عمران: ١٠٦.

(٣) يس: ٦٠/٣٦.

(٤) تأويل مشكل القرآن: ٣٩ـ٤٠.

(٥) مقدمتان في علوم القرآن ـ لابن عطيه وصاحبه.

(٦) صحيح البخاري: ١١/١٩. وفضائل القرآن لابن كثير: ٣٦.

٤ ـ اختلاف الرواية عن الصحابة: يقول ابن مجاهد: (ورويت الآثار باختلاف عن الصحابة والتابعين توسعة ورحمة للمسلمين)[١].

ومعلوم أنّ الصحابة كانوا قد أخذوه عن رسول الله ﷺ وزعموا أنّهم أخذوا عنه ﷺ على حروف مختلفة ثمّ تفرّقوا في البلاد، وعنهم أخذ من جاء بعدهم[٢].

٥ ـ اختلاف اللهجات: ويعدّ هذا السبب من أهم الأسباب في اختلاف القراءات، وقد ذهب إليه جماعة منهم ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)[٣] وأبو شامة[٤] (ت ٦٦٥ هـ)[٥] وهو سبب وصفه المعاصرون بأنه يقبله العقل ويسيغه النقل، ويقتضيه ما عليه القبائل العربية المختلفة التي لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها[٦] وهذا السبب اعتمده بعض المتأخرين[٧].

---

(١) السبعة: ٤٥.

(٢) مناهل العرفان: للزرقاني ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ٤٠٢/١.

(٣) تأويل مشكل القرآن: ٣٩.

(٤) هو عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان الدمشقي قرأ القراءات على السخاوي وبرع في العربية. ينظر بغية الوعاة: ٧٨/٢.

(٥) إبراز المعاني: ٤٧٨.

(٦) في الشعر الجاهلي للدكتور ـ طه حسين ـ مطبعة دار الكتب المصرية ط ١ القاهرة: ٣٤وفي الأدب الجاهلي ـ ط ٩. دار المعارف بمصر:٩٥.

(٧) أطوار الثقافة والفكر لمحمد أبو الفضل إبراهيم وجماعته نشر مكتبة الأنكلو الأمريكية ـ ط ١: ٨٠/١.

٦ـ **عدم نقط المصاحف الأئمة التي وجهها عثمان إلى الأقطار** وعدم شكلها وكان في تلك الأقطار ـ كما يقول ابن أبي هاشم ـ[١] من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الأقطار.

وبهذا تشبث المستشرق جولد تسيهر فزعم أنّ القسم الأكبر من القراءات يرجع إلى خاصية الخط العربي[٢] وذهب إلى أنّ عدم نقط المصاحف وشكلها كان السبب الأول في ظهور القراءات[٣].

تعدد القراء:

ولهذه الأسباب فقد تعدّد القراء فهناك القراء السبعة الذين اختارهم ابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) ثم ألحق بهم ثلاثة فأصبحوا عشرة ثم زاد بعضهم أربعة من القراء فصاروا أربعة عشر قارئاً[٤].

والقرّاء السبعة الذين اقتصر عليهم ابن مجاهد هم: عبدالله بن عامر اليحصبي (ت١١٨هـ)، وعبدالله بن كثير (ت١٢٠هـ)، وعاصم

---

(١) فتح الباري: ٢٥/٩ والقراءات واللهجات، ٥٤ والبيان في تفسير القرآن للسيد أبو القاسم الخوئي ـ النجف: ١١٦.

(٢) مذهب التفسير الإسلامي ـ لجولد تسيهر ترجمة د. عبد الحليم النجار مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة: ٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ينظر مناهل العرفان: ٤١٠/١.

ابن بهدلة الكوفي (ت١٢٧هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (ت١٥٤ هـ)، وحمزة بن حبيب الزيات (ت ١٥٦ هـ)، ونافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم المدني (ت ١٦٩ هـ)، وعلي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩ هـ)[١]، ولم يذكر ابن مجاهد سبباً لاختيار هؤلاء السبعة وترك غيرهم من أمثال الحسن البصري (ت ١١٠ هـ)، ومحمد بن محيصن (ت ١٢٣هـ)، ويعقوب وإسحاق الحضرمي (ت ٢٠٥ هـ)، وغيرهم من خيرة القرّاء، ثمّ إنّه أوهم بعض من لا علم له بأنّ هؤلاء السبعة هم المقصودون بحديث الأحرف السبعة[٢]، فقال أحمد بن عمار المهدوي (ت٤٣٠ هـ): (لقد فعل مسبع هؤلاء السبعة ما لا ينبغي أن يفعله وأشكل على العامة... وأوهم كلّ من قلّ نظره أنّ هذه هي المذكورة في الخبر النبوي وليته إذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل هذه الشبهة)[٣].

مقياس القراءة الصحيحة:

وضع علماء القراءات ضابطاً للقراءة الصحيحة المقبولة فقالوا هي:

١ـ كل قراءة وافقت العربية ولو بوجهٍ.

---

(١) ينظر كتاب السبعة لابن مجاهد: ٥٣ـ٨٧.

(٢) النشر: ٣٥/١.

(٣) المصدر السابق: ٣٦.

٢ ـ ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً.

٣ ـ وصحّ سندها.

فهي عندهم القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها سواء أكانت عن السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم[١]، وأكّدوا صحّة السند فعندهم أنّ الشرط واحد وهو صحة السند ويلزم الآخران[٢].

موقف المستشرقين من القراءات:

للمستشرقين جهود كبيرة في التراث العربي ولهم في الدراسات القرآنية أعمال جليلة[٣]، إلا إنّنا يجب ألاّ نأخذ كلّ أقوالهم مسلّمة، بل لابدّ أن نقف منها على حذر؛ لأنّ فهم القرآن بدقائقه قد يتعسّر على جملةٍ منهم؛ لعمق لغة القرآن وأساليبه البلاغية، مما يجعل غير العربي مهما أوتي من مقدرة يتعثر أحياناً في الفهم الأصيل للنص القرآني[٤].

أمّا في القراءات القرآنية بوجهٍ خاص فإنّ لبعض المستشرقين

---

(١) النشر: ٩/١.

(٢) المصدر السابق: ١٣ والإتقان في علوم القرآن للسيوطي تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب: ٢٦٢/١.

(٣) ينظر المستشرقون والدراسات القرآنية للدكتور محمد حسين علي الصغير ـ ط١ المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت.

(٤) المصدر السابق: ١٢٤.

آراء على غاية الخطورة، فكان همّهم التدليل على أنّ الاختلاف في القراءات القرآنية إنّما كان عن هوى من القراء لا توثيق ودراية[1].

يقول المستشرق المجري جولد تسيهر (١٨٥٠ـ١٩٢١م):

«والقسم الأكبر من هذه القراءات يرجع السبب في ظهوره إلى خاصية الخط العربي. فإنّ من خصائصه أنّ الرسم الواحد للكلمة الواحدة قد يقرأ بأشكالٍ مختلفةٍ تبعاً للنقط فوق الحروف أو تحتها، وعدم وجود الحركات النحوية، وفقدان الشكل في الخط العربي جعل للكلمة أحوالاً مختلفة كانت السبب الأول في ظهور حركة القراءات فيما أهمل نقطه أو شكله من القرآن»[2].

وللمستشرق الألماني نولدكه (Noldeke) (١٨٣٦ــ ١٩٣٠م) كتاب (تاريخ القرآن) نشر عام ١٨٦٠م يعدّ أساس كلّ بحث في علوم القرآن في أوربا[3] وفيه ارتياب في أكثر ما يتعلّق بتاريخ القرآن من الروايات والأحاديث وأقوال المفسرين[4]، وقد تابعه الدكتور طه حسين في منهجه ورتّب على ذلك أنّ الاختلاف في القراءات يقتضيه اختلاف لهجات قبائل العرب التي لم تستطع أن تقرأ القرآن كما كان

---

(١) القراءات واللهجات: ١٨٢.

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي: ٨.

(٣) المصاحف: ٤.

(٤) الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم: ١٩٥.

قرأه النبي ﷺ [1].

أمّا المستشرق الألماني بروكلمان (١٨٦٨ـ ١٩٥٦م) فيقول: حقاً فتحت الكتابة التي لم تكن بعد قد وصلت درجة الكمال مجالاً بعض الاختلاف في القراءات[2]. ونجد مثل هذا عند المستشرق الفرنسي بلاشير (١٩٠٠ـ ١٩٧٣)[3] والمستشرق الأمريكي آرثر جفري[4] وقد تصدّى للردّ على المستشرقين عدد من الباحثين[5].

إنّ السبب الذي حمل المستشرقين على هذا الوهم هو جهلهم

---

(١) في الشعر الجاهلي: ٣٤، وفي الادب الجاهلي للدكتور طه حسين ٩ـ دار المعارف بمصر:٩٩.

(٢) تاريخ الأدب العربي ـ بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار جماعته ـ دار المعارف بمصر: ١٤٠/١.

(٣) القرآن ـ تأليف بلاشير (١٩٠٠ ـ ١٩٧٤م) ترجمة: رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ط ١ـ ١٩٧٤ م: ٣١.

(٤) المصاحف ـ المقدمة: ٧ـ ٨.

(٥) ومنهم: الأستاذ عبد الوهاب حمودة: القراءات واللهجات: ١٨٢ وما بعدها، والدكتور لبيب سعيد: الجمع الصوتي الأول للقرآن: ٢٠٠ وما بعدها والدكتور عبد الرحمن السيد: مجلة المربد السنة الأولى: ٨٧ وما بعدها والدكتور عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن: ٨٢ وما بعدها والدكتور عبد العال سالم مكرم: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية: ٢٣ وما بعدها. ومحمد طاهر الكردي: تاريخ القرآن ط ٢: ١١٣ وما بعدها، والدكتور محمد حسين الصغير: تاريخ القرآن والمستشرقون والدراسات القرآنية.

بأسلوب تلقّي المسلمين القرآن، إذا أردنا إحسان الظن بهم «فإنّ الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب»[1].

وإنّ القراءات رُويت وشاعت قبل تدوين المصاحف العثمانية؛ وكانت قراءة المسلمين على حسب ما يرون وينقلون، لا على حسب ما يقرءون في المصاحف.

وكان الاعتماد على الحفظ لا على مجرد الخط ولذلك كان أبو عمرو ابن العلاء (ت١٥٤ هـ) يقول: لولا أنّه ليس لي أن أقرأ إلاّ بما قُرئ لقرأت حرف كذا كذا وحرف كذا كذا[2].

لقد تلقّى الصحابة القرآن من النبي محمد ﷺ حرفاً حرفاً وحركةً حركةً، ولم يهملوا منه حركةً ولا سكوناً، وكان من بينهم عدد كبير ممن حفظ القرآن كلّه، وكان يأخذ بعضهم عن بعض مشافهة.

فالقراءات موجودة قبل ظهور النقط والشكل لا بعدهما كما يذهب إلى ذلك المستشرقون؛ لأنّ الوحي قد انقطع وإنّما القراءات ظهرت حين عجزت بعض القبائل من غير قريش أن تقرأ القرآن

---

(١) النشر: ٦/١.

(٢) النشر: ١٧ وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري تحقيق: براجشتر اسر - القاهرة: ٢٩٠/١.

بلهجة قريش فأراد الله سبحانه أن يجعل لهم متسعاً ومتصرفاً في الحركات فصدرت الرخصة على لسان نبيه بالقراءات[1] وأئمة القرّاء لاتعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية، والقراءة عندهم سنّة متبعة[2].

بعد هذا كلّه يقول جولد تسيهر: «وقد رأى قتادة (ت ١١٧هـ) أنّ هذا الأمر بقتل النفس أو قتل العصاة في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[3] هو من القسوة والشدّة بحيث لا يتناسب مع الفعل فقرأ: ﴿فأقيلوا أنفسكم﴾[4] أي حقّقوا الرجوع والتوبة من الفعل بالندم، وفي هذا المثال نرى وجهة نظر موضوعية كانت سبباً أدّى إلى القراءة المخالفة»[5].

فهو يتّهم قتادة أنّه يقرأ حسب ما يرى وهو عمل لا يقدم عليه مسلم، ونسي جولد تسيهر أنّ الأصل في القراءة الرواية والنقل.

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ٣٩ـ ٤٠ والنشر:٢٢.

(٢) النشر: ١٠ـ ١١.

(٣) البقرة: ٥٤.

(٤) مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه ـ تحقيق براجشتراسر المطبعة الرحمانية بمصر: ٦.

(٥) مذاهب التفسير الإسلامي:٥.

وراح جولد تسيهر ينقر وينقب ثمّ وقف عند قوله تعالى: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[1] ولفت النظر إلى القراءة الثانية: ﴿غلبت الرُّومُ﴾[2] و(سيغلبون) بالبناء للمعلوم[3].

وحسب أنّه قد اكتشف أمراً مهمّاً وقال: «إنّ القراءتين متناقضتان في المعنى المغلوبون في القراءة المشهورة هم الغالبون في القراءة الأخرى»[4] وحين لا تناقض كما أوهم جولد تسيهر إذ يجوز تخالف القراءتين.

وكون فريق غالباً ومغلوباً في زمانين غير متدافعين كما يقول الآلوسي[5] ومما يدلّ على أنّ قراءة القرآن الكريم ليست بالتشهّي وإنّما هي بالسماع عن النبي صلى الله عليه وآله[6] أنّ المسلمين لم يعتمدوا في نقل القرآن على خط المصحف وإنّما اعتمدوا على حفظ القلوب والصدور.

---

(١) الروم: ١ـ ٤.

(٢) قراءة النبي صلى الله عليه وآله وعلي بن أبي طالب عليه السلام وابن عمر مختصر في شواذ القرآن: ١١٦.

(٣) قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام وأبن عمر ومعاوية بن قرة المصدر السابق.

(٤) مذاهب التفسير الإسلامي:١٨.

(٥) روح المعاني لأبي الثناء محمود الآلوسي ـ بولاق: ١٧/ ٢١.

(٦) فتح الباري: ٩/ ٢٢.

فإنّ ثمّة قراءات كثيرة لا يُقرأ بها أبداً مع أنّ رسم المصحف يحتملها واللغة تجيزها[1].

فإنّ القرّاء الأربعة عشر مجمعون[2] على ضمّ الميم في كلمة (مكث) من قوله تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ﴾[3] مع أنّ اللغة تجيز في هذه الميم الضمّ والفتح والكسر[4].

وكلمة (الرضاعة) في قوله تعالى: ﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾[5]، لا يقرأها القراء إلاّ بفتح الراء مع أن الكسر لغة جائزة[6].

إنّ الخلاف بيننا وبين المستشرقين خلاف في المنهج، فالمبدأ عند علمائنا في جميع منابع الثقافة الإسلامية هو إثباتها عن طريق الرواية والبحث في إثباتها ومتنها ووضعوا لذلك مقاييس دقيقة.

أمّا المستشرقون فلا يعترفون بغير المتن وكلّ همهم امتحان

---

(١) تنظر أمثلة هذه القراءات في رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات للدكتور عبدالفتاح إسماعيل شلبي القاهرة: ٣٣ ـ ٤٢.

(٢) الجمع الصوتي الأول للقرآن: ٢١٤.

(٣) سورة الإسراء: ١٠٦/١٧.

(٤) البحر المحيط: ٦/ ٨٨ والجمع الصوتي الأول للقرآن: ٢١٤.

(٥) سورة البقرة: ٢/ ٢٣٣.

(٦) معاني القرآن للفرّاء: ١/ ١٤٩.

النص امتحاناً لا يقوم على قواعد منهجية[1].

وعلى هذا فإنهم لم يستطيعوا إثبات كون القراءات القرآنية عن هوى من القراء ومن غير رخصة صادرة عن النبي ﷺ فلو جاز للناس تغيير شيء من القرآن عما تلقوه من الرسول ﷺ لكان بعض القرآن من كلام البشر لا من كلام الله ولبطلت صفته الإعجازية التي ما تزال قائمة.

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾[2].

موقف النحاة من القراءات:

استقرأ النحاة النصوص العربية من قرآن وحديث وشعر وأمثال وسمّى ذلك بعضهم (النقل) وهو: «الكلام العربي المنقول النقل الصحيح الخارج عن حدّ القلة إلى حدّ الكثرة»[3]، وما عرف السماع الذي هو: «أصل من أصول النحو واللغة ودليل من أدلّتها»[4] وكان عند

---

(١) القراءات واللهجات: ٢٠٢.

(٢) سورة النساء: ٤/ ٨٢.

(٣) الأغراب في جدل الإعراب لأبي البركات عبدالرحمن بن الأنباري، تحقيق سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية: ٤٥. ولمع الأدلة لأبي البركات عبدالرحمن بن الأنباري، تحقيق: سعيد الأفغاني، طبع الجامعة السورية: ٨١.

(٤) الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه للدكتورة خديجة الحديثي، مطبوعات جامعة الكويت: ١٣٩.

السيوطي (ت٩١١هـ): «ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن، وكلام نبيّه ﷺ وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولّدين من مسلم أو كافر، فهذه ثلاثة أنواع لابدّ في كلّ منها من الثبوت»[1].

وعلى هذا الموروث سمّه (نقلاً) أو (سماعاً) إن شئت اعتمد الأوائل في تدوين اللغة وتقعيد القواعد النحوية والصرفية، وكانت غايتهم المحافظة على القرآن الكريم من أن يعوره خطأ في النطق فيؤدي ذلك إلى سوء فهمه.

ويعدّ القرآن أعلى مراتب السماع؛ لأنه أوثق نصٍّ عربيٍّ وصل إلينا، وقد تكفّل الله سبحانه وتعالى بحفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2]، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[3].

ولذلك لم يختلف النحاة واللغويون في قبوله؛ لأنه أوقف النصوص العربية وأرقاها، غير أنهم اختلفوا واشتجرت آراؤهم في القراءات بين راغب فيها يقبلها ويحتجّ بها، وراغب عنها يرفضها وإن كانت من القراءات السبع، متعصب للقاعدة التي قعّدها، فإن اختلفت

---

(١) الاقتراح للسيوطي، ط٢، طبع دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد: ١٤.

(٢) سورة الحجر: ٩/١٥.

(٣) سورة فصّلت: ٤١/٤٠ ـ ٤١.

القراءة مع القاعدة وصف القراءة بالقبح[1]، أو الخطأ[2]، أو الضعف[3]، أو اللّحن[4]، أو الشذوذ[5].

على أنّ نقد النحاة للقرّاء إنّما هو نقد للرواية وليس نقداً للقراءة بعد صحّة سندها، كأن يكون في القارئ سهو أو غفلة، فسيبويه إمام النحاة (ت ١٨٠هـ) يرى: «أنّ القراءة لا تخالف لأنّها السنّة»[6]، ومع ذلك نجد من النحاة واللغويين من ينسب بعض القرّاء إلى التوهّم والغلط[7]، وهذا الموقف يصدر من كلّ نحوي متعصّب للقاعدة أو

---

(١) البحر المحيط: ١٥٨/٣.

(٢) إعراب القرآن ومعانيه للزجاج، تحقيق ودراسة هدى محمود فراعة، رسالة دكتوراه كلية الآداب جامعة القاهرة، آلة كاتبة: ٤٥٥.

(٣) معاني القرآن للأخفش الأوسط، تحقيق الدكتور فائز فارس ـ الكويت: ٣٢٦/٢، وشرح المفصل لابن يعيش ـ طبع القاهرة: ٩٨٧/٣.

(٤) كتاب سيبويه تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة: ٣٩٦/٢ ـ ٣٩٧.

(٥) الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات عبدالرحمن بن الأنباري، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة ـ القاهرة، المسألة ١٠٢: ٣٨٢/٢، والبحر المحيط: ٤١٩/٥.

(٦) الكتاب ـ بولاق: ٧٤/١.

(٧) معاني القرآن للفرّاء ـ تحقيق محمد علي النجار وجماعته، الدار المصرية للتأليف والنشر ـ القاهرة: ٧٦/٢، وتأويل مشكل القرآن: ٥٩، والبيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٣، نشر مكتبة الخانجي ـ القاهرة: ٢١٩/٢. ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج، تحقيق د. عبدالجليل عبده شلبي ـ بيروت: ٤٣٩/١، والبحر المحيط: ٤٩٩/٢ و٤٦/٧.

للقياس، سواء أكان بصرياً أم كوفياً، فإنّهم تجرّأوا على تخطئة بعض القرّاء الذين يخالفون قواعدهم، ونعتقد أنّ هؤلاء القرّاء أولى بالصحّة من النحاة؛ لأنّهم يعتمدون في قراءاتهم على السماع وهم ثقة[1]، فالقرّاء أهل تلقٍّ وعرض، فهم أدقّ في نقلهم اللغة[2]، ولو انّ النحاة وافقوا القرّاء في منهجهم القائم على السماع لأراحوا أنفسهم وأراحوا النحو وأراحونا من كلّ هذا العناء، ولسدّوا الطريق بوجه المستشرقين الذين وجدوا من تشذيذ النحاة لبعض القراءات مجالاً لمناقشة بعض النصوص القرآنية والنيل من القرآن الكريم.

والحقّ يلزمنا أن نقول: إنّ أغلب الكوفيين وسيبويه أكثر احتراماً للقراءات من أغلب البصريين ومن القرّاء، فالكوفيّون لا يصفون القراءات بالنعوت المألوفة لدى البصريين[3] عندما تتعارض مع أقيستهم وقواعدهم التي صنعوها بأنفسهم.

والحقّ أنّ ما ذهب إليه هؤلاء النحاة فيه مجانبةٌ للصواب وبعدٌ عن الجادة؛ لأنّ البحث في اللغة في أول أمره إنّما كان لخدمة القرآن محافظةً عليه وصيانةً له، فليس من الجائز أن يكون القرآن خاضعاً

---

(١) اللغة والنحو للدكتور حسن عون، ط١، الاسكندرية: ١٢٢.

(٢) اللهجات العربية في القراءات القرآنية، للدكتور عبدة الراجحي، طبع دار المعارف بمصر: ٨٦.

(٣) ينظر: من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنكلو المصرية، ط٥: ٢٦.

لمقاييس النحاة وقواعدهم[1]، ولا ينبغي أن يقاس القرآن على شيء، بل الواجب أن يقاس عليه.

هذا على أنّ القرّاء الذين اشتركوا في رواية هذه القراءات هم علماء في اللغة، ومن أفاضل أئمة النحو وأعلامه، من أمثال أبي عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) والكسائي (ت١٨٩هـ)[2].

لقد وقف البصريون من القراءات موقفهم من سائر النصوص اللغوية وأخضعوها لأصولهم وأقيستهم، فما وافق منها أصولهم قبلوه، وما أباها رفضوا الاحتجاج به ووصفوه بالشذوذ[3].

أمّا الكوفيون فقد قبلوها واحتجّوا بها وعقدوا على ما جاء فيها كثيراً من أصولهم وأحكامهم[4]؛ لأنّ المنهج الكوفي مبنيٌّ على منهج القرّاء الذي لا يقوم على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصحّ في النقل[5].

وسنعرض بعض القراءات التي ضعّفها البصريون أو ردّوها أو

---

(١) مدرسة البصرة النحوية، تأليف الدكتور عبدالرحمن السيد، ط١، دار المعارف بمصر: ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٢) القراءات واللهجات: ١٢٩.

(٣) مدرسة الكوفة، للدكتور مهدي المخزومي، ط٣، دار الرائد العربي ـ بيروت: ٣٣٧.

(٤) المصدر السابق: ٣٣٧.

(٥) النشر: ١٠/١.

شذّذوها وأجازها الكوفيون وقاسوا عليها.

١ ـ قرأ حمزة الزيات (ت١٥٦هـ): ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَالأَرْحامَ﴾[١]، بجرّ الأرحام[٢]، وهي قراءة سبعية[٣]، وبها قرأ ابن مسعود (ت٣٢هـ)[٤] وابن عباس (ت٦٨هـ)[٥] والحسن البصري (ت١١٠هـ)[٦] أحد القرّاء الأربعة عشر[٧]، وإبراهيم النخعي (ت٩٦هـ)[٨]، وقتادة (ت١١٧هـ)[٩]، والأعمش (ت١٤٨هـ)[١٠]، ويحيى بن وثاب (ت١٠٣هـ)[١١]، وطلحة بن مصرف[١٢] (ت١١٢هـ)[١٣]، فردّ

---

(١) سورة النساء: ١/٤، والذي في المصحف: (والأرحام) بالنصب، وهي قراءة الآخرين.

(٢) التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني، تحقيق، لتوبرونزل استنبول: ٩٣.

(٣) الحجّة، لابن خالويه، تحقيق: د. عبدالعال سالم مكرم، بيروت: ١١٨، والتيسير: ٩٣.

(٤) عرض القرآن على النبي ﷺ. ينظر: غاية النهاية: ٤٥٨/١.

(٥) حفظ القرآن في زمن النبي ﷺ وقرأ على عليّ عليه السلام، ينظر: غاية النهاية: ٤٢٧/١.

(٦) هو أبو سعيد الحسن بن يسار، فقيه زمانه عنه أخذ أبو عمرو بن العلاء. ينظر: غاية النهاية: ٢٣٥/١.

(٧) مناهل العرفان: ٤٥٧/١.

(٨) هو أحد قراء الكوفة، وعليه قرأ الأعمش وطلحة بن مصرف. غاية النهاية: ٢٩/١.

(٩) هو قتادة بن دعامة البصري. ينظر: غاية النهاية: ٢٥/٢.

(١٠) هو سليمان بن مهران الكوفي. ينظر المصدر السابق: ٣١٥/١.

(١١) هو أحد قرّاء الكوفة، تابعي ثقة، المصدر السابق: ٣٨٠/١.

(١٢) تابعي أقرأ أهل الكوفة في عصره وعرف بسيّد القرّاء، المصدر السابق: ٣٤٣/١.

(١٣) الإنصاف. المسألة ٦٥: ٢٤٦/٢، وشرح المفصل لابن يعيش، طبع القاهرة: ٧٨/٣، والبحر المحيط: ١٥٧/٣، وأبرز المعاني: ٢٨٤.

البصريون هذه القراءة لأنها تتعارض مع القاعدة البصرية التي لا تجيز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة حرف الجر[1]، فقال المبرّد (ت٢٨٥هـ): هذا ممّا لا يجوز عندنا[2] ونسب إليه أنّه قال: لا تحلّ القراءة بها[3]، وهو قول لم أجده في مؤلفاته، ومن نسبه إليه قال: هذا القول غير مرضي من أبي العباس؛ لأنه قد رواها إمام ثقة[4].

أمّا ابن جنّي (ت٣٩٢هـ)[5] الذي احتجّ للقراءات الشاذّة فقد قبل هذه القراءة وردّ على المبرّد (ت٢٨٥هـ) بقوله: ليست هذه القراءة عندنا من الإبعاد والفحش والشناعة والضعف على ما رآه فيها وذهب إليه أبو العباس[6]، بل الأمر فيها دون ذلك وأقرب وأخفّ وألطف؛

---

(١) الإنصاف. المسألة ٦٥: ٢٤٦/٢، والبسيط في شرح الكافية ـ تحقيقنا ـ رسالة دكتوراه ـ كلية الآداب ـ جامعة بغداد، آلة كاتبة: ٦٥٥/١.

(٢) الكامل، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وصاحبه، مطبعة نهضة مصر، القاهرة: ٣٩/٣.

(٣) شرح المفصّل: ٧٨/٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) هو أبو الفتح عثمان بن جنّي مؤلف الخصائص والمحتسب والمنصف وغيرها وتلميذ أبي علي الفارسي. نزهة الألباء لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق: الدكتور إبراهيم السامرائي، ط٣، نشر مكتبة الأندلس ـ بغداد: ٢٤٤. ووفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت: ٢٤٦/٣، وبغية الوعاة: ١٣٢/٢. واقرأ عنه: ابن جنّي النحوي للدكتور فاضل السامرائي، دار النذير ـ بغداد.

(٦) يريد المبرّد.

وذلك أنّ لحمزة أن يقول لأبي العباس: كأنّي قلت: وبالأرحام ثمّ حذفت الباء لتقدّم ذكرها[1].

وقال الزجّاج (ت٣١١هـ)[2]:

القراءة الجيّدة نصب الأرحام... أمّا الجرّ في الأرحام فخطأ في العربية لايجوز إلاّ في اضطرار شعر، وخطأ أيضاً في أمر الدين عظيم[3].

وقال أبو جعفر النحّاس[4] قال البصريون: هو لحنٌ لا تحلّ القراءة به[5]، ويعقّب العلاّمة الرضي (ت٦٨٦هـ)[6] بقوله: والظاهر أنّ حمزة جوّز ذلك بناءً على مذهب الكوفيين؛ لأنه كوفي: ولا نسلّم تواتر

---

(١) الخصائص: ٢٨٥/١.

(٢) هو إبراهيم السري بن سهل أبو إسحاق الزجّاج، أخذ عن المبرّد وعنه أخذ أبو علي الفارسي. طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار المعارف بمصر: ١١١. وإنباه الرواة لعلي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مطبعة دار الكتب المصرية: ١٥٩/١، وبغية الوعاة: ٤١١/١.

(٣) معاني القرآن وإعرابه، للزجّاج: ٢/٢.

(٤) هو أبو جعفر أحمد بن محمد النحّاس النحوي صاحب إعراب القرآن. إنباه الرواة: ١٠١/١.

(٥) إعراب القرآن لأبي جعفر النحّاس ـ تحقيق الدكتور زهير غازي، مطبعة العاني ـ بغداد: ٣٩٠/١.

(٦) هو رضي الدين محمّد بن الحسن الاسترابادي الذي شرح كافية ابن الحاجب شرحاً لم يؤلّف مثله. ينظر: بغية الوعاة: ٥٦٧/١، وكشف الظنون لحاجي خليفة ـ طهران، ط٣: ١٠٢١ و ١٣٧٠، والأعلام للزركلي ـ بيروت، ط٣: ٣١٧/٦.

القراءات السبع[1].

وإذا لم يسلّم العلاّمة الرضي الاسترابادي بتواتر القراءات السبع، أيشكّ بعروبة ابن مسعود (ت٣٢هـ) الهذلي وابن عباس (ت٦٨هـ) القرشي، وإبراهيم النخعي (ت٩٦هـ)، وهم ممّن قرأ هذه القراءة، والنحاة يأخذون ببيت شعر مجهول القائل، أفلا يأخذون بالقرآن؟

وإذا كان حمزة (ت١٥٦هـ) كوفيّاً، فما قوله بالحسن البصري (ت١١٠هـ)، وقتادة (ت١١٧هـ) وهما من قرّاء البصرة؟ والعرب تستعمل ذلك، أنشد سيبويه:

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والأيام من عجب[2]

بجرّ الأيام، وقال الآخر:

نعلق في مثل السواري سيوفنا وما بينها والكعب غوط نفانف[3]

---

(١) الكافية، شرح الرضي لرضي الدين محمّد بن الحسن الاسترابادي، دار الكتب العلمية، بيروت: ٣٢٠/١.

(٢) البيت لا يعرف قائله ويروى (أنشأت) و (قد بتّ) مكان (قربت) الكاتب: ٣٩٢/١، والكامل: ٣٩/٣، والإنصاف، المسألة ٦٥: ٢٤٧/٢، وشرح المفصل: ٧٨/٣، والبسيط: ٦٥٤/١، والخزانة: ١٢٣/٥.

(٣) البيت لمسكين الدارمي، ويروى (تعلق) بالبناء للمجهول ورفع (سيوفنا) كما يروى (تنانف) مكان (نفانف)، والشاهد فيه عطف الكعب على الضمير المجرور. ديوان مسكين الدارمي، تحقيق: خليل العطية، دار البصري ـ بغداد: ٥٣، والإنصاف، المسألة ٦٥: ٢٥١/٢، وشرح الأشموني مع حاشية الصبان، مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة: ١١٥/٣.

وقد ردّ البصريون هذه الشواهد وغيرها من النثر كقولهم: (ما فيها غيره وفرسه)[1].

أمّا الكوفيون فقد قبلوا هذه القراءة ورتّبوا عليها وعلى غيرها جواز عطف الاسم الظاهر على الضمير المجرور من غير إعادة حرف الجر[2].

والشاعر المعاصر لايهمّه أرضي البصريون أم غضبوا وهو يقول:

يوم الشهيد تحيـــة وسلام بك والنضال تؤرخ الأعوام[3]

٢ـ قال تعالى:﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾[4]، فقرأ الجمهور بكسر الهاء من (يؤدّه) وقرأ أبو عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) وشعبة (ت١٩٣هـ)[5]، وحمزة (ت١٥٦هـ)، والأعمش (ت١٤٨هـ) بسكون الهاء[6]، فردّ

---

(١) البحر المحيط: ١٤٧/٣، وشرح التصريح للشيخ خالد الأزهري، القاهرة: ١٥١/٢.

(٢) الإنصاف ـ المسألة ٦٥: ٢٤٦/٢.

(٣) ديوان الجواهري، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي وجماعته ـ بغداد: ٢٦٧/٣.

(٤) سورة آل عمران: ٧٥/٣.

(٥) هو أبو بكر شعبة بن عياش بن سالم الكوفي راوي عاصم. ينظر: غاية النهاية: ٣٢٥/١.

(٦) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: الدكتور محي الدين رمضان ـ دمشق: ٣٤٩/١. ومجمع البيان: ١١٨/٣، والبحر المحيط: ٤٩٩/٢، والنشر: ٣٠٥/١، والمهذب في القراءات العشر، لمحمد سالم محيسن ـ القاهرة: ١٢٧/١.

البصريون هذه القراءة.

قال أبو إسحاق الزجّاج (ت٣١١هـ): وهذا الإسكان الذي روي عن هؤلاء غلط؛ لأنّ الهاء لا ينبغي أن تجزم، وإذا لم تجزم فلا يجوز أن تسكّن في الوصل[١]. وقال النحّاس (ت٣٣٨هـ) تعقيباً على هذه القراءة: «فأمّا إسكان الهاء فلا يجوز إلاّ في الشعر عند بعض النحويين وبعضهم لا يجيزه»[٢].

والعجيب رفض البصريين قراءة أبي عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) وهو من أبرز نحاة البصرة ومن أعلم الناس بالقرآن والعربية مع الصدق والثقة والزهد[٣]، وهو القائل: لقد حفظت في علم القرآن أشياء لو كتبت ما قدر الأعمش على حملها، ولولا أن ليس لي أن أقرأ إلا بما قرئ لقرأت كذا وكذا كذا وكذا[٤].

قال أبو حيان (ت٧٤٥هـ): وما ذهب إليه أبو إسحاق من انّ الإسكان غلط ليس بشيء، إذ هي قراءة في السبعة وهي متواترة، وكفى أنّها منقولة عن إمام البصريين أبي عمرو بن العلاء، فإنّه عربي صريح وسامع لغة، وإمام في النحو[٥].

---

(١) البحر المحيط: ٤٩٩/٢.

(٢) إعراب القرآن: ٣٤٥/١.

(٣) ينظر: طبقات النحويين: ٣٥، ونزهة الألباء: ٣١، وغاية النهاية: ٢٨٨/١.

(٤) غاية النهاية: ٣٩٠/١.

(٥) البحر المحيط: ٤٩٩/٢.

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ﴾[١].

قال أبو حيّان (ت٧٤٥هـ) قرأ الجمهور: (معايش) بالياء وهو القياس... وقرأ الأعرج (ت١١٧هـ)[٢]، وزيد بن علي[٣]، والأعمش (ت١٤٨هـ)، وخارجة (ت١٦٨هـ)[٤]، عن نافع (ت١٦٩هـ) وابن عامر (ت١١٨هـ) في رواية: معائش بالهمز وليس بالقياس، ولكنّهم رووه وهم ثقات[٥]، وجميع النحاة البصريين يزعمون أنّ همزها خطأ[٦].

---

(١) سورة الأعراف: ١٠/٧.

(٢) هو عبدالرحمن بن هرمز أبو داود المدني، أخذ القراءة عن أبي هريرة وأخذ عنه نافع المدني. غاية النهاية: ٣٨١/١.

(٣) في المحتسب لابن جني قراءات تنسب إلى زيد بن علي وبعده عبارة (عليه السلام) أو (رضي الله عنهما)، فإن كانت هذه العبارة أثبتها ابن جنّي نفسه ففيها دليل على انّ المراد به زيد الشهيد بن علي بن الحسين عليهم السلام، وإن كانت من صنع النسّاخ فله شأن آخر، ولم أجد لزيد الشهيد ترجمة في طبقات القرّاء والموجودة ترجمة زيد بن علي بن أبي بلال المتوفّى في بغداد سنة ٣٥٨. والموضوع يحتاج إلى تحقيق. ينظر: المحتسب: الرجوع إلى الفهارس: ٤٩٣/٢، وغاية النهاية: ٢٩٨/١.

(٤) هو خارجة بن مصعب، أخذ القراءة عن نافع وأبي عمرو وحمزة. غاية النهاية: ٢٦٩/١.

(٥) البحر المحيط: ٢٧١/٤.

(٦) لسان العرب (عيش): ٢١٢/٨.

قال الزجّاج (ت٣١١هـ): جميع نحاة البصرة تزعم أنّ همزها خطأ، ولا أعلم لها وجهاً إلا التشبيه بصحيفة وصحائف، ولا ينبغي التعويل على هذه القراءة[١].

وقال المازني (ت٢٤٧هـ): أصل هذه القراءة عن نافع ولم يكن يدري ما للعربية[٢]، وقال النحّاس (ت٣٣٨هـ): الهمز لحن لا يجوز[٣].

ويقول ابن الأنباري (ت٥٧٧هـ): وقد قرئ: معائش بالهمز على تشبيه الأصلية بالزائدة، وهي قراءة ضعيفة في القياس[٤]، وكان أبو حيان (ت٧٤٥هـ) على حقّ عندما قال: لسنا متعبّدين بأقوال نحاة البصرة[٥].

فكيف تردّ قراءة رواها الثقات مثل ابن عامر (ت١١٨هـ) وهو عربي صراح وقد أخذ القرآن عن عثمان قبل ظهور اللحن، والأعرج (ت١١٧هـ) وهو من كبار قرّاء التابعين، وزيد بن علي وهو من الفصاحة والعلم بالمكان الذي قلّ أن يدانيه في ذلك أحد، والأعمش

---

(١) البحر المحيط: ٢٧١/٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) إعراب القرآن: ٦٠٠/١.

(٤) البيان في غريب إعراب القرآن، لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق الدكتور طه عبدالحميد ـ القاهرة: ٣٥٥/١.

(٥) البحر المحيط: ٢٧١/٤.

(ت١٤٨هـ) وهو من الضبط والإتقان والحفظ والثقة بمكان، ونافع (ت١٦٩هـ) وهو قد قرأ على سبعين من التابعين وهم من الفصاحة والضبط والثقة بالمحلّ الذي لا يجهل، فوجب قبول ما نقلوه إلينا، ولا مبالاة بمخالفة نحاة البصرة[١].

٤ ـ غلّط البصريون ابن عامر في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ﴾[٢]، فقرأ: ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم﴾[٣] بنصب (أولادهم) وجرّ (شركائهم) ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وهو أمر منعه البصريون، فرموا ابن عامر (ت١٨٨هـ) بالجهل[٤] والوهم[٥] ووصفوا القراءة بالقبح[٦] والشذوذ[٧] والضعف[٨] وبأنها غير صحيحة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة الأنعام: ٦/ ١٣٧.

(٣) التيسير: ١٠٧ وسراج القاري لعلي بن القاصح البغدادي ـ الأزهرية ـ القاهرة: ٢٠٦.

(٤) الكشاف: ٢/ ٥٤ والبحر المحيط: ٤/ ٢٢٩.

(٥) الإنصاف: المسألة ٦٠ ـ ١/ ٢٢٨.

(٦) الحجة لأبي علي الفارسي ـ نسخة بلدية الأسكندرية: ٤/ ١٠١، والحجة لابن خالوية: ١٥١، ومجمع البيان: ٨/ ٢٠٦ وخزانة الأدب للبغدادي ـ تحقيق: عبدالسلام هارون ـ القاهرة: ٤/ ٤٢٣.

(٧) مجمع البيان، ٨/ ٢٠٥ والبحر المحيط: ٤/ ٣٢٩.

(٨) البيان في غريب إعراب القرآن: ٢٤٣.

وانها لحن[1]، ورفضوا الاحتجاج بها؛ لأنّ الإجماع عندهم واقع على امتناع الفصل بين المضاف والمضاف إليه في غير ضرورة الشعر والقرآن ليس فيه ضرورة، وإذا وقع الإجماع على امتناع الفصل بينهما في حال الاختيار، سقط الاحتجاج بها على حال الاضطرار[2].

قال ابن خالويه (ت٣٧٠هـ)[3]: هو قبيح في القرآن[4]. وقال أبوعلي الفارسي (ت٣٧٧هـ): هذا قبيح الاستعمال ولو عدل عنها كان أولى[5]، وقال أبو عبيد[6] (ت٢٢٤هـ): لا أحبّ قراءة ابن عامر لما فيها من الاستكراه[7]. وقال النحّاس (ت٢٣٨هـ): فأمّا ما حكاه

---

(١) إعراب القرآن: ١/ ٥٨٣.

(٢) الإنصاف: المسألة ٦٠: ١/ ٢٢٧.

(٣) هو الحسين بن أحمد بن خالويه اللغوي المقرىء النحوي أخذ النحو عن أبي سعيد السيرافي عاش في بغداد ومات في حلب. إنباه الرواة: ١/ ٣٢٤ والفلاكة والمفلوكون تأليف شهاب الدين أحمد بن علي الدلجي ـ مطبعة الآداب ـ النجف: ١٣٢.

(٤) الحجة لابن خالويه: ١٥١.

(٥) الحجة لأبي علي الفارسي: ٤/ ١٠٢ وخزانة الأدب، ٤/ ٢٢٣.

(٦) هو أبو عبيد القاسم بن سلام الخراساني أخذ عن أبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة والاصمعي وأبي عمرو الشيباني والكسائي والفراء. ينظر: مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة نهضة مصر، ط٢ ـ القاهرة: ١٤٨ وطبقات النحويين: ١٩٩ ونزهة الألباء ١٠٩: وغاية النهاية: ٢/ ١٧.

(٧) خزانة الأدب: ٤/ ٤٢٣.

أبوعبيد عن ابن عامر وأهل الشام فلا يجوز في كلام ولا في شعر، وإنّما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه في الشعر بالظرف؛ لأنه لا يفصل، فأمّا بالأسماء غير الظرف فلحن[1].

وتطرّف الزمخشري (ت٥٣٨هـ)[2] فقال: وأمّا قراءة ابن عامر (ت١١٨هـ) فشيء لو كان في مكان الضرورة لكان سمجاً مردوداً... فكيف به في الكلام المنثور؟ ... والذي حمله على ذلك أنّه رأى في بعض المصاحف مكتوباً بالياء، ولو قرئ بجرّ الأولاد والشركاء... لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب[3].

وتلك جرأة من الزمخشري على القرّاء الثقة حملة كتاب الله وحفظة كلامه، فتصدّى له من يردّ عليه بقوله: لقد ركب المصنّف في هذا الفعل متن عمياء وتاه في تيهاء[4]، وقال أبوحيان (ت٧٤٥هـ): وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يردّ على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت وأعجب لسوء ظنّ هذا

---

(١) إعراب القرآن: ١/ ٥٨٣.

(٢) هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري مصنف الكشاف والفائق وأساس البلاغة وربيع الأبرار وغيرها. وينظر أنباه الرواة: ٣/ ٢٦٥ ونزهة الألبا: ٢٩٠.

(٣) الكشاف: ٢/ ٥٤.

(٤) هذا قول أحمد بن المنير الاسكندري (ت ٦٨٣هـ)، ينظر كتاب الانتصاف من الكشاف بحاشية الكشاف: ٢/ ٥٣.

الرجل بالقرّاء الأئمّة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله[1].

أمّا الكوفيون فقد قبلوا هذه القراءة، ورتّبوا عليها جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف، وعلّل أبو حيان (ت٧٤٥هـ) ذلك بوجودها في القراءة المتواترة المنسوبة إلى العربي الصريح المحض ابن عامر الآخذ القرآن عن عثمان بن عفان قبل أن يظهر اللحن في لسان العرب وبوجودها في لسان العرب في عدّة أبيات[2].

وممّا جاء من الشعر على هذه القراءة ما أنشده الأخفش (ت٢١٥هـ)[3]:

فزججتها بمزجة زج القلوص أبي مزادة[4]

بنصب القلوص وغيره من الشعر والنثر[5].

---

(١) البحر المحيط: ٤/ ٢٣.

(٢) البحر المحيط: ٤/ ٢٢٩.

(٣) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط ينظر: نزهة الالباء: ١٠٧ واقرأ عنه منهج الأخفش الأوسط للدكتور عبدالأمير الورد ـ بغداد.

(٤) يروى (متمكناً) مكان (بمزجة) كما يروى: زج الصعاب أبو مزادة وزج القلوص أبو مزادة. والقلوص الناقة الفتية، معاني القرآن للفراء: ١/ ٣٥٨ ومجالس ثعلب ـ تحقيق: عبدالسلام هارون ـ دار المعارف بمصر، ١٢٥ والخصائص: ٢/ ٤٠٦ وتحصيل عين الذهب للشنتمري بهامش الكتاب: ١/ ٨٨ والبيان في غريب إعراب القرآن: ١/ ٣٤٢ والبسيط: ١/ ٦١١ وفيه: وسيبويه برئ منه. والخزانة: ٤/ ٤١٥.

(٥) ينظر: الدفاع عن القرآن للدكتور أحمد مكي الأنصاري ـ القاهرة: ١٣٢ ـ ١٦٥.

وأجاز ابن مالك (ت٦٧٢هـ)[١] من المتأخرين الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول[٢] وقال في كافيته الشافية:

وحجّتي قراءة ابن عامر فكم لها من عاضد وناصر[٣]

احتجّ ابن مالك ـ وهو على حقّ ـ بالقراءة على القاعدة، فصحّح القاعدة بالقراءة ولم يصحّح القراءة بالقاعدة.

٥ ـ ومن مرونة ابن مالك أنه جوّز مجيء أفعل التفضيل من الخير والشر بصيغة أفعل[٤] اعتماداً على قراءة[٥] أبي قلابة[٦]: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾[٧]، بفتح الشين، فقد أخذ بالقراءة الشاذّة وصحّح بها القاعدة، وهو من أكثر النحاة استشهاداً بالقراءات الشاذّة[٨].

---

(١) هو أبو عبدالله محمد جمال الدين بن مالك الطائي الجياني النحوي ينظر، بغية الوعاة، ١/ ١٣٠.

(٢) تسهيل الفوائد لابن مالك تحقيق: محمد كامل بركات ـ القاهرة: ١٦١.

(٣) النشر: ٢/ ٢٦٤.

(٤) شرح التسهيل ـ لمحمد بن مالك: ١٣٤.

(٥) مختصر في شواذ القرآن: ١٤٧ والمحتسب: ٢/ ٢٩٩.

(٦) هو أبو قلابة محمد بن أحمد بن أبي دارة أخذ القراءة عن الحسن بن داود النقار وعن غيره: ينظر غاية النهاية: ٢/ ٦٢.

(٧) سورة القمر: ٥٤/ ٥٦ وقراءة الجماعة (من الكذاب الأشر) بكسر الشين.

(٨) ينظر شرح التسهيل: ٦، ١٠، ١٣، ٤٠، ٦٣، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٤، ١٣٥، ١٥٢. وأصول التفكير النحوي للدكتور علي أبو المكارم ـ بيروت: ١٣٢.

سنكتفي بهذا، تاركين قراءات أخرى رفضها أو شذّذها المتشدّدون من النحاة، وأنت قد تجد المتشدّدين بين الكوفيين وقد تجد من يحترم القراءات بين البصريين، فإنّ الأخفش (ت٢١٥هـ) من البصريين مثلاً يخالف القاعدة البصرية ويتابع القراءة[١]، بينما نجد أبابكر محمد بن القاسم الأنباري[٢] (ت٣٢٨هـ) الكوفي[٣] يشذّذ قراءة سبعية فيقول: قرأ أبو عبدالرحمن السلمي[٤] (ت٧٤هـ): ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدوةِ وَالْعَشِيِّ﴾[٥] وهي قراءة شاذّة لا يقاس عليها ولا تجعل أصلاً[٦].

ونسي الأنباري وهو ممّن صنّف في علوم القرآن[٧] أنّ هذه

---

(١) معاني القرآن للأخفش: ١/ ٢٤٤ والإنصاف ـ المسألة: ٣٣ ـ ١/ ١٤٤.

(٢) ترجمته في: طبقات النحويين: ١٥٣ ونزهة الالباء: ١٩٧.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) هو أبو عبدالرحمن عبدالله بن حبيب بن ربيعة السلمي الضرير مقرىء الكوفة، غاية النهاية، ١/ ٤١٣.

(٥) سورة الكهف: ١٨/ ٢٨ قرأ ابن عامر من القراء السبعة (بالغدوة) وبها قرأ أبو عبدالرحمن السلمي ومالك بن دينار والحسن ونصر بن عاصم وأبو رجاء العطاردي وقرأ باقي القراء الأربعة عشر(بالغداة) ينظر: التيسير: ١٤٣ ومجمع البيان: ١٥/ ١٤٧ والبحر المحيط ٤/ ١٣٦ واتحاف فضلاء البشر: ٢٨٩.

(٦) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري تحقيق: عبدالسلام هارون ـ دار المعارف بمصر: ١٣٧.

(٧) ينظر كتابه: إيضاح الوقف والابتداء.

القراءة التي حكم بشذوذها قرأ بها ابن عامر[1] (ت١١٨هـ) أعلى القرّاء السبعة سنداً، وأقدمهم هجرة[2] وغيره[3]، وإنما تأثّر الأنباري بالفراء (ت٢٠٧هـ) الذي لا يعرف أحداً قرأ هذه القراءة غير أبي عبدالرحمن السلمي[4] (ت٧٤هـ)، وهناك من استنتج أنّ سبب تشذيذ الأنباري لهذه القراءة تعريف غدوة[5]؛ لأنها عند الفرّاء معرفة بغير ألف ولام[6]، وسنفرد لموقف سيبويه (ت١٨٠هـ) إمام النحاة[7] وشيخ مدرسة البصرة النحوية مكاناً مستقلاً؛ لأنه كان يحترم القرّاء[8]، على خلاف ما وجدناه عند نحاة البصرة.

كما سنفرد لموقف الفرّاء مكاناً مستقلاً آخر؛ لأنه خالف أصحابه الكوفيين وردّ بعض القراءات وحكم بشذوذها.

---

(١) التيسير: ١٤٣ ومجمع البيان: ١٥/ ٤٧ والنشر: ٢/ ٣١٠.

(٢) خزانة الأدب: ٤٢٢/٤.

(٣) تنظر ص: ٥٨، الحاشية: ٥.

(٤) معاني القرآن للفرّاء: ١٣٩/٢.

(٥) القياس في النحو العربي نشأته وتطوّره للدكتور سعيد جاسم الزبيدي ـ رسالة دكتوراه ـ كلية الآداب، جامعة بغداد، آلة كاتبة: ٥٧.

(٦) المصدر السابق: ١٣٩/٢.

(٧) إقرأ عنه كتاب، سيبويه إمام النحاة، لأستاذنا المرحوم علي النجدي ناصف، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة. وكتاب: سيبويه ـ حياته وكتابه للدكتورة خديجة الحديثي، طبع دار الحرية ـ بغداد.

(٨) خلافاً لما ذهب إليه الدكتور أحمد مكي الأنصاري في كتابه: سيبويه والقراءات، طبع دار المعارف بمصر، وكتابه: الدفاع عن القرآن.

موقف سيبويه من القراءات:

وقف سيبويه (ت ١٨٠هـ) من القراءات موقفاً معتدلاً، فقد كان يحترم القراءات وعنده «أنّ القراءة لا تخالف لأنها السنّة»[١]، ولم يخطّئ قراءة ولم أجده غلّط قارئاً إلا في موضع واحد كان فيه ناقلاً وهو موضع خلاف بين نسخ كتابه، وذلك قوله في طبعة هارون: وأمّا أهل المدينة فينزلون هو هاهنا بمنزلته بين المعرفتين ويجعلونها فصلاً في هذا الموضع فزعم يونس[٢] انّ أبا عمرو رآه لحناً، وقال: احتبى ابن مروان[٣] في هذه في اللحن: يقول: لحن وهو رجل من أهل المدينة، كما تقول: اشتمل بالخطأ، وذلك انّه قرأ: ﴿هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[٤] فنصب[٥].

---

(١) الكتاب: ٧٤/١.

(٢) هو يونس بن حبيب البصري من أصحاب أبي عمرو بن العلاء، كان بارعاً في النحو وعنه روى سيبويه، توفي سنة ١٨٢هـ ينظر: مراتب النحويين: ٤٤، وطبقات النحويين: ٥٤، وإنباه الرواة: ٦٨/٤، وبغية الوعاة: ٣٦٥/٢، عنه كتاب: يونس البصري للدكتور أحمد مكي الأنصاري، دار المعارف بمصر.

(٣) هو محمد بن مروان المدني القارئ، وردت عنه الرواية في حروف القرآن. غاية النهاية: ٢٦١/٢.

(٤) سورة هود: ٧٨/١١. والقراءة العامة كما في المصحف (هنّ أطهر لكم) بالرفع، وقراءة (أطهر) بالنصب هي قراءة الحسن وزيد بن علي وعيسى بن عمر وسعيد بن جبير ومحمد بن مروان والسدّي. ينظر: مختصر في شواذ القرآن: ٦٠، والمحتسب: ٢٢٥/٢، والبحر المحيط: ٢٤٧/٥.

(٥) كتاب سيبويه، تحقيق: عبدالسلام هارون: ٣٩٦/٢ ـ ٣٩٧.

وفي طبعة بولاق من الكتاب[1] وقف عند قوله احتبى في اللحن فلم يذكر الآية الكريمة كما لم يذكر انّه اشتمل بالخطأ. ومع هذا فهو ناقل عن يونس (ت١٨٢هـ) عن أبي عمرو (ت١٥٤هـ) فالذي لحن القارئ وخطّأه أبو عمرو على ما نقل يونس ورواه عنه سيبويه قال أبو حيان (ت٧٤٥هـ): «قال سيبويه هو لحن وقال أبو عمرو ابن العلا احتبى فيه ابن مروان في لحنه يعني تربع»[2]، وقال ابن الجزري (ت٨٣٣هـ)[3]: روى الداني (ت٤٤٤هـ)[4] عن الأصمعي (ت٢١٦هـ)[5] انّه قال: قلت لأبي عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ): إنّ عيسى بن عمر (ت١٤٩هـ)[6] حدّثنا قال: قرأ ابن مروان ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[7] قال احتبى من لحنه[8].

---

(١) الكتاب: ٣٩٧/١.

(٢) البحر المحيط: ٢٤٧/٥ وفي النشر.

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف بن الجزري مؤلف كتاب غاية النهاية وكتاب النشر. ينظر غاية النهاية: ٢٤٧/٢.

(٤) هو أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني صاحب التيسير، ينظر: غاية النهاية: ٥٠٣/١.

(٥) هو أبو سعيد عبدالملك بن قريب الأصمعي صاحب اللغة والنحو والغريب والأخبار والملح. ينظر تاريخ بغداد: ٤١٠/١٠، ونزهة الألبّاء: ٩٠، وإنباه الرواة: ١٩٧/٢.

(٦) هو عيسى بن عمر الثقفي كان عالماً بالعربية والنحو والقراءة، نزهة الألبّاء: ٢٨، واقرأ عنه كتاب، عيسى بن عمر الثقفي.

(٧) سورة هود: ٧٨/١١.

(٨) النشر: ٢٦١/٢، وفي مختصر في شواذ القرآن: ٦٠ «قال أبو عمرو بن العلاء من قرأ (هنّ أطهر لكم) فقد تربّع في الجنة» وهو خطأ مطبعي.

ومن هذا يتبيّن انّ سيبويه لم يخطّئ القراءة ولم يلحّن القارئ كما زعم أبو حيان (ت٧٤٥هـ)[١] وإنّما هو ناقل عن غيره.

أمّا ما ذكره أبو الثناء محمود الآلوسي[٢] من تغليط سيبويه (ت١٨٠هـ) لقراءة ابن عامر (ت١١٨هـ): (معائش) من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ﴾[٣] وحذا حذوه عبدالوهاب حمودة[٤] وتابعهما الدكتور حسن عون فقال: يرى سيبويه أيضاً انّ قراءة الهمزة في هذه الآية غلط[٥]، ورجعت إلى كتاب سيبويه فلم أجد فيه ذكراً للقراءة ولم يتعرّض للآية المذكورة، إنّما تحدّث عن الهمزة فقال: ولم يهمزوا مقاول ومعايش لأنّهما ليستا بالاسم على الفعل فتعتلا عليه وإنّما هو جمع مقالة ومعيشة... فأمّا قولهم مصائب فإنّه غلط منهم وذلك أنّهم توهّموا أنّ مصيبة فعيلة وإنّما هي مفعلة وقد قالوا مصاب، وسألته ـ يريد الخليل (ت١٧٥هـ) ـ عن واو عجوز وألف رسالة وياء صحيفة لأيّ شيء همزن في الجمع ولم يكن بمنزلة معاون ومعايش إذا قلت صحائف ووسائل وعجائز فقال: لأنّي

---

(١) البحر المحيط: ٢٤٧/٥.

(٢) روح المعاني: ٨٥/٨.

(٣) سورة الأعراف: ٨٥/٨.

(٤) القراءات واللهجات: ١٤٣.

(٥) اللغة والنحو: ١٩١.

إذا جمعت معاون ونحوها فإنّما أجمع ما أصله الحركة[1].

وقد جرت عادة سيبويه على ذكر القاعدة التي يقرّها فإن تعارضت مع قراءة فلا يذكر تلك القراءة من ذلك منعه العطف على الضمير المجرور من غير إعادة حرف الجر، فقال: وممّا يقبح أن يشركه المظهر علامة المضمر المجرور، وذلك قولك: مررت بك وزيد... وهذا قول الخليل[2] ولم يذكر قراءة حمزة الزيات (ت١٥٦هـ): ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَالأَرْحامَ﴾[3] بجرّ الأرحام[4] ومع هذا فهناك من يقول عن هذه القراءة: وأمّا سيبويه فهي عنده قبيحة[5]، ممّا حمل بعض الباحثين على القول: إنّ أول من فتح باب الطعن على هذه القراءة هو الإمام سيبويه رحمه الله!

ثمّ يستدرك فيقول: إنّ الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ) هو أوّل من فتح باب الطعن وعنه أخذ سيبويه[6] والخليل من هذه التهمة براء.

فقد لوحظ أنّ سيبويه حينما يعقّب على القراءات بما يشعر بعدم

---

(١) الكتاب: ٣٦٧/٢.

(٢) الكتاب: ٢٩/١.

(٣) سورة النساء: ١٥٨/٤.

(٤) التيسير: ٩٣.

(٥) البحر المحيط: ١٥٨/٣.

(٦) الدفاع عن القرآن: ٢.

موافقته إيّاها لا يزيد على القول: وهـذه لغـة ضـعيفة[1]، أو هـي لغـة قليلة[2]، فهو لا يوجّه الضعف إلى القراءة مباشرة، إنّمـا يحمـل القـراءة على إحدى لغات العرب الموصوفة بالضعف أو بالقلة، ومع ذلـك فهـي لغة تصحّ القراءة بها[3].

وإذا ثبت عند سيبويه نسبة القراءة إلى القارئ نصّ على اسمـه، كقوله[4]: وبلغنا أنّ الأعرج[5] (ت١١٧هـ) قـرأ[6]:﴿مَـنْ عَمِـلَ مِـنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[7] وقولـه[8]: وكان أبو عمرو يقول[9]:﴿يا عِبادِ فَاتَّقُونِ﴾[10].

وإن لم يثبت عنده اسم القارئ ذكر اسم البلد فقال مثلاً: وأهـل

---

(١) الكتاب: ٢٨/١.

(٢) المصدر السابق: ٢٩/١.

(٣) الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه: ٥٢، ودراسات في كتاب سيبويه للدكتورة خديجة الحديثي ـ الكويت: ٣٨.

(٤) الكتاب: ٤٦٧/١.

(٥) مرّت ترجمته ص: ٥٠.

(٦) بفتح الهمزة الأولى وكسر الثانية وهي قراءة نافع المدني، ينظر التيسير: ١٠٢، والبحر المحيط: ١٤١/٤.

(٧) سورة الأنعام: ٥٤/٦.

(٨) الكتاب: ٣١٦/١.

(٩) ينظر: إتحاف فضلاء البشر: ٣٧٥، وفيه نسب إثبات الياء إلى جمهور العراقيين.

(١٠) سورة الزمر: ١٦/٣٩.

المدينة يقرؤون[1]: ﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾[2] وفي غير ذلك يقول مثلاً وزعموا أنّ بعضهم قرأ[3]... وغير ذلك[4].

واتُّهم سيبويه (ت١٨٠هـ) بالتعصّب لقرّاء البصرة؛ لأنّه لم ينص إلا على إمام بصري كأبي عمرو[5] (ت١٥٤هـ) أو من قرأ على بصري كالأعرج[6] (ت١١٧هـ) أو عيسى[7] (ت١٤٩) أو من بعد عن هذه العصبية كعبدالله بن مسعود[8] (ت٣٢هـ) أو أُبي[9] (ت٢١هـ)[10]

---

(١) الكتاب: ٢٨٣/١.

(٢) سورة هود: ١١١/١١ في المصحف: (وانّ) بالتشديد والتخفيف عن نافع وابن كثير. التيسير: ١٢٦، وإتحاف فضلاء البشر: ٢٦٠.

(٣) الكتاب: ٢٨/١.

(٤) ينظر ما أحصته الدكتورة خديجة الحديثي في كتابها: الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه: ٥٣.

(٥) الكتاب: ١٣٨/٢.

(٦) الذين عرفو بالأعرج من القرّاء ثلاثة ليس فيهم من أخذ عن بصري، وهم: عبدالرحمن بن هرمز (ت١١٧هـ) وحميد بن قيس (ت١٣٠هـ) وعنه روى أبو عمرو بن العلاء ومحمد بن أحمد بن علي (ت٧٤٢هـ) ينظر: غاية النهاية: ٣٨١/١ و٢٦٥ و ٧٥/٢ على التوالي، والكتاب: ٣٠٥/١.

(٧) الكتاب: ٤٧١/١.

(٨) المصدر السابق: ١٥٨/١.

(٩) الكتاب: ٤٨١/١.

(١٠) ينظر: أبو علي الفارسي للدكتور عبدالفتاح إسماعيل شلبي مطبعة نهضة مصر: ١٦٥.

ومع أنّ سيبويه ذكر غير البصريين أمثال من ذكروا هنا في الأقل فإنّ الاعتقاد انّ سبب ذلك تعصّب سيبويه يحتاج إلى وحي، والحجّة الظنّية لا تثبت في مقام الاحتجاج، ولم لا يحمل على انّه لم ينص إلا على من ثبت لديه انّه قرأ تلك القراءة[1]؟ كما هو منهجه في شواهده، وينبغي إحسان الظن بسيبويه.

موقف الفرّاء من القراءات:

الفرّاء (ت٢٠٧هـ) ثاني اثنين أسّسا مدرسة الكوفة النحوية[2] وهو الذي تكفّل بإتمام البناء بعد الكسائي (ت٢٨٦هـ) وتعهّد المدرسة بالنمو[3] وكان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي[4].

ومعلوم أنّ الكوفيين قبلوا القراءات واحتجّوا بها وعقدوا على ما جاء فيها كثيراً من أصولهم وأحكامهم[5]، والفرّاء في (معاني القرآن) خير من يمثّل هذا المنهج، ولا أخفي إعجابي بالفرّاء وبمنهجه وبكتابه (معاني القرآن) ولكنني فهمت من بعض نصوصه أنّه يريد بعض القراءات، ويرمي بعض القرّاء بالوهم، وعندما أفهم بعد عكس هذا

---

(١) ينظر: الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه:٥٢، ودراسات في كتاب سيبويه:٣٩.

(٢) مدرسة الكوفة: ٧٤.

(٣) المصدر السابق: ١٢٧.

(٤) بغية الوعاة: ٢٣٣.

(٥) مدرسة الكوفة: ٣٤١.

وتبرأ منه ذمّة الفراء سأرجع مسروراً عن هذا الرأي.

وفيما يلي بعض هذا الذي تمنّيت أن يتنزه منه معاني القرآن أو ينكشف لي غامضه:

١ ـ أنّه ردّ قراءة حمزة الزيات (ت١٥٦هـ) ورمى بعض القرّاء بالوهم عندما قال: وقد خفض الياء من قوله: ﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾[١] الأعمش (ت١٤٨هـ) ويحيى بن وثاب[٢] (ت١٠٣هـ) جميعاً حدّثني القاسم بن معن[٣] (ت١٧٥هـ) عن الأعمش (ت١٤٨هـ) عن يحيى أنه خفض الياء. قال الفرّاء: ولعلها من وهم الفرّاء طبقة يحيى فإنّه قلّ من سلم منهم من الوهم[٤].

أفهم من توهيم الفرّاء للقرّاء أنّه يردّ هذه القراءة مع أنّها قراءة حمزة (ت١٥٦هـ) وهذه لغة بني يربوع[٥] ورأي أبوعبيد (ت٢٢٤هـ) انّ

---

(١) من قوله تعالى في سورة إبراهيم: ٢٢/١٤: ((ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي)) وقرأ بكسر الياء حمزة والأعمش ويحيى بن وثاب وجماعة من التابعين. التيسير: ١٣٤، والبحر المحيط: ٢١٩/٥، والنشر: ١٩٨/٢.

(٢) هو يحيى بن وثاب الكوفي تابعي ثقة من العباد الأعلام كان مقرئ أهل الكوفة. ينظر غاية النهاية: ٣٨٠/٢.

(٣) هو القاسم بن معن بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود قاضي الكوفة كان عفيفاً ثقة راوية للشعر عالماً بالغريب والنحو. ينظر: طبقات النحويين: ١٣٣.

(٤) معاني القرآن: ٧٥/٢.

(٥) النشر: ٢٩٨/٢، وخزانة الأدب: ٤٣٥/٤، واللهجات العربية في التراث للدكتور أحمد علم الدين الجندي ـ ليبيا: ١٨٧/١.

القرّاء قد غلطوا[1] وقد ردّها البصريون[2] فهي عند الأخفش (ت٢١٥هـ) لحن[3]، وذهب الزجاج (ت٣١١هـ) إلى أنّ هذه القراءة عند جميع النحويين رديئة مرذولة[4]، وقال الزمخشري (ت٥٣٨هـ) هي ضعيفة[5].

٢ ـ خطّأ الحسن البصري (ت١١٠هـ) فقال: وممّا أوهموا فيه قوله: «وما تنزلت[6] به الشياطون»[7].

وممّن تابع الفرّاء في ذلك الجاحظ (ت٢٥٥هـ) فقال: وغلط الحسن في حرفين من القرآن مثل قوله: ﴿ص والقُرآن﴾[8]، والحرف الآخر: «وما تنزلت به الشياطون»[9] وللجاحظ أتباع[10].

---

(١) البحر المحيط: ٤١٩/٥.

(٢) خزانة الأدب: ٤٣٥/٤.

(٣) معاني القرآن للأخفش: ٢٧٥/٢.

(٤) البحر المحيط: ٤١٩/٥، وخزانة الأدب: ٤٣٥/٤.

(٥) الكشاف: ٣٧٤/٢.

(٦) سورة الشعراء: ٢١٠/٢٦، هذه قراءة الحسن وقراءة الجماعة: ((وما تنزله به الشياطين)) ينظر: مختصر في شواذ القرآن: ١٢٩.

(٧) معاني القرآن: ٧٦/٢.

(٨) سورة ص: ١/٣٨، وهذه قراءة الحسن وأبي السحال وابن أبي إسحاق، ينظر مختصر في شواذ القرآن: ١٢٩.

(٩) البيان والتبيين: ٢١٩/٢.

(١٠) البحر المحيط: ٤٦٠/٧.

٣ ـ رمى بعض القرّاء السبعة بالوهم عندما قال وهو يتحدّث عن وهم القرّاء: وممّا أوهموا فيه قوله: ﴿نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾[١] بسكون الهاء ظنّوا ـ والله أعلم ـ أنّ الجزم في الهاء، والهاء في موضع نصب، وقد انجزم الفعل قبلها بسقوط الياء منه[٢]، وهو يريد قراءة تسكين الهاء في (نولّه) و(نصله) وهي قراءة قرأ بها من السبعة حمزة الزيات (ت١٥٦هـ) الكوفي وأبو عمرو بن العلاء[٣] (ت١٥٤هت) وهو عربي صريح وإمام البصريين في القراءة والنحو واللغة[٤].

٤ ـ خطّأ قراءة روي أنّ النبي ﷺ قرأ بها:

ففي معاني القرآن: حدّثنا أبو العباس قال: حدّثنا محمّد قال: حدّثنا الفرّاء قال: وحدّثني معاذ[٥] بن مسلم بن أبي سارة[٦] (ت١٨٧هـ) قال: كان جارك زهير الفرقبي[٧] يقرأ: «متكئين على

---

(١) سورة النساء: ١١٥/٤.

(٢) معاني القرآن: ٧٥/٢ ـ ٧٦.

(٣) المهذب: ١٢٧/١.

(٤) البحر المحيط: ٤٩٩/٢.

(٥) هو أبو مسلم معاذ بن مسلم الهراء عم أبي جعفر الرؤاسي محمد بن أبي سارة قرأ عليه الكسائي. ينظر: طبقات النحويين: ١١٥، ووفيات الأعيان: ٢١٨/٥، وبغية الوعاة: ١٠٩/١ و٢٩٠/٢.

(٦) في معاني القرآن ١٢٠/٣ أبي سادة وما أثبتناه عن بغية الوعاة: ١٠٩/١ و ٢٩٠/٢.

(٧) في معاني القرآن المطبوع ١٢٠/٣ القرقبي بقافين وهو زهير بن ميمون الفرقبي =

رفارف خضر وعباقري حسان»[1] قال: الرفارف قد يكون صواباً وأمّا العباقري فلا؛ لأنّ ألف الجماع لا يكون بعدها أربعة أحرف؛ ولا ثلاثة صحاح[2]، وقال ابن جني (ت٣٩٢هـ) هذه قراءة النبي [ص] وعثمان ونصر بن علي[3] والجحدري[4] [ت١٢٨هـ] وأبي الجلد ومالك بن دينار[5] [ت١٢٧هـ] وأبي طعمة وابن محيصن[6] (ت١٢٣هـ) وزير الفرقبي[7].

والذي يفهم من عبارة الفراء أنّه لا يرى قراءة (عباقري) صواباً، أمّا أن يكون هو القائل أو يكون ناقلاً قول معاذ الهراء (ت١٨٧هـ) من غير ردّه وهو دليل على مشاركته بردّ القراءة.

= قارئ نحوي كوفي يعرف بالكسائي منسوب إلى موضع وكان في زمن عاصم. ينظر: غاية النهاية: ٢٩٥/١، والبحر المحيط: ٢٣٣/١، وتاج العروس، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج وجماعته طبع الكويت ـ فرقب ـ: ٥٠٤/٣.

(١) سورة الرحمن: ٧٦، وقراءة الجماعة ((متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان)).

(٢) معاني القرآن: ١٢٠/٣.

(٣) ترجمته في غاية النهاية: ٣٣٨/٢.

(٤) تقدّمت ترجمته ص:٢١.

(٥) هو مالك بن دينار أبو يحيى البصري سمع أنس بن مالك وكان من أحفظ الناس للقرآن. ينظر: غاية النهاية: ٣٦/٢.

(٦) هو محمد بن عبدالرحمن بن محيصن المكي، مقرئ أهل مكة مع ابن كثير وكان ثقة. ينظر: غاية النهاية: ١٦٧/٢.

(٧) المحتسب: ٣٠٥/٢، وقد تقدّمت القراءة ص: ٢١.

٥ ـ أنّه يطعن بقراءة ابن عامر (ت١١٨هـ) فعدّ بذلك فاتح باب القدح على قراءة ابن عامر أعلى القرّاء السبعة سنداً وأقدمهم هجرة[١] الآخذ القرآن عن عثمان قبل أن يظهر اللحن[٢].

قال الفرّاء: وليس قول من قال: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾[٣] ولا ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ﴾[٤] بشيء[٥]، لقد عوّدنا الفراء أن يقف من القراءات التي لا توافق مذهبه موقفاً سليماً لا يهاجم فيه[٦]، ولكنّه في بعض المواطن يخرج عن طبيعته السمحة وعن منهج الكوفيين السليم إزاء القراءات[٧]، أتمنّى أن تتضح لي رؤية جديدة لعبارة الفرّاء أفهم منها أنّه لم يخدش القرّاء والقراءات كما صنع غيره، فربّما كنت ممّن فاتهم فهم عبارة الفرّاء[٨]، وأنا لا أريد إدانته بل

---

(١) خزانة الأدب: ٤٢٢/٤.

(٢) البحر المحيط: ٢٩٩/٤.

(٣) سورة إبراهيم:٤٧/١٤. قرأ الجمهور بإضافة (مخلف) إلى (وعده) ونصب (رسله)... وقرأت فرقة (مخلف وعده رسله) بنصب (وعده) وإضافة (مخلف) إلى (رسله) والفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول. البحر المحيط: ٤٣٨/٥ ـ ٤٣٩.

(٤) الأنعام: ١٣٧/٦، وهذه قراءة ابن عامر: تقدّمت ص٥٢.

(٥) معاني القرآن للفرّاء: ٨١/٢.

(٦) أبو علي الفارسي: ٢٦٣.

(٧) أبو زكريا الفرّاء للدكتور أحمد مكي الأنصاري ـ القاهرة: ٣٩٠.

(٨) ملاحظات على كتاب ـ مقالة لأستاذنا الدكتور مهدي المخزومي مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق، المجلد٤٧، لسنة ١٩٧٢هـ/٩١٤.

ممّن يسرّهم براءته من هذه التهمة، ولكنّني لست موكّلاً للدفاع عنه.

هذا هو موقف شيوخ المدرستين، أمّا المتأخرون عنهم، فمنهم من قبل القراءات واحتجّ بها كابن مالك (ت٦٧٢هـ)، ومنهم من رفض القراءة التي لا تتفق مع القاعدة النحوية أو القياس كالزمخشري (ت٥٣٨هـ)، وابن الأنباري (ت٥٧٧هـ)، أمّا ابن جنّي (ت٣٩٢هـ) الذي ألّف كتاب المحتسب محتجّاً فيه لما شذّ من القراءات عن السبعة تلبية لرغبة شيخه أبي علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) الذي همّ أن يضع يده فيه فعاجلته المنية[1]، فهو وإن كان من أكثر البصريين اعتدالاً ولكنّه يغلّط القرّاء ويستقبح القراءات التي تخالف القياس أو القاعدة، فيقول مثلاً: فأمّا قراءة عاصم[2] (ت١٢٧هـ) [وقيل من راق][3] ببيان النون من [من][4] فمعيب في الإعراب معيب في الأسماع؛ وذلك أنّ النون الساكنة لا توقف في وجوب إدغامها في الراء[5].

وقوله: ومن ذلك قراءة علي [عليه السلام] والأعرج

---

(١) المحتسب: ٣٤/١.

(٢) هو عاصم بن بهدلة بن أبي النجود شيخ الإقراء في الكوفة. غاية النهاية: ٣٤٦/١.

(٣) سورة القيامة: ٢٧/٧٥.

(٤) قرأ حفص عن عاصم بالسكوت على نون [من] سكتة لطيفة من غير تنفس لئلا يتوهّم أنّها اسم فاعل من المروق. مع صحّة الرواية ينظر: النشر: ٤١٩ و ٤٢٦، والمهذب: ٤٣٦/٢، والإرشادات الجلية لمحمد محمد سالم محيسن ـ القاهرة: ٤٨٣.

(٥) الخصائص: ٩٤/١ ـ ٩٥.

[ت١١٧هـ] ورويت عن عمرو بن عبيد[١] (ت١٤٤هـ): (خطوات)[٢] بضمّتين وهمزة وهي مرفوضة وغلط[٣]، وبعض القراءات عنده قبيحة[٤]، وكان الأولى بأبي الفتح تنزيه لسانه من الوقوع في القراءات الصحيحة.

ولم يتشدّد أبو حيان الأندلسي [ت٧٤٥هـ] في القراءات تشدّد البصريين، ولم يتساهل تساهل الكوفيين وابن مالك [ت٦٧٢هـ][٥]، فكان أمره وسطاً، فأعلى القراءات عنده ما أجمعت عليه السبعة، فأخذ بقراءاتهم كما أخذ بكلّ قراءة صحّ سندها عن الرسول [ص][٦]، وكان لا يقبل من النحاة تخطئتهم للقراء، وتصدّى للردّ على البصريين ومن تابعهم عندما غلّطوا القرّاء وردّوا قراءاتهم؛ لأنّها لا تتفق مع أقيستهم[٧].

---

(١) هو عمرو بن عبيد البصري سمع من الحسن البصري وروى عنه الحروف، ينظر: غاية النهاية: ٦٠٢/١.

(٢) من قوله تعالى في سورة البقرة: ١٦٨/٢ «ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين».

(٣) المحتسب: ١١٧/١.

(٤) الخصائص: ٢٣٠/٢.

(٥) الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه: ٤٩، وأبو حيان النحوي للدكتورة خديجة الحديثي، ط١، بغداد: ٤١٨.

(٦) البحر المحيط: ١٥٢/١، و ٤٦٦/٦.

(٧) المصدر السابق: ٤٠٧/٢ ـ ٤٠٨ و ٤٩٩/٢ ـ ٥٠٠ و ٢٢٩/٤ ـ ٢٣٠.

من هذا العرض ومن تتبّع كتب القراءات والتفاسير وكتب النحو نجد كثيراً من القراءات القرآنية قد تجهّم لها البصريون ومن تابعهم؛ لأنها خالفت أقيستهم وقواعدهم التي قعّدوها.

إنّ موقف البصريين هذا انحراف عن المنهج السليم؛ لأنهم ضيّقوا القواعد، وماذا عليهم لو جعلوا قواعدهم مرنة تتسع للقراءات القرآنية، على أنّ من القرّاء جماعة من أكابر النحويين واللغويين، ثمّ هم بعد هذا ثقة ناقلون لهذه اللغة، فإذا صحّ سند القراءة ووافقت أحد المصاحف العثمانية فلا سبيل لردّها من قبل النحاة، ولسنا متعبّدين بقول نحاة البصرة[1] وأنا أذهب إلى أنّ استقراء النحاة كان ناقصاً؛ لأنه في الأقل لم يشمل القراءات التي تمثّل لهجات عربية[2].

وقواعدهم التي قعّدوها ليست منزلة من السماء، فليصحّح النحاة قواعدهم حتّى تستوعب القراءات القرآنية في القياس على هذه القراءات الصحيحة فتحاً جديداً للغة العربية ونحوها وزيادة في السعة في فن القول.

---

(١) البحر المحيط: ١٥٩/٣.

(٢) اللهجات العربية في التراث: ١٩٢/١.

مصادر البحث

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ إبراز المعاني من حرز الأماني لأبي شامة عبدالرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٤٩هـ

٣ ـ ابن جنّي النحوي للدكتور فاضل صالح السامرائي، طبع دار النذير ـ بغداد، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

٤ ـ أبو حيان النحوي تأليف الدكتورة خديجة الحديثي، ط١، مطابع التضامن، بغداد، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.

٥ ـ أبو زكريا الفرّاء ومذهبه في النحو واللغة، تأليف الدكتور أحمد مكي الأنصاري، المجلس الأعلى للفنون والآداب، القاهرة، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م.

٦ ـ أبو علي الفارسي تأليف الدكتور عبدالفتاح إسماعيل شلبي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٣٧٧هـ

٧ ـ إتحاف فضاء البشر في القراءات الأربعة عشر تأليف أحمد محمد الدمياطي (ت١١١٧هـ) المطبعة الميمونية بمصر، ١٣١٧هـ

٨ ـ الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.

٩ ـ الإرشادات الجلية في القراءات السبع من طريق الشاطبية، تأليف محمد محمد سالم محيسن، مطبعة الفجالة، القاهرة، ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.
١٠ ـ أصول التفكير النحوي، تأليف الدكتور علي أبو المكارم، منشورات الجامعة الليبية، طبع بيروت، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.
١١ ـ أصول الكافي، تأليف يعقوب بن إسحاق أبي جعفر الكليني (ت٣٢٩هـ) دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٨٨هـ
١٢ ـ أطوار الثقافة والفكر، تأليف محمد أبو الفضل إبراهيم وجماعته، نشر مكتبة الانكلو أمريكية، ط١، القاهرة، ١٩٥٩م.
١٣ ـ إعراب القرآن لأبي جعفر أحمد بن محمد النحّاس (ت٣٣٨هـ)، تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.
١٤ ـ إعراب القرآن ومعانيه للزجاج (ت٣١١هـ) تحقيق ودراسة هدى محمود قراعة ـ رسالة دكتوراه ـ كلية الآداب، جامعة القاهرة، آلة كاتبة.
١٥ ـ الاغراب في جدل الإعراب، تأليف أبي البركات عبدالرحمن بن الأنباري (ت٥٧٧هـ)، تحقيق: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧هـ
١٦ ـ الاقتراح في علم أصول النحو، تأليف جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، مطبعة دار المعارف العثمانية، ط٢، حيدر آباد ـ الدكن، ١٣٥٩هـ
١٧ ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين علي بن يوسف القفطي (ت٦٤٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠هـ
١٨ ـ الانتصاف من الكشاف، تأليف أحمد بن محمد بن المنير الاسكندري

(ت٦٨٣هـ) بحاشية الكشاف، مطبعة مصطفى البـاني الحلـبي ـ القـاهرة، ١٣٥٤هـ

١٩ ـ الإنصاف في مـسائل الخـلاف لأبي البركـات عبـدالرحمن بـن الأنبـاري (ت٥٧٧هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، ط٣، مطبعة الـسعادة ـ القاهرة، ١٩٥٥م.

٢٠ ـ إيضاح الوقف والابتداء تـأليف أبي بكـر محمـد بـن القاسـم بـن بـشار الانباري (ت ٣٢٨هـ) تحقيق: محي الـدين عبـدالرحمن رمـضان المطبعـة التعاونية، دمشق، ١٣٩٠هـ ١٩٧١م.

٢١ـ البحر المحيط: تأليف محمد بن يوسف بن علي بن حيـان (ت ٧٤٥هـ) ط ١ـ القاهرة ـ ١٣٢٨هـ

٢٢ـ البداية والنهاية تأليف الحافظ أبي الفداء ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) ط ١ بيروت، ١٩٦٦م.

٢٣ـ البرهان في علوم القرآن تأليف بدر الـدين محمـد بـن عبـدالله الزركـشي تحقيق: محمد أبو الفـضل إبـراهيم، ط١، مطبعـة عيـسى البـابي الحلـبي، القاهرة، ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.

٢٤ـ البسيط في شرح الكافية ـ تحقيق الدكتور حـازم سـليمان الحلـي رسـالة دكتوراه ـ كلية الآداب، جامعة بغداد، آلة كاتبة ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م.

٢٥ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة تأليف جـلال الـدين عبـدالرحمن السيوطي (ت٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفـضل إبـراهيم مطبعـة عيـسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

٢٦ـ البيان في تفسير القرآن تأليف السيد إبو القاسم الخوئي ـ المطبعة العلمية ـ النجف، ١٣٧٥هـ

٢٧ـ البيان والتبيين تأليف الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) تحقيق عبدالسلام محمد هارون نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م.
٢٨ـ تاريخ الأدب العربي تأليف كارل بروكلمان (ت ١٩٥٦م) ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار وجماعته ـ دار المعارف بمصر، ١٩٦٨وما بعدها.
٢٩ـ تاريخ بغداد تأليف الحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٣٠ـ تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف بمصر ط ٢ ـ ١٩٦٩م.
٣١ـ تاريخ القرآن تأليف إبراهيم الابياري: دار القلم ـ بيروت.
٣٢ـ تاريخ القرآن تأليف الدكتور عبدالصبور شاهين دار القلم القاهرة ـ ١٩٦٦م.
٣٣ـ تاريخ القرآن تأليف الدكتور محمد حسين الصغير طبع الدار العالمية بيروت ط ١ ـ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٣٤ـ تاريخ القرآن وغرائب رسمه تأليف محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي ط ٢ ـ ١٣٧٢هـ ـ١٩٥٣م.
٣٥ـ تأويل مشكل القرآن تأليف عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) تحقيق السيد صفر ط ٢ دار التراث، القاهرة، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.
٣٦ـ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد تأليف محمد بن مالك (ت ٦٧٢هـ) تحقيق: محمد كامل بركات دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.
٣٧ـ تهذيب اللغة، تأليف أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠هـ)

تحقيق: عبدالسلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والنشر القاهرة، ١٩٦٤م ـ ١٩٦٧م.
٣٨ـ التيسير في القراءات السبع تأليف أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ) تحقيق: أوتو برنزل، استنبول، مطبعة الدولة: ١٩٣٠م.
٣٩ـ جامع البيان عن تأويل القرآن تأليف محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٣٧٤هـ
٤٠ـ الجامع لأحكام القرآن تأليف أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ) مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٢٧٢هـ ١٩٥٢م.
٤١ـ الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم تأليف: لبيب سعيد، دار الكاتب العربي، القاهرة ب. ت.
٤٢ـ الحجة ـ مخطوط ـ لأبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) نسخة بلدية الاسكندرية برقم ٣٥٧٠ح.
٤٣ـ الحجة في القراءات السبع لابن خالويه (ت ٣٧٠هـ) تحقيق: الدكتور عبدالعال سالم مكرم ط ٢ دار الشرق، بيروت ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
٤٤ـ خزانة الأدب تأليف عبدالقادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) تحقيق: عبدالسلام هارون، طبع دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م وما بعدها.
٤٥ـ الخصائص تأليف أبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) تحقيق: طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ـ ١٩٥٢م. ١٩٥٦م.
٤٦ـ دراسات في كتاب سيبويه، تأليف الدكتورة خديجة الحديثي الكويت، ١٩٨٠.
٤٧ـ الدفاع عن القرآن تأليف الدكتور محمد مكي الأنصاري القسم الأول دار

الاتحاد العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.
٤٨ ـ ديوان الأدب تأليف إسحاق بن إبراهيم الفارابي (ت ٣٥٠هـ) تحقيق: الدكتور أحمد مختار عمر. الهيئة المصرية العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.
٤٩ ـ ديوان الجواهري ـ تحقيق: الدكتور إبراهيم السامرائي وجماعته دار الحرية للطباعة، بغداد ـ ١٩٧٣م ـ ١٩٨٠م.
٥٠ ـ ديوان مسكين الدارمي، تحقيق الدكتور خليل العطية والدكتور عبدالله الجبوري ـ دار البصري: بغداد ١٣٨٣هـ
٥١ ـ رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات: مكتبة نهضة مصر القاهرة، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م.
٥٢ ـ روح المعاني تأليف أبي الثناء محمود بن عبدالله الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ) طبع بولاق ـ القاهرة، ١٣٠١هـ
٥٣ـ السبعة: تأليف ابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) تحقيق: الدكتور شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٢م.
٥٤ـ سراج القارئ: تأليف علي بن القاصح البغدادي (ت ٨٠١هـ) المطبعة الأزهرية ـ القاهرة ـ ١٣١٧هـ
٥٥ـ سيبويه إمام النحاة: تأليف علي النجدي ناصف مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٣٧٢هـ ١٩٥٣م.
٥٦ـ سيبويه: حياته وكتابه: للدكتورة خديجة الحديثي، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٥م.
٥٧ـ سيبويه والقراءات للدكتور أحمد مكي الأنصاري: دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٢م.

٥٨ـ الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه للدكتورة خديجة الحديثي مطبوعات جامعة الكويت ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.
٥٩ـ شرح الاشموني على ألفية ابن مالك تأليف علي بن محمد الأشموني: مطبوع مع حاشية الصبان، مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة، ب. ت.
٦٠ـ شرح التسهيل تأليف محمد بن مالك (ت ٦٧٣هـ) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم: ١٠/ نحو/ ش.
٦١ـ شرح التصريح: تأليف الشيخ خالد الأزهري (ت ٩٠٥هـ) مطبعة عيسى البابي الحلبي: القاهرة ـ ب. ت.
٦٢ـ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ) تحقيق عبدالسلام هارون: دار المعارف بمصر ط ٤: ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
٦٣ـ شرح المفصل تأليف يعيش بن علي بن يعيش (ت ٦٤٣هـ) إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة. ب. ت.
٦٤ـ الصاحبي تأليف أبي الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) تحقيق: أحمد الشويمي: مؤسسة بدران، بيروت: ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م.
٦٥ـ صحيح البخاري بشرح الكرماني، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) دار إحياء التراث العربي ط ٢ ـ بيروت ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
٦٦ـ طبقات النحويين واللغويين تأليف أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت ٣٧٩هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم: دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٣م.
٦٧ـ عيسى بن عمر الثقفي تأليف الدكتور صباح عباس السالم مؤسسة الأعلمي، بيروت ط ١ ـ ١٣٥٩هـ ـ ١٩٧٥م.

٦٨ـ العين لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي طبع الكويت والأردن ١٩٨٠م ـ ١٩٨٥م.

٦٩ـ غاية النهاية في طبقات القراء تأليف محمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ) تحقيق: براجشتراسر: مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٣٥١هـ ١٩٣٢م.

٧٠ـ غيث النفع في القراءات السبع تأليف علي بن النوري السفاقسي (ت١١١٨هـ) بهامش سراج القاري ط١ المطبعة العثمانية ـ القاهرة ١٣٠٤هـ

٧١ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) المطبعة البهية المصرية ـ القاهرة ١٣٤٨هـ

٧٢ـ فضائل القرآن لأبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ) دار الأندلس بيروت، ط١ ـ ١٩٧٩م.

٧٣ـ الفلاكة والمفلوكون تأليف شهاب الدين أحمد بن علي الدجي (ت ٨٣٨هـ) مطبعة الآداب النجف ـ ١٣٨٥هـ

٧٤ـ في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين، ط ٩ دار المعارف بمصر ١٩٦٨م.

٧٥ـ في النشر الجاهلي للدكتور طه حسين، ط١ مطبعة دار الكتب المصرية: القاهرة ـ ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٦م.

٧٦ـ في اللهجات العربية تأليف الدكتور إبراهيم أنيس، ط ٤ المطبعة الفنية الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٧٣.

٧٧ـ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية: للدكتور عبدالعال سالم مكرم: دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٨م.

٧٨ـ القرآن: نزوله تدوينه؛ ترجمته وتأثيره تأليف: بلاشير ترجمة: رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ١ ـ ١٩٧٤م.
٧٩ـ القراءات القرآنية: تأليف الدكتور عبدالهادي الفضلي، ط ٢ دار القلم: بيروت: ١٩٨٠م.
٨٠ ـ القراءات واللهجات: تأليف عبدالوهاب حمودة، مطبعة السعادة: القاهرة ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٨م.
٨١ ـ القياس في النحو: الدكتور سعيد جاسم الزبيدي رسالة دكتوراه كلية الآداب: جامعة بغداد آلة كاتبة؛ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
٨٢ ـ الكافية: شرح الرضي، تأليف رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي (ت ٦٨٦هـ) مصورة بالافسيت على طبعة شركة الصحافة العثمانية، ١٣١٠هـ
٨٣ ـ الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وصاحبه: مطبعة نهضة مصر القاهرة، ب. ت.
٨٤ ـ الكامل في التأريخ: تأليف علي بن محمد بن محمد بن الأثير الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ) دار الفكر: بيروت ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
٨٥ ـ الكتاب: تأليف سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ) بولاق: القاهرة ١٣١٨هـ
٨٦ ـ كتاب سيبويه تأليف أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت ١٨٠هـ) تحقيق: عبدالسلام هارون: دار العلم ودار الكتاب العربي: الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٦٦م. ١٩٧٧م.
٨٧ ـ الكشاف: تأليف محمد بن عمر جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، ط ١ مطبعة مصطفى محمد ١٢٥٤هـ

٨٨ ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها. تأليف مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) تحقيق: الدكتور محي الدين رمضان مطبوعات مجمع اللغة العربية في دمشق ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.
٨٩ ـ لسان العرب لجمال الدين محمد بن منظور الأنصاري (ت ٧١١هـ) مطبعة بولاق: القاهرة ١٣٠٨هـ
٩٠ ـ لطائف الإشارات لفنون القراءات لشهاب الدين القسطلاني (ت ٩٢٣هـ) تحقيق: عامر السيد عثمان والدكتور عبدالصبور شاهين القاهرة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.
٩١ ـ اللغة والنحو: تأليف الدكتور حسن عون، ط ١ مطبعة رويال الاسكندرية ١٩٥٢م.
٩٢ ـ لمع الأدلة: تأليف أبي البركات عبدالرحمن بن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) تحقيق: سعيد الأفغاني طبع الجامعة السورية ١٢٧٧هـ ـ ١٩٥٧م.
٩٣ ـ اللهجات العربية في التراث: تأليف الدكتور أحمد علم الدين الجندي الدار العربية للتراث ليبيا: تونس ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
٩٤ ـ اللهجات العربية في القراءات القرآنية تأليف: الدكتور عبده الراجحي: طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٨م.
٩٥ ـ مجالس ثعلب: تأليف أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت ٢٩١هـ) تحقيق: عبدالسلام هارون: دار المعارف بمصر، ط ٢ ١٩٦٩م.
٩٦ ـ مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق المجلد ٤٧ سنة ١٩٧٢م ص ٨٨٤ ملاحظات على كتاب (أبو زكريا الفراء) للدكتور مهدي المخزومي.
٩٧ـ مجلة المربد: جامعة البصرة، العدد الأول، السنة الأولى ١٩٦٨م.
٩٨ـ مجمع البيان تأليف أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٥٢هـ)

مكتبة الحياة بيروت ١٣٨٠هـ ت ١٩٦١م.
٩٩ـ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) تحقيق: علي النجدي ناصف وصاحبيه: القاهرة ١٣٨٦هـ ـ ١٣٨٩هـ
١٠٠ـ مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه (ت ٣٧٠هـ) تحقيق: براجشتراسر، المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٤م.
١٠١ ـ مدرسة البصرة النحوية، تأليف الدكتور عبدالرحمن السيد، ط ١ دار المعارف بمصر ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.
١٠٢ـ مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو للدكتور مهدي المخزومي: دار الرائد العربي، ط ٣ بيروت ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
١٠٣ـ مذاهب التفسير الإسلامي، تأليف جولد تسيهر: ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٥٥م.
١٠٤ـ مراتب النحويين: تأليف عبدالواحد بن علي أبي الطيب اللغوي (ت ٣٥١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢ مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.
١٠٥ـ المرشد الوجيز في علوم تتعلق بالكتاب العزيز، تأليف شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم أبي شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) تحقيق طيار قولاج، دار صادر بيروت: ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.
١٠٦ـ المزهر في علوم اللغة: تأليف عبدالرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وصاحبيه، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
١٠٧ـ المستشرقون والدراسات القرآنية: تأليف الدكتور محمد حسين علي الصغير، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١

١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
١٠٨ ـ المصاحب: تأليف أبي بكر عبدالله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٣١٦هـ) تحقيق الدكتور آرثر جفري ط ١ المطبعة الرحمانية، القاهرة ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م.
١٠٩ـ معاني القرآن للأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ)، ط ٢ الكويت ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
١١٠ ـ معاني القرآن وإعرابه للزجاج تحقيق: الدكتور عبدالجليل عبدة شلبي، منشورات المكتبة العصرية بيروت. ت. ب.
١١١ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: وضع محمد فؤاد عبدالباقي، مطابع الشعب، القاهرة ١٩٧٨م.
١١٢ـ مفاتيح الغيب (تفسير الفخر الرازي) تأليف محمد الرازي ابن ضياء الدين عمر، طبع المطبعة الميمونية ١٢٨٩هـ
١١٣ـ مقدمتان في علوم القرآن: مقدمة كتاب المباني ومقدمة ابن عطية (ت ٣٨٣هـ) تحقيق: الدكتور آرثر جفري: نشر دار الصاوي القاهرة: ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.
١١٤ـ من أسرار اللغة: للدكتور إبراهيم أنيس، مطبعة الأنكلو المصرية ط ٥، ١٩٧٥م.
١١٥ـ مناهل العرفان: تأليف محمد عبدالعظيم الزرقاني: مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
١١٦ـ منجد المقرئين: تأليف شمس الدين محمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣هـ) نشر مكتبة القدسي، المطبعة الوطنية، القاهرة ١٣٥٠هـ
١١٧ـ منهج الأخفش الأوسط: تأليف الدكتور عبدالأمير الورد، ط ١ مؤسسة

الأعلمي بيروت ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.
١١٨ ـ المهذب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق الشاطبية تأليف: محمد محمد محمد سالم محيسن: مطبعة النهضة الجديدة القاهرة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.
١١٩ـ نزهة الالباء في طبقات الأدباء: تأليف أبي البركات عبدالرحمن ابن الأنباري (ت ٥٧٧) تحقيق: الدكتور إبراهيم السامرائي، ط ٢ نشر مكتبة الأندلسي، بغداد ١٩٧٠م.
١٢٠ـ النشر في القراءات العشر: تأليف: محمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ) نشر دار الكتب العلمية، بيروت مصور عن الطبعة التي راجعها علي محمد الضباع، القاهرة. ب. ت.
١٢١ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تأليف أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت٦٨١هـ) تحقيق: الدكتور إحسان عباس دار صادر: بيروت ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.
١٢٢ـ يونس البصري تأليف الدكتور أحمد مكي الأنصاري ـ دار المعارف بمصر ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

***

ظاهرة الوحي والمستشرقون

د. محمد حسين علي الصغير
الأُستاذ المساعد للدراسات القرآنية
والبلاغة والنقدية في الكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

ما برحت حياة النبي محمد ﷺ موضع عناية الدارسين من أبعادٍ مختلفةٍ وبقدر ما عبّئ للموضوع من أهمّية واستعداد، ومنهجية في أغلب الأحيان، فما تزال هناك بقية للبحث، فقد تنقصنا كثير من الوثائق عن حياته الروحية قبل البعثة، وصلتها بحياته العامّة والخاصّة بعد البعثة.

هناك شذرات متناثرة في كتب السيرة والتاريخ والآثار، تتعلّق بحياة النبي هامشياً، تتخذ مجال الثناء والإطراء حيناً، وتتّسم بطابع الحبّ والتقديس حيناً آخر، وهي مظاهر لا تزيد من منزلة النبي

الذاتية، ولا تكشف عن مكنونات مثله العليا، ذلك باستثناء الإجماع على عزلته في عبادته وتحنثه، والاقتناع بصدقه وأمانته، وهي شذرات غير غريبة في أصالة النبي الكريمة، وتقويمه الخلقي الرصين.

وتطالعنا ـ أحياناً ـ أحداث في تاريخ النبي ﷺ قبل البعثة، لها مداليل من وثاقة، ورجاحة من عقل، كالمشاركة الفاعلة في حلف الفضول، وتميّزه بالدفاع عن ذوي الحقوق المهتضمة، وكاللفتة البارعة في رفع الحجر الأسود، ووضعه بموضعه من الكعبة اليوم، بما أطفأ به نائرة وأخمد فتنة.

وهناك انفراد عن شباب عصره بالحشمة والاتزان، وهو في شرخ الصبا وعنفوان العمر، والتأكيد على الخلوة الروحية بين جبال مكّة وشعابها، وفي غار حراء بخاصة، والحديث عن تجواله في سفرتين تجاريتين لا يفصح كثيراً عن ثمرة تجربتهما النفسية، ولا يعرف صدى مشاهداتهما روحياً واجتماعياً.

في حياته العائلية قبل البعثة تجده يتيماً يسترضع في بني سعد، ويفقد أبويه تباعاً، ويحتضنه جدّه عبدالمطلب حضانة العزيز المتمكّن، وبوفاته يوصي به لأبي طالب، ويتزوج وهو فتى في الخامسة والعشرين من عمره من السيدة العربية خديجة بنت خويلد، وكان زواجاً ناجحاً في حياة عائلية سعيدة، تكدّ وتكدح في تجارة تتأرجح بين الربح والخسران، وفجأه الوحي الحق...

وينهض النبي ﷺ في دعوته، فتجد الدعوة مكذبين ومصدقين، وتقف قريش بكبريائها وجبروتها في صدر الدعوة، ويلقى الأذى والعنت من قومه وعشيرته الأقربين، وفي حمأة الأحداث يموت كافله وزوجه في عام واحد، فيكون عليه عام الأحزان، فلا اليد التي قدّمت المال للرسالة، ولا الساعد الذي آوى وحامى، ويوحى إليه بالهجرة، فتمثّل حدثاً عالمياً فيما بعد.

هذه لمحات يذكرها كلّ من يترجم للنبي ﷺ يطيل بها البعض ويوجز البعض الآخر، وليست هي كلّ شيءٍ في حياة النبي، فقد تكون غيضاً من فيض.

ولست في صدد تأريخية هذه الأحداث، ولا بسبيل برمجتها لأُلقي عليها ظلالاً مكثّفة من البحث، ولكنها لمسات تمهيدية تستدعي الإشارة فحسب.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد تبقى طريقة النبي ﷺ المنهجية في التوفيق بين واجباته ومهماته القيادية من جهة، وبين حياته العامّة ومساره الدنيوي من جهة ثانية لا تجد تأريخاً يمثّل بدقّةٍ ووضوحٍ تامّين: المنهج الرئيسي الذي اختطّه لنفسه هذا القائد العظيم وهو في مكّة المكرّمة.

في المدينة المنوّرة حيث العدد والعدّة، والنصرة والفداء، نلمس إيحاءاً قرآنياً بنقطتين مهمّتين:

الأُولى: مواجهته للمنافقين وتحرّكهم جهرةً وخفاءً، وتذبذبهم أزاء الرسالة بين الشكّ المتمادي والتصديق الكاذب، يصافحون أهل الكتاب تارةً، ويوالون مشركي مكّة تارةً أُخرى، حتّى ضاق بهم ذرعاً، ونهاهم القرآن الكريم عن التردّي في هذه الهاوية مراراً وتكراراً، وهدّدهم بالاستئصال والتصفية بعض الأحيان، ولم ينقطع كيدهم، فمثّلوا ثورة مضادّة داخلية تفتك بالصفوف وتفرّق الجموع، لولا الوقوف في نهاية الأمر بوجه تردّدهم الخائف، وهزائمهم المتلاحقة، إثر ما حقّقه الإسلام من انتصارات في غزواته وحروبه الدفاعية، إلاّ أنّ جذوتهم بقيت ناراً تحت رماد، وعاصفة بين الضلوع، تخمد تارةً وتهبّ أُخرى.

الثانية: مجابهته للفضوليين، الذين كانوا يأخذون عليه راحته ويزاحمونه وهو في رحاب بيته، بين أفراد أُسرته وزوجاته، فينادونه باسمه المجرّد، ويطلبون لقاءه دون موعد مسبق، بما عبّر عنه القرآن بصراحة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لايَعْقِلُونَ﴾[1].

واستأثر البعض من هؤلاء وغيرهم بوقت القائد، فكانت الثرثرة والهذر وكان التساؤل والتنطع، دون تقدير لملكية هذا الوقت، وعائدية

---

(١) الحجرات: ٤.

هذه الشخصية، فحدّ القرآن من هذه الظاهرة واعتبرها ضرباً من الفوضى، وعالجها بوجوب دفع ضريبة مالية تسبق هذا التساؤل أو ذاك الخطاب، فكانت آية النجوى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

وكان لهذه الآية وقعٌ كبيرٌ، فامتنع الأكثرون عن النجوى، وتصدّق من تصدّق فسأل ووعى وعلم، وانتظم المناخ العقلي بين يدي الرسول الأعظم ﷺ فكفّ الفضول، وتحدّدت الأسئلة، ليتفرّغ النبي ﷺ للمسؤولية القيادية، ولمّا وعت الجماعة الإسلامية مغزى الآية، وبلغ الله منها أمره، نُسخ حكمها ورُفع، وخفّف الله عن المسلمين بعد شدّة مؤدبة، وفريضة رادعة، وتأنيب في آية النسخ: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ (٢).

كان هذا وذاك يستدعي الوقوف فترة زمنية عند رعاية الوحي للنبي ﷺ في التوفيق بين واجباته القيادية، وحياته الاعتيادية، فأمام المنافقين نجد الحذر واليقظة يتبعهما الإنذار النهائي بإغراء النبي بهم،

---

(١) المجادلة: ١٢.

(٢) المجادلة: ١٣.

وعند الحادثتين التاليتين نجد الوحي حاضراً في اللحظة الحاسمة، فيسلّيه في الأُولى بأنّ أكثر هؤلاء لا يعقلون. ويعظهم في الثانية بجعل مقامه متميّزاً فلا يخاطب إلاّ بصدقة، ولا يُسأل إلاّ بزكاة.

ومازلنا في هذا الصدد فإنّنا نجد الوحي رفيقاً أميناً لهذا القائد الموحى إليه، من هذه الزاوية التوفيقية بين التفرّغ لنفسه، والتفرّغ لمسؤولياته، وهذا أهمّ جانب يجب أن يكشف في حياة النبيﷺ والكشف عنه إنّما يتمّ بدراسة حياة النبي الخاصّة مرتبطة بهذه الظاهرة وهي ظاهرة الوحي الإلهي، ومدى الاتصال والانفصال بينها وبين النبيﷺ وحاجته الملحّة إلى هذا الشعاع الهادي، منذ البدء وحتّى النهاية.

لم يكن النبي ﷺ بدعاً من الرسل، ولم يختصّ بالوحي دونهم، بل العكس هو الصحيح، فقد شاركهم هذه الظاهرة، وقد أُوحي إليه كما أُوحي إليهم من ذي قبل.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْباطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً﴾ (١).

---

(١) النساء: ١٦٣ ـ ١٦٤.

فقد هدفت الآية وما بعدها إلى بيان حقيقة الوحي الشاملة للأنبياء كافّة ممن اقتضى خبرهم وممن لم يقتض، وإيثار موسى بالمكالمة وحده.

ويبقى التساؤل قائماً، بماذا تفسّر هذه الظاهرة، وكيف تعلّل نفسياً، وكيف تنطبق كونياً، وكيف عولجت قرآنياً؟ وما هو سبيل معرفتها جوهرياً عند النبي؟ وعند الناس؟ وكيف آمن به بكلّ قوّة ويقين وآمن بها من حوله؟

وللإجابة عن هذه الافتراضات، لابدّ من رصد جديد لهذه الأبعاد كافّة، وقد يرى ذلك غريباً في تاريخ القرآن، ولكن نظرة تمحيصية خاطفة، تؤصّل حقيقة هذا المناخ، وتؤكّد ضرورة هذا المنهج؛ لأنّ الوحي يشكّل بُعداً زمنياً معيّناً يقترن بنزول القرآن، وذلك أوّل تأريخ القرآن، ويستمر معه بوحي القرآن متكاملاً، وكلّ ذلك تفصيلات تاريخ القرآن في عهد الرسالة، وهو الجزء المهم والأساس في هذا التاريخ.

وباستعراض هذه الافتراضات سوف نلمس النبي ﷺ عبداً مأموراً محتسباً، ينفّذ ولا يسأل، ويبلّغ ولا يضيف، مهمته التلقّي والأداء، مستقلّاً بذاته، منفصلاً عن ظاهرته، ويبقى الجمع بين حياته العامّة والخاصّة من اختصاصه بتوجيه من الله تعالى، وبعناية من وحيه، فلا تعارض بينهما فيرتفع بذلك ما أثرناه مسبقاً، ويتلاشى الإشكال

بهذا الملحظ، مع أننا نلمس بشكلٍ جادٍّ أنّ النبيّ ﷺ قد وهب حياته للوحي، مبلّغاً أميناً ورسولاً كريماً، إلاّ أنّ شخصيته حقيقة، والوحي حقيقة أُخرى، وهذا ما ندأب إلى إثباته علمياً.

إنّ ما يذهب إليه بعض المستشرقين من أنّ ظاهرة الوحي قد يراد بها المكاشفة، وقد يعبّر عنها بالوحي النفسي تارةً، أو الإلهام المطلق تارةً أُخرى، دون تحديد مميّز، لا يتوافق مبدئياً مع دراسة النهج الموضوعي لظاهرة الوحي. إنّ كلمة الإلهام ليس لها أيّ مدلولٍ نفسيٍّ محدّد، مع أنّها مستخدمة عموماً لكي ترد معنى الوحي إلى ميدان علم النفس. والوحي النفسي يدور حول معرفةٍ مباشرةٍ لموضوعٍ قابلٍ للتفكير، والوحي الإلهي يجب أن يأخذ معنى المعرفة التلقائية والمطلقة لموضوعٍ لا يشغل التفكير، وأيضاً غير قابلٍ للتفكير.

والمكاشفة لا تنتج عند صاحبها يقيناً كاملاً، ويقين النبي ﷺ بالوحي قد كان كاملاً، مع وثوقه بأنّ المعرفة الموحى بها غير شخصية، وطارئة وخارجة عن ذاته[1]، والوحي الإلهي هو الفعل الذي يكشف به الله للإنسان عن الحقائق التي تجاوز نطاق عقله[2].

وإذا كان الوحي فعلاً متميّزاً، فهو صادر عن فاعل مريد، وهذا الفاعل المريد هو الله تعالى، وليس الإلهام والكشف كذلك، وهذا ما يميّز

---

(١) ظ: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية: ١٦٧، وما بعدها.

(٢) ظ: د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي: ٥٧٠/٢.

الوحي عن المكاشفة، والوحي النفسي، والإلهام، إذ أنّ مردّ الإلهام يعود عادةً إلى الميدان التجريبي لعلم النفسي، ونزعة الوحي النفسي في انقداحها تعتمد على التفكير في الاستنباط، والمكاشفة تتأرجح بين الشكّ واليقين.

أمّا الوحي فحالة فريدة مخالفة لا تخضع إلى التجربة أو التفكير، ومتيقّنة لا مجال معها للشكّ. مضافاً إلى أنّ حالات الكشف والإلهام والإيحاء النفسي حالاتٌ لا شعورية ولا إرادية، والوحي ظاهرة شعورية تتّسم بالوعي والإدراك التامّين.

والوحي بالمعنى المشار إليه يختصّ بالأنبياء، وليس الإلهام أو الكشف كذلك، فهما عامّان وشائعان بين الناس.

ولقد فرّق المستشرق الألماني الدكتور تيودور نولدكه (١٨٣٦ ـ ١٩٣٠م) بين الوحي والإلهام تفريقاً فيه مزيج بين الواقع والصوفية، فعدّ الوحي خاصّاً بالأنبياء، والإلهام خاصّاً بالأولياء؛ إذ لا يُوحى إليهم[1].

ويتجلّى الفرق بين الإلهام والوحي بتعبيرٍ آخر، وبتصوّرٍ مغايرٍ، إنّ مصدر الإلهام باطني، وإنّ مصدر الوحي خارجي، بل الإلهام من المكشف المعنوي، والوحي من الواقع الشهودي؛ لأنّ الوحي إنّما

---

(١) ظ. نولدكه، دائرة المعارف الإسلامية، مجلد٩، مادة: الدين.

يتحصّل بشهود ذلك وسماع كلامه، أمّا الإلهام فيشرق على الإنسان من غير واسطة ملك، فالإلهام أعمّ من الوحي؛ لأنّ الوحي مشروط بالتبليغ، ولا يشترط ذلك في الإلهام. والإلهام ليس سبباً يحصل به العلم لعامّة الخلق، ويصلح للبرهان والإلزام، وإنّما هو كشف باطني، أو حدس، يحصل به العلم للإنسان في حقّ نفسه لا على وجه اليقين والقطع كما هي الحالة في الوحي، بل على أساس الاحتمال الإقناعي[1].

ولهذا فلا اعتبار بما حاوله الأُستاذ محمّد عبده: بجعل الإلهام وجداناً تستيقنه النفس، وحسبان ذلك طريقاً لإمكان الوحي[2].

إنّ طريق الوحي هو التلقّي، وطريق هذا التلقّي هو الملك، وفي ضوئه نجد عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) حدّياً بتمثّل الوحي متفرّداً بما ألقاه جبرئيل على النبي ﷺ وأنّ القول بأنّه: «قد كان على سبيل الإلهام، وكالشيء يلقى في نفس الإنسان، ويهدى له من طريق الخاطر والهاجس الذي يهجس في القلب، فذلك مما يستعاذ بالله منه» فإنّه تطرّق للإلحاد[3].

ولقد تطرّق بعض الباحثين الكهنوتيين فادّعى بأنّ الوحي: «هو

---

(١) ظ: د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي: ١٣١/١.

(٢) ظ: محمد عبده، رسالة التوحيد: ١٠٨.

(٣) عبدالقاهر، الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ١٥٦.

حلول روح الله في روح الكتّاب الملهمين لإطلاعهم على الحقائق الروحية والأخبار الغيبية من غير أن يفقد هؤلاء الكتّاب بالوحي شيئاً من شخصياتهم، فلكلٍّ منهم نمطه في التأليف، وأسلوبه في التعبير»[1].

وهذا التعبير عن الوحي بهذا الفهم، يختلف جذرياً عن المفهوم القرآني للوحي، ويضفي مناخاً باطنياً في الحلول والاتحاد، يدفعه الإسلام، وهو سبيل مختصر إلى تقمّص الصفاء الروحي وادّعائه من قبل من لم يحصل عليه، وفيه استهواء للدجل الاجتماعي عند الكهنة والكذبة، وبعد هذا: فهو مغاير لمفهوم الوحي وطريقته اللذين خاطب الله بهما رسله، وعلّمهم من خلالهما مع استقلال في شخصية الوحي، بعيدة عن مراتب الفراسة والتجانس الروحي، واستقلال في المتلقي بعيد عن الاستنتاج الذاتي، أو التعبير المطلق بكلّ صوره.

إنّ عملية الوحي الإلهي إنّما تخضع لتصوّر حوار علوي بين ذاتين: «ذات متكلّمة آمرة معطية، وذات مخاطَبة مأمورة متلقّية»[2].

ولم تتشاكل في مظهر من مظاهر الوحي وظاهرته، الذات المتكلّمة والذات المخاطبة في قالبٍ واحدٍ، ولم يتّحدا في صورةٍ واحدةٍ

---

(١) جورج بوست، قاموس الكتاب المقدس، وانظر: صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن: ٢٥.

(٢) ظ: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية: ١٩٤، صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن: ٢٧.

على الإطلاق، فهما متغايران.

إنّ ظاهرة الوحي الإلهي مرئية ومسموعة، ولكنّها خاصّة بالنبي وحده، فما اتّفق ولو مرّة واحدة، أن سمع أصحابه صوت الوحي، ولا حدث أن رأوا هذا الكائن الموحي، ومع هذا فقد أدركوا صحّة ما نزل عليه وصدق ما أُوحي إليه، بدلائل الإعجاز، وقرائن الأحوال واعتبارات الاختصاص، فالنفس الإنسانية وإن كانت واحدة في الأصل والجوهر، ولكنها تختلف شفافية كما تختلف تخويلاً من قبل الله تعالى، فالنبي يرى ويسمع ويعي ما حوله من الظاهرة بيقين مرئي مشاهد، ومن حوله لا يرون ولا يسمعون ولكنّهم يصدّقون ويؤمنون.

وربّما قيل: إنّ ما يتلقّاه النبيّ من الروح الأمين وهو رسول الوحي: «هو نفسه الشريفة من غير مشاركة الحواس الظاهرة، التي هي الأدوات المستعملة في إدراك الأمور الجزئية فكانﷺ يرى ويسمع حينما يوحى إليه من غير أن يستعمل حاسّتي البصر والسمع.. فكانﷺ يرى الشخص، ويسمع الصوت مثل ما نرى الشخص ونسمع الصوت غير انّه ما كان يستخدم حاسّتي بصره وسمعه الماديتين كما نستخدمها، ولو كانت رؤيته وسمعه بالبصر والسمع المادّيين لكان ما يجده مشتركاً بينه وبين غيره، فكان سائر الناس يرون ما يراه ويسمعون ما يسمع، والنقل القطعي يكذّب ذلك، فكثيراً ما كانت تأخذه برحاء الوحي وهو بين الناس فيوحى إليه، ومن حوله

لايشعرون بشيء، ولا يشاهدون شخصاً يكلّمه»[1].

وقد يفسّر هذا بأنّه ظاهرة ذاتية، ولكن عمى الألوان[2] مثلاً يقدّم لنا حالة نموذجية، لا يمكن في ضوئها أن ترى بعض الألوان بالنسبة لكلّ العيون.

«هناك مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر، وفوق الضوء البنفسجي لا تراها أعيننا، ولا شيء يثبت علمياً أنّها كذلك بالنسبة لجميع العيون، فلقد توجد عيون يمكن أن تكون أقلّ أو أكثر حساسية أمام تلك الأشعة، كما يحدث في حالة الخلية الضوئية الكهربائية»[3].

وهذا مطّرد بالنسبة للبصر المادّي المتفاوت، أمّا على التفسير الأول فينتفي الإشكال جملةً وتفصيلاً، فهو من باب الأولى.

ولقد توصّل النبي إلى اليقين القطعي بصدق الرؤية والسمع عند حدوث ظاهرة الوحي طيلة ثلاثة وعشرين عاماً، وكان لذلك أمارات خارجية تبدو على وجهه وعينيه وجبينه، من شحوب أو احتقان أو

---

(١) الطباطبائي، الميزان: ٣١٧/١٥ وما بعدها.

(٢) عمى الألوان قسمان: كلّي وجزئي، فالكلّي هو العجز عن التمييز بين الألوان مع بقاء الإحساس البصري سليماً من الاضطراب، والجزئي هو العجز عن إدراك لون بعينه، أو عن تمييز ذلك اللون عن غيره، (ظ: المعجم الفلسفي: ١٠٨/٢).

(٣) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية: ١٧٨.

تصبّب عرق وقد يرافق ذلك دوي بحسّه أو أصداء أو أصوات كما تقول الروايات[1].

ولكنّ هذه المظاهر لم تمتلك عليه وعيه الكامل، وإحساسه اليقظ؛ لأنها أمارات خارجية لا تغيّر من حقيقة شعوره على الإطلاق، فقسمات الوجه، وتعرّق الجبين،وشحوب المحيّا، لا تدلّ في حالة اعتيادية على تغيّر في الوعي أو انعدام للذاكرة، أو فقدان للشعور، وما هي إلا طوارئ عارضة لا تمسّ الجوهر بشيء.

ولقد تعجّل بعض النقّاد من المستشرقين، حين ألمّوا بهذه الدلائل النفسية والأمارات الشكلية الخارجية التي لا تنتاب الوعي إطلاقاً ولا تؤثّر في الإدراك في حال، فعدوها ـ مخطئين ـ أعراضاً للتشنج تارةً، وللإغماء تارةً أُخرى، «وهذا الرأي يشمل خطأً مزدوجاً حين يتخذ من هذه الأعراض الخارجية مقياساً يحكم به على الظاهرة القرآنية بمجموعها، ولكن من الضروري أن نأخذ في اعتبارنا قبل كلّ شيء الواقع النفسي المصاحب الذي لا يمكن أن يفسّر أيّ تعليل مرضي... فإذا نظرنا إلى حالة النبي ﷺ وجدنا أنّ الوجه وحده هو الذي يحتقن، بينما يتمتّع الرجل بحالة عادية وبحرية عقلية ملحوظة من الوجهة النفسية، بحيث يستخدم ذاكرته استخداماً كاملاً خلال الأزمة

---

(١) ظ: ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١٩٧/١، والبخاري، الجامع الصحيح: ٤/١، الفتح الرباني: ٢١٢/٢٠، فتح الباري: ٢١/١.

نفسها، على حين يمحى وعي المتشنّج وذاكرته خلال الأزمة، فالحالة إذن ليست حالة تشنّج. هذا التلازم الملحوظ بين ظاهرة نفسية في أساسها وحالة معيّنة هو الطابع الخارجي المميّز للوحي»[1].

وهكذا كان لظاهرة الوحي عند بعض المستشرقين تفسيرات خاطئة أملاها حقد ودجل وافتراء، فقد كان الوحي على حدّ زعمهم أثراً لنوبات الصرع التي تعتري الرسول الأعظم ﷺ فكان يغيب عن صوابه، ويسيل منه العرق، وتعتريه التشنجات، وتخرج من فيه الرغوة، فإذا أفاق من نوبته ذكر أنّه أُوحي إليه، وتلا على المؤمنين به ما يزعم أنّه وحي من ربّه[2]، كما صنع هذا قسم من المستشرقين الألمان واليهود أمثال: فيل، جولد سيهر، وبول.

ومع ما في هذا الزعم من الكذب المضحك، والفض المتعمّد من منزلة النبي الرسالية، فالطريف أن ينبري له المستشرقون أنفسهم، لاسيما هنري لامنس، وفون هامر، وأمثالهما، للردّ عليه، إلاّ أنّ في طليعة هؤلاء جميعاً السير وليم موير (١٨١٩م /١٩٠٥م)[3].

لقد فنّد هذا الباحث المحايد في كتابه (حياة محمّد) مزاعم الجهلة الحاقدين، وعقّب على ظاهرة الوحي وأعراضها الخارجية بقوله:

---

(١) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية: ١٨٢.

(٢) ظ: بكري أمين، التعبير الفني في القرآن: ١٨.

(٣) Sir William Muir: Life'of Mohammad, p (14 - 29).

«وتصوير ما كان يبدو على محمّد في ساعات الوحي على هذا النحو الخاطئ من الناحية العلمية أفحش الخطأ. فنوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أيّ ذكرٍ لما مرّ به أثناءها، بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تامّاً، ولا يذكر شيئاً ممّا صنع أو حلّ به خلالها؛ لأنّ حركة الشعور والتفكير تتعطّل فيه تمام العطل. هذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم، ولم يكن ذلك ما يصيب النبي العربي أثناء الوحي، بل كانت تتنبّه حواسّه المدركة في تلك الأثناء تنبّهاً لا عهد للناس به، يذكر بدقّة ـ غاية الدقّة ـ ما يتلقّاه بعد ذلك على أصحابه، ثم نزول الوحي لم يكن يقترن حتماً بالغيبوبة الحسّية مع تنبّه الإدراك الروحي غاية التنبّه، بل كثيراً ما يحدث والنبي في تمام يقظته العادية»[1].

بينما زعم جملة من المستشرقين: بأنّ النبي ﷺ كان في القرآن والوحي ساحراً، وأنّه لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابوية، فاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه[2].

وقد هزّ هذا التحدّي السافر المستشرق (اميل درمنجهام) ففنّد أباطيل هؤلاء الدعاة، وحمل عليهم، وردّ هذه التهم الرخيصة التي خالفت الواقع[3].

---

(١) ظ: بكري أمين، التعبير الفني في القرآن: ١٩.

(٢) ظ: موسوعة لاروس الفرنسية، مادة، محمد.

(٣) The Life of Mohammad, 135.

في حين نلحظ أنّ جماعة من المستشرقين قد دأبوا منذ زمن مبكّر حتّى عصرنا الحاضر، على وصف القرآن بأنّه نسيج من الخرافات، وبأنّ الوحي مجموعة من البدع، وبأنّ المسلمين وحوش، وكان نموذج ذلك كلّ من: نيكولا دكيز، وهوتنجر، وبلياندر، وبريدو[1].

وهذا النوع من المستشرقين قد دفع تبشيرياً إلى الغض من مكانة القرآن والإسلام، لتقليل أهميتهما وزعزعة النفوس عنهما، وإسدال ظلال كثيفة قاتمة حول تأريخ الوحي دون دليل علمي يستند عليه، بيد أنّ الحديث المتأطّر بهذا القناع لا يمكن أن يوافق قبولاً لدى الباحثين لأنّه عاطفي.

وإنّي لأستغرب حقّاً ممّا أبداه المستشرق الفرنسي الدكتور غوستاف لوبون حينما ينفي تهمة الصرع عن الرسول الأعظم ﷺ ولكنّه يصفه بالهوس، وهو أمرٌ يدعو إلى الحيرة والعجب؛ لما في بحوث هذا الرجل من الاعتدال والإنصاف غالباً، فكيف يتمّ على يديه هذا النص المخجل: «وقيل إنّ محمّداً كان مصاباً بالصرع ولم أجد في تواريخ العرب ما يبيح هذا القطع في هذا الرأي، وكلّ ما في الأمر هو ما رواه معاصرو محمّد وعائشة منهم، من أنّه كان إذا نزل الوحي عليه اعتراه احتقان وجهي فغطيط فغشيان، وإذا عدوت هوس محمّد، ككلّ مفتون، وجدته حصيفاً سليم الفكر.

---

(١) ظ: المؤلف، المستشرقون والدراسات القرآنية: ١٦.

ويجب عدّ محمّد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح وذلك كأكثر مؤسّسي الديانات، ولا كبير أهمية لذلك، فأولو الهوس وحدهم لا ذو المزاج البارد من المفكرين، هم الذين ينشؤون الديانات ويعوّذون الناس، ومن يبحث في عمل المفتونين في العالم يعترف بأنّه عظيم..

ولو كان العقل، لا الهوس هو الذي يسود العالم لكان للتأريخ مجرى آخر... ولا يقف أيّ قول بخداع محمّد ثانية أمام سلطان النقد كما يلوح لي، ومحمّد كان يجد في هوسه ما يحفّزه إلى اقتحام كلّ عائق، ويجب على من يودّ أن يفرض إيمانه على الآخرين أن يؤمن بنفسه قبل كلّ شيء...»[1].

وهذا دسٌّ رخيصٌ، وتناقضٌ فاضح، مزج فيهما السمّ بالعسل، فبينا ينفي الصرع عن النبي ﷺ وإذا به يثبت الهوس له، لينفي الوحي والرسالة جملةً وتفصيلاً.

وفي ضوء ما تقدّم يمكن أن نرصد في ظاهرة الوحي عملية إرسال واستقبال بوقتٍ واحدٍ، إرسال بوساطة الملك المؤتمن، واستقبال من قبل النبي المصطفى، يتمّ ذلك في حالة إدراك متماسكة، يسيطر فيها الوعي والشعور والإحساس، كما لو كان أمراً عادياً في يقظة حقيقية،

---

(١) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ١٣٣، وما بعدها.

قبل الوحي وأثناء الوحي، وبعد الوحي، مهما صاحب عملية الوحي من شدّة وطأة ومفاجئة فالوحي حقيقة خارجية مستقلّة عن كيان النبي النفسي، ولكنّها لا تغيّر ذلك الواقع النفسي، بل تزيده جلاءً وفطنةً وذاكرةً، ويمثّل فيها النبي ﷺ دور المتلقّي الواعي من جهة، ودور المبلّغ الأمين من جهةٍ أُخرى، لا يقدّم ولا يؤخّر، ولا يغيّر ولا يقترح، ولا يفتر ولا يتكاسل.

ولقد كان ذلك بحق: «استقبالاً من النبي لحقيقة ذاتية مستقلة، خارجة عن كيانه وشعوره الداخلي، وبعيدة عن كسبه أو سلوكه الفكري أو العملي»[1].

وليس من الضروري أن تتوافر هذه الظاهرة مع رغبات النبي ﷺ الآنية أو تطلعاته النفسية الملحة؛ فقد ينقطع عنه الوحي، وقد يتقاطر عليه، ولكنّه لا يعدو الوقت المناسب في تقدير الله عزّوجلّ؛ وما تحويل القبلة إلى الكعبة؛ وإبطاء الوحي في حادثة الافك؛ وفترة الوحي حيناً؛ والتلبث في قصة أهل الكهف؛ إلا شواهد تطبيقية على ما نقول؛ وأدلّة مثبتة بأنّ الوحي خارج عن إرادته ومستقلّ عن ذاته. ولا شكّ أنّ النبي ﷺ آمن منذ اللحظة الأُولى ـ بقناعة شخصية متوازنة ـ بأنّ ما يوحى إليه ليس من جنس الأحلام وأضغاثها؛ ولا من سنخ

---

(١) بكري أمين، التعبير الفني في القرآن: ١٩.

الرياضات ومسالكها، ولا من باب الأحاسيس القائمة على أساس من الذكاء والفطنة، ولا من قبيل التخيلات المستنبطة من الحدس والفراسة وإنما كان بإيمان نفسي محض بأنه نبي يوحى إليه من قبل الله تعالى، وما الروايات والاسرائيليات القائلة بشكه في الظاهرة إلا ضرب من الأخيلة التي لا يدعمها دليل «والحق ان وحي النبوة والرسالة يلازم اليقين من النبي والرسول بكونه من الله تعالى على ما ورد عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام»[1].

ويوحي الله عزّوجلّ للملك الوحي؛ ما يوحيه الملك إلى النبي عن الله ويتسلم النبي الوحي؛ فالوحي واحد هنا مع تقاسم المسؤولية وهو عام بالنسبة لكل الأنبياء؛ وخاص بالنسبة لوحي القرآن أيضاً؛ فالملك يؤدّي عن الله لمحمد، ومحمد يتلقى ذلك الوحي من الملك ويؤدي ما يوحي به إليه إلى الناس وكان ذلك طريق الوحي القرآني فحسب؛ وقد صرح به القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[2].

والروح الأمين هو جبرئيل بإجماع الأمّة والروايات؛ قال الطبرسي (ت: ٥٤٨هـ) «يعني جبرئيل عليه السلام؛ وهو أمين الله لا يغيره

---

(١) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٢٠/ ٣٢٨.

(٢) الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤.

ولا يبدله... لأن الله تعالى يسمعه جبرئيل فيحفظه: ويـنزل بـه علـى الرسول ويقرؤه عليه، فيعيه ويحفظه بقلبه؛ فكأنه نزل به على قلبه»[1].

وهذا صريح بكيفية تلقّي النبي ﷺ للقرآن من جبرئيل؛ علـى قلبه تثبيتاً وحفظاً ورعاية؛ والقلب أشرف الأعضاء للتدبر والـتفكير ان أريد به هذا الجهاز العضلي؛ وإلا فهو الادراكات النفسية الخاصة لـدى النبي ﷺ المستعدة للتلقي والصيانة والاستيعاب دون ريب. وكـان مـا نزل به جبرئيل بإيحاء من الله تعالى هـو الـنص الـصريح مـن الـوحي القرآني دون زيادة أو نقصان؛ بألفاظه المدونة في المصحف من ألفـه إلى يائه.

ولما كان الأمر كذلك؛ فقد تحدث هذا النص المحفوظ بين الدفتين عن ظاهرة الوحي بوحي القرآن وسواه؛ وطرقها؛ وكيفيتـها؛ وأقـسامها ومن الضروري حقاً استعراض مختلف أنشطة الموضوع من القرآن نفسه مع الاستعانة باللغة حيناً؛ وبالتبادر العربي العام حيناً آخر؛ لأن القـرآن عربي؛ والتبادر علامة الحقيقة.

لقد صرحت الآية: ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِـنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مايَشاءُ إِنَّهُ عَـلِيٌّ حَكِـيمٌ﴾[2]

---

(١) الطبرسي؛ مجمع البيان ٤/ ٢٠٤.

(٢) الشورى: ٥١.

بطرق الوحي الإلهي؛ وحددت كيفية هذا الوحي؛ ومراتب إيصاله على النحو الآتي:

١ ـ الوحي:

وأصل الوحي هو: الإشارة السريعة على سبيل الرمز والتعويض؛ وما جرى مجرى الإيماء والتنبيه على الشيء من غير أن يفصح به[١] وقد يكون أصل الوحي في اللغة كلها الإعلام في خفاء[٢]. ومؤدى التعريفات واحد فيما يبدو، إذ الإشارة السريعة؛ إعلام عن طريق الرمز؛ والرمز إيماء يستفيد منه المتلقي أمراً إعلامياً قد يخفى على الآخرين.

ومن ثم قيل «للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وحي»[٣] باعتبار إسرارها إليهم من قبل ملك الوحي، واختصاصها بهم دون سائر الناس قال ابن الأنباري: سمي الوحي وحياً لأن الملك أسره على الخلق؛ وخصّ به النبي ﷺ[٤].

ومن هنا يبدو ان التعريف الشعري منحدر عن الأصل اللغوي في خصوصية الاسرار والإعلام السريع؛ وما يصاحب ذلك من الإشارة

---

(١) قارن في ذلك بين: الراغب؛ المفردات ٥١٥، الطبرسي؛ مجمع البيان ٥/ ٣٧.

(٢) ظ: ابن منظور؛ لسان العرب ٢٠/ ٢٥٨.

(٣) الراغب الأصبهاني؛ المفردات ٥١٥.

(٤) ابن منظور؛ لسان العرب ٢٠/ ٢٥٨.

والرمز اللذين يخفيان على الآخرين. وقد عبر الأستاذ محمد عبده عن ذلك بما يقارب هذا المؤدى فقال: «بأنه عرفان يجده الشخص في نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة؛ أو بغير واسطة؛ والأول يتمثل لسمعه بصوت أو بغير صوت»[1]. ولعل المراد بما يتلقاه النبي ﷺ من العرفان اليقيني بغير صوت هو الإلقاء في الروع؛ وذلك بأن ينفث الله في روع النبي ﷺ ما يشاء من أمر؛ أو ينفث روح القدس ما أوحى إليه بتبليغه إياه؛ فيكون ذلك من الوحي بوجه من الوجوه. وقد يؤيد هذا الملحظ ما نسب إلى النبي أنه قال: «ان روح القدس نفث في روعي»[2].

٢ـ سماع كلام الله تعالى مباشرة من وراء حجاب دون معاينة أو رؤية:

لامتناع ذلك عقلاً وشرعاً؛ كما كلم الله موسى بن عمران عليه السلام ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً﴾[3] وكان ذلك من وراء حجاب «وهو أن يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه إلا من يريد أن يكلمه به نحو كلامه لموسى عليه السلام لأنه حجب ذلك عن جميع الخلق إلا عن موسى عليه السلام وحده؛ لأن الحجاب لا يجوز إلا على الأجسام المحدودة»[4].

---

(١) ظ: محمد رشيد رضا؛ الوحي المحمدي ٢٨.

(٢) ظ: الحديث في الإتقان للسيوطي ١/ ١٢٩، المفردات للراغب ٥١٥.

(٣) النساء: ١٦٤.

(٤) الطبرسي؛ مجمع البيان ٥/ ٣٧.

٣ ـ أو يرسل رسولاً:

فيوحي بإذنه ما يشاء؛ كما في تبليغ جبرئيل لرسول الله في صورة معينة أو صور متعددة؛ ووحي القرآن الكريم عن الله؛ من غير أن يكلم الله نبيه على النحو الذي كلم به موسى عليه السلام.

هذه الأصناف والمراتب في الإيحاء حددتها الآية الكريمة السابقة فيما يتعلق بوحي الأنبياء كما يبدو؛ إلا أننا من متابعة هذه الظاهرة في القرآن الكريم لاحظنا بعض الدلالات الإيحائية لهذا التعبير قد تختلف عمّا تقدم، ويمكن الإشارة إلى أهمها بما يأتي:

أ ـ إلهام:

وهو أن يلقى الله تعالى في النفس أمراً يبعث على الفعل أو الترك وهو نوع من الوحي، يخص به الله من يشاء من عباده، غير قابل للتفكير به أو التخطيط له مسبقاً، ليفرق بينه وبين الحالات اللاشعورية من جهة والسلوك الكسبي من جهة أخرى، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [1]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوْحَى﴾ [2].

---

(١) القصص: ٧.

(٢) طه : ٣٨.

ب ـ التسخير:

وهو أن يسخر الله تعالى بعض مخلوقاته إلى عمل ما بهديه وإشاءته وتسخيره، بشكل من الأشكال التي لا تستوعبها بعض مداركنا أحياناً، ويستيقنها الذين آمنوا دون أدنى شبهة؛ كما يدل على هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً﴾ (١).

ج ـ الرؤيا الصادقة:

وهي وحي إلهي بالنسبة للأنبياء خاصة يتلقون فيها الأوامر ويتسلمون التعليمات من السماء، كما دل على ذلك قوله تعالى ـ فيما اقتص الله من خبر إبراهيم مع ولده ـ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢).

فأشارت الآيات إلى الرؤيا الصادقة في المنام، وإلى استفادة إبراهيم وولده عليهما السلام؛ الأمر الإلهي فيها، للدلالة على أنها وحي

---

(١) النحل: ٦٨.

(٢) الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٥.

يستلزم العمل به، بدليل تعقيب ذلك من قبل الله في خطاب إبراهيم بتصديق الرؤيا وجزاء المحسنين. وقد تكون الرؤيا في جزء من هذا الملحظ تمهيداً للوحي المباشر وقد يعبر عنها بالصادقة أو الصالحة، كما حصل هذا المعنى بالنسبة لرسول الله ﷺ أول بدء الوحي، كما في رواية أم المؤمنين عائشة:

«أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة (الصالحة) في النوم. فكان لا يرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»[1].

وقد تكون الرؤيا نوعاً من الوعد الحق الذي يقطعه الله لنبيه ﷺ كما هو الحال في شأن فتح مكة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾[2].

وقد دلّ على جميع ما تقدم مضافاً للدلالات القرآنية ما يروى عنه ﷺ «انقطع الوحي، وبقيت المبشرات: رؤيا المؤمن؛ فالإلهام والتسخير والمنام»[3].

وفيه ـ إذا صحّ ـ تفريق بين الوحي المباشر؛ وهو جبرئيل وبين ما أشار إليه من المبشرات التي يبدو أنها غير الوحي الذي يريده

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح ١/ ٧.

(٢) الفتح: ٢٧.

(٣) الراغب، المفردات ٥١٦.

الرسول الأعظم ﷺ في الحديث. وقد يكون الوحي بملحظ آخر عام بين جميع الأنبياء والرسول وقد يكون خاصاً بالنبي ﷺ فما كان عاماً يكون مشتركاً بينه وبين الأنبياء والمرسلين لأنه أحدهم بل سيدهم، وما كان خاصاً ينفرد به وحده. فالأول: كقوله تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (١).

ويبدو ان هذا الوحي يشتمل على جميع أقسام الوحي وكيفياته، ولا يختص بالإيحاء بمعناه الدقيق، لأن الإيمان بالوحدانية فطرة إنسانية تحتمها طبيعة العقل السوي، والأنبياء بعامة يتمتعون بهذه الفطرة نفسياً وعقلياً. قال الراغب الاصبهاني (ت: ٥٠٢ هـ): «فهذا الوحي هو عام في جميع أنواعه، وذلك أنّ معرفة وحدانية الله تعالى، ومعرفة وجوب عبادته ليست مقصورة على الوحي المختص بأولي العزم من الرسل، بل يعرف ذلك بالعقل والإلهام كما يعرف بالسمع، فإذن المقصود من الآية تنبيه أنّ من المحال أن يكون رسول لا يعرف وحدانية الله ووجوب عبادته»(٢).

والثاني: ما هو مختص بالنبي ﷺ وحده، كالأمر له في قوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ...﴾ (٣). وكإخباره

---

(١) الأنبياء: ٢٥.

(٢) الراغب، والمفردات ٥١٦.

(٣) الأنعام: ١٠٦.

عن نفسه كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[1]. وكالطلب إليه ﷺ بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ...﴾[2].

وفي هذا الضوء، فإن ما يوحى به إلى النبي ﷺ لا يخلو: إمّا ان يكون تعليمات يؤمر بإشاعة مفاهيمها بين الناس بحال من الأحوال، وإمّا أن يكون كلاماً يؤمر بتدوينه، ويثبته الله في قلبه، ويتلوه بلسانه فيكون كتاباً فيما بعد وإلى هذا أشار الزهري بقوله: «ما يوحي الله به إلى نبي من الأنبياء فيثبته في قلبه فيتكلم به ويكتبه وهو كلام الله، ومنه ما لا يتكلّم به ولا يكتبه لأحد ولا يأمر بكتابته ولكنه يحدث الناس به حديثاً، ويبين لهم أنّ الله أمره أن يبينه للناس ويبلغهم إياه»[3].

والقرآن الكريم من النوع الذي ثبت في قلب النبي ﷺ وتكلم به وأمر بكتابته وتدوينه، بعد إنزاله وحياً من قبله. وقد أورد الزركشي عن السمرقندي ثلاثة أقوال في المنزل من القرآن:

١ ـ **إنّه اللفظ والمعنى**، وأنّ جبرئيل عليه السلام حفظ القرآن من

---

(١) الأحقاف: ٩.

(٢) الكهف: ١١٠.

(٣) السيوطي، الإتقان ١/ ١٢٨.

اللوح المحفوظ ونزل به.

٢ ـ إنّ جبرئيل إنما نزل بالمعاني الخاصة، وأنّ النبي ﷺ علم تلك المعاني، وعبر عنها بلغة العرب.

٣ ـ إنّ جبرئيل إنّما ألقى إليه المعنى؛ وأنّه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب[١].

والأول هو الصحيح دون ريب، لأنّ جبرئيل وصف بالروح الأمين لأمانته المتناهية فلا يضيف ولا يغير ولا يبدل ولا ينسى ولا يخون ولا يتجوز، كيف لا وهو روح القدس بقوله تعالى: ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ**﴾ [٢].

والقرآن نازل من عند الله بألفاظه نفسها، وما مهمة جبرئيل إلا تبليغ الوحي كما تسلمه وهو آيات الكتاب الكريم بنصوصها خالصة بدلالة قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ**﴾ [٣].

وقد اختار السيوطي ذلك تعبداً بلفظ القرآن إعجازاً، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه، وان تحت كل حرف منه معاني لا يحاط

---

(١) الزركشي، البرهان ١/ ٢٢٩ + السيوطي، الإتقان ١/ ١٢٦.

(٢) النحل: ١٠٢.

(٣) آل عمران: ١٠٨

بها كثرة فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه[1]. وخصوصية القرآن التعبد بتلاوته لأنّ ألفاظه نازلة من الله تعالى فلا تدانيها خصوصية أخرى، لأن هناك ما هو نازل من السماء كالأحاديث القدسية، ولكنها ليست بقرآن، فلا خصوصية للتعبد بتلاوتها. وان أخذنا بمضامينها حرفياً ولكنها لم تنزل بألفاظها المخصوصة لها كما هو شأن القرآن.

والحديث النبوي نتعبد به أمراً ونهياً، وكان النبي ﷺ يرسل الحديث ويقوله ويتبع ذلك أهله وأصحابه، ثم يتلو القرآن ويقرؤه فيما اتفق يوماً ان تشاكل النصان أو تشابه القولان، ولو كان معنى القرآن ينقل إلى النبي وحياً، أو وحيه ينقل إليه معنى، والنبي يصوغه بلفظه ويعبر عنه بكلامه لاشتبه القرآن بالحديث والحديث بالقرآن من وجهة نظر بلاغية في الأقل بينما العكس هو الصحيح، فالخصائص الأسلوبية في القرآن تدل عليه فكل له أسلوبه المتميز، ومنهجه الخاص حتى عرف ذلك القاصي والداني ممن آمن بالنبي والقرآن وممن جحدهما. فالقرآن كلام الله ومحمد ﷺ ينقله كما سمعه بلفظه الدال على معناه وبمعناه الذي نطق به لفظه، لا شيء من محمد إلا النقل الأمين، والحديث كلام محمد ﷺ يتفوه به فيشرع ويحكم، لأنه الصدر الثاني بعد القرآن للشريعة الإسلامية قال تعالى: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ

---

(١) ظ: السيوطي، الإتقان ١٢٨.

﴿وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾ [1].

وثمة دليل قرآني في توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ بعبارة (قل) في القرآن الكريم، وتكرارها فيه أكثر من ثلاثمائة مرة، تصريح وأي تصريح بأن النبي ﷺ «لا دخل له في الوحي، فلا يصوغه بلفظه، ولا يلقيه بكلامه، وإنما يلقى إليه الخطاب إلقاء، فهو مخاطب لا متكلم، حاك لما يسمعه، لا معبر عن شيء يجول في نفسه»[2]. لهذا كان إذا نزلت عليه آية أو سورة، بل وجزء من آية، يدعو كتبته لتدوينها على الفور نصاً.

ولقد بهت العرب أمام ظاهرة الوحي القرآني، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة وأئمة البيان والفن القولي، وتذرعوا للتشكيك فيها بمختلف الوسائل، فأثاروا الشبهات، وتعلقوا بالأوهام، فوصفوا النبي بالضلال، والقرآن من ورائهم يناديهم بقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذا هَوى* ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى* وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى* إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى﴾ [3].

وتداعوا مرة أخرى إلى افتراضات متناقضة، فقالوا أضغاث

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) صبحي الصالح؛ مباحث في علوم القرآن ٣٠.

(٣) النجم: ١ ـ ٤.

أحلام وقد أيقنوا بصحوة النبي ويقظته، وردوه إلى الكذب والاختلاق وهم أنفسهم وصفوه من ذي قبل بالصادق الأمين، ونسبوا النبي إلى الشعر، وقد علموا بأن النبي أبعد ما يكون عن مزاج الشاعر وأخيلته، وما ترك في هذا المجال أثراً يركن إليه بهذه السمة، وقد عبر القرآن عن ذلك: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ...﴾[1] وما استقامت لهم الدعوى في شيء، ووصموه بالجنون: ﴿وَقَالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[2]، ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾[3].

وقد دلت الأحداث الاستقرائية، والسيرة الذاتية للنبي ﷺ على رجاحة عقله واتزانه في تصرفاته، وتأكد لهم افتراؤهم بما شاهدوه من مجريات الأمور، وقد لبث النبي بين ظهرانيهم حقباً طويلة قبل البعثة فما مسكوا زلة ولا أدركوا غفلة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النكتة الدقيقة بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[4].

وتردّدوا بقول الكهانة من بعد الجنون، فرد افتراءهم القرآن بما

---

(١) الأنبياء: ٥.

(٢) الحجر: ٦.

(٣) الدخان: ١٤.

(٤) يونس: ١٦.

أمره به: ﴿فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾ (١).

فما كان محمد إلا بشيراً ونذيراً، وما كان الوحي إلا ذكراً للعالمين، فأين هو من الكهانة؟ ﴿وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾ (٢).

وحينما أعيتهم الحيلة، ووقف بهم المنطق السليم، انطلقوا إلى القول: ﴿إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (٣).

شأنهم في هذا شأن من تقدمهم من الأمم مع أنبيائهم ورسلهم، حذو القذة بالقذة؛ في الادعاءات قال تعالى: ﴿كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (٤)، وقد علموا جدياً؛ أنّ محمداً ﷺ في أصالته العقلية؛ أبعد ما يكون عن السحر والشعبذة والتمويه من قبل ومن بعد.

وتمسّكوا بأوهن من بيت العنكبوت؛ فأشاعوا بكلّ غباء أنّ لمحمد ﷺ معلّماً من البشر؛ وهو غلام رومي يحترف صناعة السيوف بمكة؛ فألقمهم القرآن حجراً بردهم رداً فطرياً: ﴿لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (٥).

---

(١) الطور: ٢٩.

(٢) الحاقة: ٤٢.

(٣) المدثر: ٢٤.

(٤) الذاريات: ٥٢.

(٥) النحل: ١٠٣.

وأغلقت السبل كافة في الوجوه والألسن والأقاويل، فرجموا بالغيب وتشبثوا بالطحلب، وحسبوا وجدان الضالة، فقالوا بما حكى الله عنهم: ﴿إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (١).

وتمادى بهم القول، ففصلوا بعد الإجمال، وأبانوا بعد الإبهام: ﴿وَقالُوا أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (٢). وهكذا تبدو الحيرة مترددة بين عدة ادعاءات، هم أنفسهم يعلمون بجانبتها للواقع المشهود، إذ لم يؤيدها نصّ استقرائي واحد في حياة محمد صلى الله عليه وآله.

ويبقى الوحي وحياً رغم كل هذه الأراجيف: ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها﴾ (٣). ويبقى القرآن مقترناً بظاهرة الوحي الإلهي.

النجف الأشرف
د. محمد حسين علي الصغير
الجامعة المستنصرية / كلية الفقه
١٥/ ٤/ ١٩٨٦

***

(١) الأنعام: ٢٥

(٢) الفرقان: ٥.

(٣) الشورى: ٧.

المصادر والمراجع

أ ـ العربية:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ البخاري، أبو عبدالله، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح، مطبعة محمد صبيح، القاهرة (د. ت).

٣ ـ بكري الشيخ أمين (الدكتور): التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، ١٩٧٢م.

٤ ـ الجرجاني، أبو بكر، عبدالقاهر بن عبدالرحمن (ت ٤٧١هـ)، الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: د. محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦م.

٥ ـ جميل صليبا (الدكتور): المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩م.

٦ ـ جورج بوست (الدكتور): قاموس الكتاب المقدس، المطبعة الأمريكية، بيروت، ١٩٨٤م.

٧ ـ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٨٠هـ

٨ ـ الراغب الاصبهاني، الحسين بن محمد بن الفضل (ت٥٠٢هـ): المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦١م.

٩ ـ الزركشي، بدرالدين، محمد بن عبدالله (ت٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٧م.

١٠ ـ ابن سعد، أبو عبدالله، محمد بن سعد (ت٢٣٠هـ) الطبقات الكبرى، بيروت، ١٩٥٧.

١١ ـ السيوطي، جلال الدين، عبدالرحمن بن أبي بكر (ت١٩١١م): الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ١٩٦٧م.

١٢ ـ صبحي الصالح (الدكتور): مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٥م.

١٣ ـ الطبرسي، أبو علي، الفضل بن الحسن (ت٥٤٨هـ): مجمع البيان في تفسير القرآن، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٣٣هـ

١٤ ـ غوستاف لوبون (الدكتور): حضارة العرب، تعريب: عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، (د. ت).

١٥ ـ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: د. عبدالصبور شاهين، دار الفكر، بيروت ١٩٦٨م.

١٦ ـ محمد حسين الطباطبائي (ت: ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م): الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٩٧٣م.

١٧ ـ محمد حسين علي الصغير (المؤلف): المستشرقون والدراسات القرآنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٣م.

١٨ ـ محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، مطبعة المنار، القاهرة، ١٩٣٥م.
١٩ ـ محمد عبده، رسالة التوحيد، الطبعة التاسعة، القاهرة ١٣٥٧هـ
٢٠ ـ ابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١هـ) لسان العرب، نسخة مصورة عن طبعة بولاق، القاهرة (د. ت).
٢١ ـ نولدكه، المستشرق الألماني تيودور نولدكه (١٨٣٦م ـ ١٩٣٠م) دائرة المعارف الإسلامية الألمانية ج٩، مادة: الدين، تعريب: د. عبدالحميد يونس وجماعته، القاهرة، ١٩٣٣م.

ب ـ الأجنبية:

22 – Emile DER MEN Jhem,
The life of Mahomet Newyork, 1930
32 – Reraw Lte et Francisk
Mohamet, pars,
24 – Str Wlliam Mulr (1819 – 1905)
The of Mahomet, GR ant, 1912.

***

المستشرقون..
ودراساتهم للسيرة النبوية

د. حسن عيسى علي الحكيم

المقدمة:

لقد خاض المستشرقون في الدراسات العربية الإسلامية من جوانب عديدة؛ فدرسوا الإسلام والقرآن الكريم والسيرة النبوية والعرب والحضارة والفكر والفن والأدب والفلسفة والتاريخ والعلوم الأخرى التي عرفها العرب والمسلمون، وكان بعض هذه العلوم والدراسات متداخلاً بعضه مع البعض الآخر، وبعضها مستقلاً ببحوث منفردة، فالسيرة النبوية تتداخل مع القرآن الكريم والحديث الشريف والدين الإسلامي وعلومه في معظم الدراسات الاستشراقية التي اطّلعنا عليها، ونظراً لسعة الموضوع حاولت تناول السيرة النبوية وحدها من بين الدراسات دون الخوض بالموضوعات الأخرى إلاّ إذا كانت مرتبطة بالسيرة إلى الحدّ الذي لا يمكن فصلها عنها، وقبل الحديث عن

موقف المستشرقين من السيرة النبوية أودّ الإشارة إلى الدراسات التي تناولت شخصية الرسول الكريم محمد بن عبدالله عليه أفضل السلام والصلاة وهي على النحو الآتي:

أولاً: الدراسات البريطانية:

كتب الانكليز بحوثاً ودراسات عن حياة الرسول ﷺ كان أهمّها ما يلي[1]:

١ ـ محمد في مكة: تأليف مونتجومري وات (Montgomery, Watt) وقد نشر في لندن عام ١٩٥٣م وعربه شعبان بركات.

٢ ـ محمد في المدينة للمؤلف نفسه، وقد نشره عام ١٩٥٦م.

٣ ـ سيرة غير معروفة للنبي محمد، تأليف رينولد الين نيكولسن (Nicholson, R.A).

٤ ـ الرسول (حياة محمد) تأليف ر.ف.بودلي (Bodley, R.V.E) ونشر في لندن عام ١٩٤٦م.

٥ ـ رؤى محمد تأليف و.أ. ستيوارت (Stewart, W.A.).

٦ ـ محمد والرسل السابقون للمؤلف نفسه.

٧ ـ رسم الهند لمحمد والصحابة تأليف السير تومان ارنولد (Sir Thomes Arnold).

---

(١) العقيقي: المستشرقون: ٩٩٢/٣ ـ ١٠٠٩.

٨ ـ هل تكلّم الكتاب المقدس عن النبي محمد تأليف جيمس روبنسون (Robson).

٩ ـ محمد في الإسلام للمؤلف نفسه، وقد نشرهما في عامي ١٩٣٥م ـ ١٩٣٦م.

١٠ ـ أخلاق العرب قبل عصر محمد تأليف وليم جونز (Jones, Sir).

١١ ـ المحمدية على الإسلام أو المذهب المحمدي: تأليف جب (Gibb).

١٢ ـ حياة محمد وتأريخ الإسلام تأليف السير وليام موير:
The Life of Mahomet and History of Islam
وقد نشره في لندن ويقع في أربع مجلدات.

١٣ ـ الخلافة سموها وانحطاطها وسقوطها وقد نشره موير عام ١٨٩١م وكان قد دعاه بفاندر إلى أن يكتب السيرة فأخذ بقراءة المراجع العربية من السيرة النبوية وشرع في نشر عدّة مقالات في مجلة كلكتا (Calculta Review) في عامي ١٨٦٣ و ١٨٦٤م تناول فيها تاريخ العرب قبل الإسلام ومصادر السيرة النبوية وحياة محمد حتّى الهجرة[1].

---

(١) عبدالرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص٤٠٤ ـ ٤٠٥.

ثانياً: الدراسات الأمريكية[1]:

من الأمريكيين الذين تناولوا السيرة النبوية:

١ ـ سيرة النبي العربي (حياة محمد) تأليف واشنتجون ارفن (Irving, W) وقد نشره عام ١٨٤٩، وقد ترجمه إلى العربية الدكتور علي حسني الخربوطلي.

٢ ـ تأريخ محمد تأليف ارثر جفري (Jeffery, A) وقد نشره عام ١٩٢٦م.

٣ ـ نبي الإسلام للمؤلف نفسه وقد نشره عام ١٩٣٨م.

٤ ـ محمد تأليف ادوين كالفرلي (Calverley, E.E).

٥ ـ كتاب النبي والمسلمين تأليف تومسون (Thomson, W).

٦ ـ حياة محمد تأليف لاندراي.

٧ ـ إرث النبي للمؤلف نفسه.

٨ ـ أمّية النبي تأليف صمويل زويمر (Zewemer) وقد نشره عام ١٩٢١م، ولهذا المؤلف كتاب (الحديث القدسي).

٩ ـ عقيدة الوحي في الإسلام تأليف دنكان بلاك ماكوونلد (Macdonald, D. B).

---

(١) العقيقي: المستشرقون: ٣/٩٩٢ ـ ١٠٠٩.

ثالثاً: الدراسات الألمانية[1]:

لقد كان الألمان من أكثر المستشرقين كتابة في السيرة النبوية وكان من أبرز المؤلفات في هذا الباب هي:

١ ـ الإسلام ومحمد تأليف فرانكيل (Fraenkel,S) وقد نشره في ليدن عام ١٨٨٠م.

٢ ـ سيرة محمد تأليف شبرتجر وقد نشره في ليدن عام ١٨٦١م.

٣ ـ هل كان لمحمد معلمون نصارى؟ للمؤلف نفسه، وقد عاونه في الطبعة الثانية نولدكه (Noldeke, Th) ونشره عام ١٨٥٨م.

٤ ـ النبي محمد تأليف جنسين (Jensen) نشره عام ١٩٢٢.

٥ ـ دراسات عن النبي تأليف اريـنز (Ahrens) نشره عام ١٩٣٥.

٦ ـ محمد، تأليف هربرت (Grimme, Hubert) ويقع في جزئين نشرهما بين ١٨٩٢ ـ ١٩٠٤م.

٧ ـ اسم محمد، بحث نشره في مجلة الدراسات السامية عام ١٩٢٨.

٨ ـ مولد النبي ووفاته، تأليف ميتفوخ (Mitiwoch, Eyg) ونشره عام ١٩٢٦م.

---

(١) العقيقي: المستشرقون: ٧٤٣/٢ ـ ٨٠٤.

٩ ـ حياة محمد، تأليف بوهل (Buhl, F) وقد أضاف إليه شايدر فصلاً ونشره في لايبزج ١٩٠٣م.

١٠ ـ شروح السيرة، تأليف هوينر باخ (Hoener buch, W) وهو رسالة جامعية حصل عليها المؤلف على درجة الدكتوراه عام ١٨٩٥م.

١١ ـ محمد تأليف جوزيف شاخت (S.Shacht) دائرة المعارف الإسلامية.

١٢ ـ النبوة في القرآن تأليف هورفتس (Hoseph Horovtiz).

١٣ ـ النبي محمد، حياته ومذهبه، تأليف فايل (Well) وكان قد اعتمد على سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية[١].

١٤ ـ محمد وأحمد أسماء النبي العربي، بحث لاوجست فشر (August Fischer).

١٥ ـ محمد وتقديسه عند المسلمين للكاتب نفسه.

١٦ ـ محمد عن البيزنطيين للكاتب نفسه.

رابعاً: الدراسات الفرنسية[٢]:

للفرنسيين كتب وبحوث عن السيرة النبوية، منها:

---

(١) عبدالرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين: ص٢٧٢، ص٢٨٣.

(٢) العقيقي: المستشرقون: ٣٧٢/١ ـ ٤٠٠، عبدالرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين: ص١٨٢، ص٣٤٢.

١ ـ حياة محمد، تأليف بودي، وقد نشره عام ١٦٧١م وأعيد نشره عام ١٧٣١م، وهو الكتاب الأول الذي وقف به الفرنسيون على الإسلام.

٢ ـ تاريخ العرب وحياة محمد، تأليف الكونت دي بولنفلييه ونشره عام ١٧٣٠، وقد ترجم إلى اللغة الانكليزية عام ١٧٥٢م.

٣ ـ ناقل الأخبار إلى النبي، بحث نشره هيار (Huart. Cl) في المجلة الآسيوية عام ١٩٢٦م.

٤ ـ وضع دي باستوريت كتاباً للتوفيق بين ديانات الشرق الثلاث: زرادشت وكونفيشيوس ومحمد.

٥ ـ محمد في السيرة النبوية، تأليف ذينه (Dinet, Et) وقد ساعده سليمان بن إبراهيم ونشره بالفرنسية والانكليزية.

٦ ـ حياة محمد، تأليف درمنجم (Dermenghem, E) ويعدّ هذا الكتاب من خيرة الكتب التي تناولت السيرة النبوية.

٧ ـ محمد والسنة الإسلامية للمؤلف نفسه، ونشره في باريس عام ١٩٥٥م.

٨ ـ سيرة الرسول وتاريخ الخلفاء الراشدين، لأبي زرعة الدمشقي وقد نشره كلود كاهين (Gahen, Cl) في المجلة الآسيوية عام ١٩٣٦.

٩ ـ حياة محمد والمشكلة الإجتماعية المتعلقة بأصول الإسلام،

بحث نشره وردنسون (Rodinson, M) في مجلة ديوجين لليونسكو عام ١٩٦١.

١٠ ـ محمد، تأليف فولتير.

١١ ـ محمد، تاليف ديومبين (Demombynes) وقد ترجمه إلى العربية عادل زعيتر، ونشر في باريس ١٩٥٧م.

١٢ ـ كوسان دي برسفال (Caussiu De Perceval) نشر بحثاً بعنوان (تاريخ العرب قبل الإسلام وفي عصر النبي محمد) ويقع في ثلاثة أجزاء، باريس ١٨٤٧م.

خامساً: الدراسات الإيطالية[1]:

تناول الإيطاليون الرسول الكريم ﷺ والدين الإسلامي وغيرها من الدراسات المعنية بالتاريخ العربي الإسلامي وغيرها، وهي كالآتي:

١ ـ سيرة الرسول، تأليف الأمير كايتاني (Ceetani, Leane) ونشره في ميلانو عام ١٩١٤م.

٢ ـ سيرة ابن هشام تأليف جوزيبي جابرييلي (Gabrili, Giaseppe)، وقد نشره في روما عام ١٩١٩م.

---

(١) العقيقي: المستشرقون: ٣٧٢/١ ـ ٤٠٠.

٣ ـ سيرة الرسول، تأليف برونو دوكاني (Ducati, Biuno) ونشره في فلورنسا عام ١٩٢٩م.

٤ ـ دراسة حديثة عن الرسول، تأليف دلا فيدا (Della Vida, G, levi).

٥ ـ الرسول، بحث في دائرة المعارف الإسلامية للمؤلف نفسه.

٦ ـ محمد والإسلام الحديث، تأليف انساباتو (Insabato, Enrico) نشره عام ١٩٣٠م.

سادساً: الدراسات البلجيكية[1]:

من دراسات البلجيك وبحوثهم للسيرة النبوية ما يلي:

١ ـ محمد وشارلمان، تأليف هـ بيرين (Pirenn, H) ونشر في باريس وبروكسل عام ١٩٣٧. وترجم إلى الانكليزية طبع ست طبعات بين ١٩٣٩ ـ ١٩٧٤م.

٢ ـ محمد وأصحاب الطبيعة الواحدة، تأليف جريجوار (Gregoire).

٣ ـ الطابع الاجتماعي لأصل تكريم محمد في الإسلام فيما بعد، تأليف ارمان آبل (Abel, A).

---

(١) العقيقي: المستشرقون: ١٠٢٨/٣ ـ ١٠٦٩، بدوي: موسوعة المستشرقين ص٢٤٨.

٤ ـ محمد وتاريخ السيرة، بحث للأب لامنس نشره في المجلة الآسيوية ١٧، ١٩١١م.

٥ ـ إخلاص محمد، بحث للأب لامنس (Lammens, P.H) نشره في مجلة مباحث العلوم الدينية ٢، ١٩١١م.

٦ ـ مكة عشية الهجرة للمؤلف نفسه، نشره في بيروت ١٩٢٤.

٧ ـ هل كان محمد أميناً، للمؤلف نفسه، نشر في مجلة أبحاث علوم الدين الجزء الثاني، باريس ١٩١١م.

٨ ـ عصر محمد وتاريخ السيرة، للأب لامنس، نشره في المجلة الآسيوية ١٩١١م.

سابعاً: الدراسات الهولندية[1]:

كتب الهولنديون في السيرة الكتب والبحوث الآتية:

١ ـ محمد والقرآن، خمس دراسات كتبها فت (Veth, p. J) عام ١٨٤٥م، في مجلة الدليل الهولندية.

٢ ـ محمد، بحث كتبه سنوك هرجرونجه (Snouck Hurgronje, G) ونشره في مجلة تاريخ الأديان ٣، ١٨٩٣م.

٣ ـ سياسة النبي محمد الدينية، للكاتب نفسه، نشره في المجلة الافريقية عام ١٩١٥م.

---

(١) العقيقي، المستشرقون: ٢/ ٦٦٢ ـ ٦٦٨.

٤ ـ محمد واليهود، تأليف فنسنك (Wensinck, A. J).

٥ ـ موقف الرسول من يهود المدينة، للمؤلف نفسه، وهذا الكتاب رسالة جامعية حصل عليها فنسنك على درجة الدكتوراه من ليدن، عام ١٩٠٨م.

٦ ـ محمد والنبوة، للمؤلف نفسه، نشره عام ١٩٢٤م.

٧ ـ الديانة المحمدية، تأليف ريلند، (Reelan).

ثامناً: الدراسات الروسية[1]:

الدراسات الاستشراقية في السيرة عند الروس قليلة قياساً إلى زملائهم الغربيين، منها:

١ ـ حكم النبي محمد، تأليف تولستوي، وقد ترجمه سليم قبصين، ونشر في مصر عام ١٩٢٤م.

٢ ـ السيرة النبوية، تأليف سليم نوفل، وهو من أصل لبناني انتدب للتدريس في جامعة بطرسبرج.

٣ ـ وحي النبي في ضوء علم السلالات، تأليف فينكوف (Vinnikow, I.N) ونشره اولدنبورج عام ١٩٣٤م.

---

(١) العقيقي، المستشرقون: ٩٢١/٣ ـ ٩٦٣.

تاسعاً: دراسات استشراقية من دول مختلفة:

درس بعض المستشرقين السيرة النبوية وهم ينتمون إلى دول أوربية متعدّدة، ومن هؤلاء:

١ ـ الكاتب النمساوي جور جشتال (Hammer Purg Stall, J) كتب أقوال النبي محمد، ونشره في فينا عام ١٨٥٣م[١].

٢ ـ الكاتب الدانماركي بوهل (Buhl, F) كتب حياة محمد باللغة الدنماركية عام ١٩٠٣م، وله مقالة بعنوان (محمد)، نشرها في مجلة عالم الإسلام عام ١٩١١م.

٣ ـ الكاتب السويدي اندراي (توراندريه) (Andrae, Tor) كتب: محمد حياته وعقيدته، وقد نشره في استوكهلم عام ١٩٣٠م.

٤ ـ الكاتب الاسباني ارش برونلش (Erich Branulich) كتب (الفرقة المحمدية).

عاشراً: دراسات استشراقية تناولت السيرة في بعض الفصول[٢]:

كتب بعض المستشرقين كتباً عن الإسلام والعرب والعلوم العربية الإسلامية وكانت السيرة النبوية تحتلّ جانباً بارزاً في هذه الكتب وهي:

---

(١) العقيقي، المستشرقون: ٦٢٩/٢، ٨٤٥، ٨٩٥/٣.

(٢) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية: ٥٦/١، ١٧١، ١٩٤، ٢٠١، ٣٨١.

١ ـ تاريخ تركيا، للكاتب الفرنسي لامارتين، وقد أطرى فيه الرسول ﷺ.

٢ ـ المعجم العربي التركي، للكاتب الفرنسي دي كورتاري (de Courieille, A. Pavet) وقد أشار في هذا الكتاب إلى معجزات الرسول ﷺ.

٣ ـ تاريخ العرب وثقافتهم للكاتب الإيطالي ميكلانجو جويدي (Guidi, Michelangelo) وينتهي الجزء الأول من هذا الكتاب بوفاة الرسول ﷺ.

٤ ـ حول الأبطال أو عبادة البطل للكاتب الانكليزي توماس كارليل، وقد عقد فيه فصلاً عن الرسول ﷺ، وترجم هذا الكتاب محمد السباعي.

٥ ـ قانون التاريخ، للكاتب جوليفه كستلو:

(J. Castelot: La Lot de lhistoive)

وأشار إلى تقدّم العرب بعد وفاة الرسول ﷺ.

٦ ـ وكتب الكاتب الفرنسي بوتيه (Pautbier , G) في القرآن الكريم بحثاً مستفيضاً تناول فيه حياة العرب قبل عهد الرسول ﷺ.

٧ ـ حاضر الإسلام ومستقبله للكاتب مونتيه (Montet).

المدخل:

لقد عنى المستشرقون بدراسة السيرة النبوية، وحاولوا فهم الرسول الكريم ﷺ من زوايا وجوانب بعضها متكاملة، وبعضها ناقصة مبتورة، وكان هناك تفاوت على مستوى دراساتهم، وهذا ناتج على الأغلب من طبيعة البواعث والأغراض التي دفعتهم إلى الدراسة، فقد انحرف بعضهم عن الصواب، ومال بعضهم إلى التعصب المقيت، وحاول هؤلاء تشويه الحقائق، خضوعاً لنزعاتهم العرقية أو التبشيرية أو الاستعمارية، ولكن ثمّة من التزم منهم بالأمانة العلمية والموضوعية في بحوثه، وهؤلاء اضطلعوا بمهماتهم بدقة، ولعبوا دوراً بارزاً في إحياء الكثير من أمّهات تراثنا العربي والإسلامي، وانطلاقاً من هذه الثنائية في طبيعة الدراسات الاستشراقية سوف أُشير إلى كلّ جانب منها على انفراد.

أولاً: الدراسات المحايدة:

تنبّه بعض المستشرقين إلى مغالطات عدد من زملائهم الذين أحاطوا الرسول الكريم ﷺ بآرائهم البعيدة عن الإنصاف، فجاءت كتاباتهم رداً على بعض هؤلاء أولاً، ودراسة للسيرة المحمّدية بروح محايدة ثانياً، وكان بعضهم يجمع بين الإنصاف وعدمه.

وتبرز موضوعية الكاتب الانكليزي توماس كارليل

(ت١٨٨١م) في كتابه (الأبطال) الذي هو عبارة عن محاضرات ست ألقاها تباعاً ما بين ٥ ـ ٢٢ مايس عام ١٨٤٠م تعرّض في محاضرته الثانية إلى (البطل نبياً) تناول بها سيرة الرسول ﷺ، وقد ترجمها الأستاذ محمد السباعي إلى اللغة العربية، في ردّه على بعض المتعصّبين الغربيين بقوله:

«ويزعم المتعصبون والملحدون أنّ محمداً لم يكن يريد بقيامه إلاّ الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان. كلاّ وأيم الله، لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير، ابن القفار والفلوات، المتوقّد العظيم النفس المملوء رحمةً وخيراً وحناناً وبرّاً، وحكمة وحجى واربه ونهى، أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه... وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ورجل من الذين لا يمكنهم إلاّ أن يكونوا مخلصين جادّين، فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق الاعتبارات الباطلة، إذ ترى محمداً لم يرض أن يتلفع بألوف الأكاذيب ويتوشّح بمتع الأباطيل، لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات[1] ويمضي كارليل في ردّه على بعض المستشرقين فيقول:

«يزعم الكاذبون انّه الطمع وحبّ الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره؟ حمق وأيم الله، وسخافة وهوس أيّ فائدة لمثل هذا الرجل في

---

(١) كارليل، الأبطال: ص٦٨ ـ ٦٩..

جميع بلاد العرب، وفي تاج قيصر وصولجان كسرى، وجميع ما بالأرض من تيجان وصوالجة، وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر؟ أو في مشيخة مكة، وقضيب مفضض الطرف، أو في ملك كسرى وتاج ذهبي الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة؟ كلاّ، إذن فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين القائل إنّ محمّداً كاذب ونعدّ موافقتهم عاراً وسمة، وسخافة وحمقاً، فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع»[1]، وقد استشهد كارليل بالشاعر الألماني غوته بقوله: «إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذاً مسلمون، نعم كلّ من كان فاضلاً شريف الخلق فهو مسلم»[2].

وعقّب على رأي نوخاليس: «أليس الإيمان هو المعجزة الحقّة الدالّة على الله؟» بقوله: فشعور محمّد إذا اشتعلت روحه بلهيب هذه الحقيقة الساطعة بأنّ الحقيقة المذكورة هي أهمّ ما يجب على الناس علمه، لم يك إلاّ أمراً بديهياً، وكون الله قد أنعم عليه بكشفها له ونجّاه من الهلاك والظلمة، وكونه قد أصبح مضطرّاً إلى إظهاره للعالم أجمع، هذا كلّه هو معنى كلمة (محمّد رسول الله) وهذا هو الصدق الجلي والحق المبين[3].

---

(١) كارليل، الأبطال: ص٧٠.

(٢) ن.م: ص٧١.

(٣) ن.م: ص٧٢.

والتاريخ في نظر كارليل مسيرة للأبطال والعظماء وسجل منقبي لأعمالهم الأسطورية التي تشكّل مادّة ثرية لهواة كتاب السيرة والتراجم، فبغير العظماء ـ يعتقد كارليل ـ ليس ثمّة تاريخ[1] فهو قد ردّ الكثير من الخرافات التي افتعلها كتاب القرون الوسطى حول النبي ﷺ ورفضها فكان حين ذلك شجاعاً.

وذكر الأستاذ الدكتور قاسم السامرائي انّ كارليل كان يعتقد انّه لم يعد محمّد نبياً ولا القرآن كتاباً من الله تعالى[2]، ولكن لم أجد في كتاب (الأبطال) ما يعزّز هذا القول، بل على العكس، ان كارليل كان يمجّد القرآن ويقيّمه تقييماً حسناً ويؤمن برسالة النبي الكريم ﷺ فقد وصف النبي ﷺ بأنه رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة إلينا. وكان يقول: فلسنا نعد محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصفاً يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية أو يطمح إلى درجة صك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر، وما الرسالة التي أداها إلا حقّ صراح، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول، كلا، ما محمد بالكاذب ولا الملفق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله و ﴿ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ

---

(١) محمود إسماعيل، البطل التاريخي، مجلة المؤرخ العربي: ص١٦٠ ـ ١٦١، العدد السابع.

(٢) السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية: ص١٣.

يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، وهذه حقيقة تدمغ كل باطل، وتدحض حجة القوم»[1].

وتبرز موضوعية كارليل في نظرته للرسول ﷺ من قوله: «لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر أن يصغى إلى القول بأن دين الإسلام كذب، وأنّ محمداً خداع مزور، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرجل ما زالت السراج المنير فترة اثني عشر قرناً لمئات الملايين من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا، أكان أحدكم يظن أنّ هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟

أمّا أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً فلو أنّ الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث واضلولة كان الأولى بها ان لا تخلق»[2] وهذا القول رد جميل على بعض المستشرقين الذين دأبوا على الحط من أهمية النبي ﷺ ومكانته، وهو عندما حلّل شخصيته ﷺ كشف عن نواحي عبقريته التي تتجلى فيها اسمى معاني الوحي، وانتهى إلى أن محمداً كان مخلصاً

---

(١) كارليل: الأبطال ص ٦٠ ـ ٦١.

(٢) كارليل، الأبطال: ص ٥٨. أنظر محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ١/ ٦٥ ـ ٦٦ التهامي نقرة: مناهج المستشرقين ١/ ٢٤.

في دعوته، صادقاً في عقيدته مثل غيره من العظماء فيقول:

«إذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان، وإذا خرجت من القلب نفذت إلى القلب، والقرآن خارج من فؤاد محمد، فهو جدير أن يصل إلى أفئدة سامعيه وقارئيه، وقد زعم «براديه» وأمثاله أنه طائفة من الاخاديع والتزاويق لفقها محمد، لتكون أعذاراً له عما كان يرتكب ويقترف، وذرائع لبلوغ مطامعه، وغايته، ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال، فإني لأمقت كل من يرمي محمداً بمثل هذه الأكاذيب، وما كان ذو نظر صادق ليرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل، والقرآن لو تبصرون ما هو إلا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس، بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال في الخلوات الصامتات»[1].

وكان بعض المستشرقين قد أعجبوا بشخصية محمد ﷺ من حيث إخلاصه لأمته، فهو إخلاص لا يفرقه مع غيره من الروحانيين والقادة والإصلاحيين من أمثال: لوثر وروسو ونابليون وغيرهم، ومن هؤلاء تولستوي الذي يقول:

«ومما لا ريب فيه أن محمداً كان من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى

---

(١) كارليل، الأبطال: ص ٨٠.

أمّة برمتها إلى نور الحقّ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام، وتؤثر عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام»[1].

ويميل بعض المستشرقين إلى اعتبار النبي ﷺ مجرد مصلح أكثر من كونه رسولاً من الله إلى البشرية، ولكن هذا لا يعني عدم وجود من يؤمن بنبوة محمد ﷺ من المستشرقين ومن هؤلاء المستشرق الانكليزي سيل SALE [2] وإلى ذلك يذهب موير في كتابه «حياة محمد» إلى القول[3]:

«امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيى الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد»[4].

وقد علل مونتيه في كتابه «حاضر الإسلام ومستقبله» مطاعن بعض الغربيين على الرسول ﷺ بقوله: «كثيراً ما حكمت عليه الأحكام القاسية، وما ذلك إلا لأنه ندر بين المصلحين من عرفت

---

(١) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ١/ ٦٦.

(٢) عبدالرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص ٢٥٢.

(٣) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ١/ ٦٦.

(٤) ن. م ١/ ٦٧.

حياتهم بالتفصيل مثله، وان ما قام به من إصلاح الأخلاق وتطهير المجتمع يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للإنسانية».

وكان المستشرق الفرنسي كلود اتيان سافاري قد وصف الرسول ﷺ في مقدمة ترجمته للقرآن الكريم بالعظمة فيقول[1]: «أسّس محمّد ديانة عالمية، تقوم على عقيدة بسيطة لا تتضمّن إلاّ ما يقرّه العقل من إيمان بالإله الواحد الذي يكافئ على الفضيلة ويعاقب على الرذيلة، فالغربي المتنوّر وإن لم يعترف بنبوّته لا يستطيع إلاّ أن يعتبره من أعظم الرجال الذين ظهروا في التاريخ».

وعقد الدكتور ماركس دودز في كتابه (محمد وبوذا والمسيح):

Mohammed, Buddha and Christ, By Dr Marcus Dodds

مقارنة بين الشخصيات الثلاثة التي حملها اسم الكتاب، فسأل: «أليس محمّد نبياً على وجه من الوجوه؟ ثم أجاب قائلاً: إنّه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء، فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله، وتمكّنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة، وانّه لخليق في هذه الفضيلة أن يساوي أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بني إسرائيل؛ لأنّه جازف بحياته في سبيل الحق، وصبر على الإيذاء يوماً بعد يوم عدّة سنين، وقابل النفي والحرمان والضغينة، وفقد مودّة الأصحاب بغير مبالاة، فصابر على الجملة

---

(١) التهامي نقره، مناهج المستشرقين: ٢٤/١.

قصارى ما يصبر عليه إنسان دون الموت الذي نجا منه بالهجرة، ودأب مع هذا جميعه على بثّ رسالته غير قادر على إسكاته وعد ولا وعيد ولا إغراء... وربّما اهتدى إلى التوحيد أناس آخرون بين عبّاد الأوثان، إلاّ أنّ أحداً آخر غير محمّد لم يقم في العالم مثل ما قام من إيمان بالوحدانية دائم مكين، وما أُتيح له ذلك إلا لمضاء عزمه أن يحمل الآخرين على الإيمان، فإذا سأل سائل: ما الذي دفع بمحمّد إلى إقناع غيره حيث رضى الموحّدون بعبادة العزلة؟ فلا مناص لنا أن نسلم انّه هو العمق والقوة في إيمانه بصدق ما دعا إليه»[1].

ومن بين المستشرقين من حملته روح الإنصاف والتجرّد إلى الدفاع عن النبيّ ﷺ دفاعاً مشرّفاً ضدّ مطاعن ذوي الأهواء والتعصّب ومن هؤلاء مثلاً (لين بول) الذي يقول بهذا الصدد: «إنّ كثيراً من كتّاب التراجم والسير من الأوربيين الذين تناولوا الكلام على سيرة محمّد لم يتعفّفوا على أن يشوّهوا هذه السيرة بما أدخلوه عليها من افتراءات وادّعاءات كاتّهامهم إيّاه بالقسوة وارتكاب الموبقات والانهماك في الشهوات، وانّه كان دجّالاً دعياً وطاغياً متعطشاً لسفك الدماء»[2]. وقد أشار (لين بول) إلى صفات الرسول ﷺ الحميدة وشجاعته الفائقة ومكارم أخلاقه.

---

(١) العقاد، عبقرية محمّد: ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية: ٦٦/١ ـ ٦٧.

وكان المستشرق الفرنسي (ماسنيون) قد أشار كذلك إلى أنّ محمّداً كان مالكاً لعقله متمتعاً بصحته، وقد اعتمد عليه (درمنجم) في كتابه (حياة محمّد)[1]، ولعلّ ماسنيون بقوله هذا يردّ على بعض المستشرقين حول ظاهرة الوحي، وما كان ينتاب الرسول ﷺ من داء الصرع[2] على حدّ بعض المزاعم. وكانت المستشرقة الانكليزية (اللادي ايفلين كوبولد) في كتابها (البحث عن الله) والذي عرّبه عمر أبو النصر، قد دافعت عن الرسول الكريم ورسالته[3].

وقد أشار بعض المستشرقين إلى صلة الإسلام بالمسيحية، فيقول المستشرق الألماني (ماكس مولر): «سوف يعلم النصارى والدهشة آخذة منهم أنّ محمّداً من أنصار المسيح، وأنّ الديانة المحمّدية هي من فروع النصرانية، وإذ ذاك يدهش المسلمون والنصارى على السواء بما جاء في تاريخهما من الخصام والشقاق والعداء بسبب الدين» ولم يكن هذا المستشرق دقيقاً في رأيه؛ إذ أنّ اعتراف النبي ﷺ برسالة السيد المسيح، وصدقه ونبوّته لا تعني إطلاقاً كون الإسلام فرعاً أو امتداداً

---

(١) ن.م: ٦٥/١.

(٢) شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي: ٣٤/١، أنظر حسن الحكيم مع المستشرقين في دراساتهم للشيخ الطوسي، مجلة الرابطة: ص١٠٦، العدد الرابع، السنة الثالثة ١٩٧٧م.

(٣) محسن جمال الدين، المستشرقون: ص٢٠.

للمسيحية، والإسلام في جوهره وفي أبعاده كون قائم بذاته، وبه ختمت النبوات السماوية كافّة، وقد ذهب إلى الرأي الذي ذكره ماكس مولر عدد المستشرقين الروس من أمثال فلاديمير سولوفيف وبيتروف[1]. ولعلّ هؤلاء أشاروا إلى جوهر الأديان وسماويتها وإنسانيتها.

وكان بعض المستشرقين قد أشار إلى الأثر الذي تركه الرسول الكريم ﷺ في الأمّة العربية، فيقول كليموفيج:

«إنّ محمّداً واحد من عدّة أنبياء ظهروا وبشّروا بالتوحيد وأرادوا توحيد القبائل»[2].

ويقول كوسان دوبر سيفال: إنّ العرب حوّلوا إلى أمّة من قبل محمّد، وإنّ الإسلام كان أساساً أداة سياسية لا أداة روحية بأي شكل[3].

ولا شكّ انّ هذا المستشرق قد أصاب في الأولى وأخطأ في الثانية، حيث انّ فصل سياسة النبي ﷺ عن أصلها الروحي يؤكّد افتقار الرجل إلى فهم حقيقة الإسلام ومضامينه الدينية. وكان المستشرق الانكليزي جب دقيقاً في توضيح أثر الرسول ﷺ في العرب فيقول:

---

(١) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية: ٦٨/١.

(٢) عماد الدين خليل، مناهج المستشرقين: ١٤٠/١.

(٣) ادوارد سعيد، الاستشراق: ص١٦٩.

«إنّ محمّداً ككلّ شخصية مبدعة قد تـأثّر بـضرورات الظـروف الخارجية المحيطة به من جهة، ثم هو من جهة أُخـرى قـد شـقّ طريقـاً جديداً بين الأفكار والعقائد السائدة في زمانه والدائرة في المكان الـذي نشأ فيه.. وانطباع هذا الدور الممتاز لمكّـة يمكـن أن نقـف علـى أثـره واضحاً في كلّ أدوار حياة محمّد، وبتعبير إنساني انّ محمّـداً نجـح؛ لأنـه كان واحداً من المكيين»[1].

ثانياً: الدراسات المعادية:

كان للتفاوت العقائدي بين الإسـلام وثقافـات المستـشرقين مـا جعل الكثيرين من هؤلاء يقعون في شطط عقلي وعلمي، وهـذا نـاتج عن قصورهم الذهني من جانب وعن تعصّبهم الديني من جانب آخـر، وتكاد لا تخلو كتابات المحايدين أو المنصفين من بعض تلك الشطحات. وقد عرف جملـة منـهم بالحقـد والكراهيـة والتعـصب علـى الإسـلام والرسول الكريم ﷺ والعرب عموماً، ويلمس القارئ في كتابات هـذا النفر كثيراً من التهجّم والتجريح البعيـدين عنـها، ولعـلّ بعـضها جـاء بوحي من المبشرين الذين غزوا العـالمين العـربي والإسـلامي، وأرادوا تغطيـة فـشلهم في بعـض مخططـاتهم ، فعمـدوا إلى تـشويه حقيقـة الرسولﷺ ورسالته ولا سيما الذين ينتمون إلى الكنيـسة وظيفيـاً، أو

---

(١) التهامي نقره، مناهج المستشرقين: ٢٧/١ ـ ٢٨.

من دخل في سلك رجال الدين، وفي هذا الصدد يقول المستشرق الفرنسي كارادي فو (Carrade Vaux): «ظلّ محمّد زمناً طويلاً معروفاً في الغرب معرفةً سيّئة، فلا تكاد توجد خرافة ولا فظاظة إلا نسبوها إليه»[1]، وكان لامنس وبنغوين ولفرد كانتول سمث وأمثالهم ممّن وقف هذا الموقف المعادي. ومن الغريب انّ تولستوف نفى وجود النبي ﷺ أصلاً وعدّه شخصية أسطورية[2]، وقد حاولت بلورة أبرز الاتهامات التي وجّهها المستشرقون للرسول ﷺ فجاءت على الوجه الآتي:

١ ــ ظاهرة الوحي:

انّ معظم المستشرقين لم يستطيعوا، ولم يريدوا تكوين فكرة صحيحة عن القرآن الكريم، وعن الوحي الذي أنزل على الرسول ﷺ ويكاد يكون هناك شبه إجماع على انّ انفعالات الرسول ﷺ عند نزول الوحي عليه ما هي إلاّ نوع من أنواع الصرع كان مصاباً به قبل النبوة، فيذكر نورمان دانيال: «انّ نوبات الوحي وتصبّب العرق وصلصلة الجرس فسّروه بالصرع لو أنّ النبي ﷺ كان يصيبه مسّ من الشيطان وأنّ نبي العرب كان قد درّب حمامة، أو أنّ معلّماً خبيثاً له درّبها على التقاط الحب من أذنه، فكان يدّعي أنّ هذه الحمامة هي

---

(١) التهامي نقره، مناهج المستشرقين: ٢٢/١.

(٢) جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام: ٩/١ ـ ١١.

الروح القدس توحي إليه بقرآنه»[1]، ومن هذا النوع من التجنّي ما يقوله نولدكه: «انّ سبب الوحي النازل على محمّد والدعوة التي قام بها هو ما كان ينتابه من داء الصرع»[2]، أمّا جوستاف لوبون فيقول: «قيل إنّ محمّداً كان مصاباً بالصرع، ولم أجد في تاريخ العرب ما يميز القطع بذلك، وكلّ ما في الامر ما رواه معاصروه وعائشة منهم: أنّه كان إذا أنزل الوحي عليه اعتراه احتقان فغطيط فغشيان»[3]، ولم يستطع لوبون وهو من المعتدلين في حقل الاستشراق فهم طبيعة الانجذاب الروحي والتعبدي الذي كان يعتري النبي صلى الله عليه وآله في لحظات نزول الوحي عليه ففسّره أسوة بغيره من غلاة المتعصبين بأنّه مجرّد حالة مرضية.

لقد تعسّف بعض المستشرقين في وصف ظاهرة الوحي تعسفاً أبعدهم عن الموضوعية والمنهج العلمي، دون الرجوع إلى مصادر السيرة والتاريخ الإسلامي، إذ تشير بعض نصوصهما إلى أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يدرك بشكل واضح جلي الانفصال التام بين ذاته المتلقية والذات الإلهية العليا الموحية، وقد نصّ الرسول صلى الله عليه وآله نفسه على هذه الحقيقة بقوله: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ فيفصم عنّي وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلّمني فأعي

---

(١) السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية: ص٦٢.

(٢) شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي: ٢٤/١.

(٣) التهامي نقره، مناهج المستشرقين: ٢٩/١.

ما يقول»[1].

وهذا التصريح النبوي الأمين يؤكّد ثنائية العلاقة بينه وبين مصدر الوحي وهو أمر خارج الذات المحمّدية التي كانت تعي ما تتلقّاه من الوحي الإلهي أولاً بأول، لتؤدّيه بعد ذلك إلى الناس حرفياً، ودون تدخّل شخصي أو تصرّف من الرسول ﷺ ذاته. قال تعالى: ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[2].

وهناك الكثير من الآيات الكريمة التي تشير إلى الوحي بالمعنى الذي عرضناه سلفاً تؤكّد الفرق بين الذات الإلهية والذات المحمّدية كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾[3]، وتبرز هذه الآيات الكمال الواعي للرسول ﷺ في حالة التفريق بين الوحي وأحاديثه الخاصة التي كان يعبّر عنها بإلهام من الله، وهذا لاشكّ يؤيّد استقلال ظاهرة الوحي عن ذات النبي استقلالاً مطلقاً،

---

(١) ابن سيد الناس، عيون الأثر: ٩٠/١.

(٢) يونس: ١٥ ـ ١٦.

(٣) الكهف: ١١.

وتفردها عن العوامل النفسية تفرّداً كاملاً، ونجد المستشرق موير في كتابه (حياة محمد) يردّ على ادّعاءات المستشرقين بقوله:

«وتصوير ما كان يبدو على محمّد في ساعات الوحي على هذا النحو الخاطئ من الناحية العلمية أفحش الخطأ، فنوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أيّ ذكر لما مر به أثناءها، بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تامّاً، ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حل به خلالها؛ لأنّ حركة الشعور والتفكير تتعطّل فيه تمام العطل، هذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم، ولم يكن ذلك ما يصيب النبي العربي أثناء الوحي ، بل كانت تتنبّه حواسّه المدركة في تلك الأثناء تنبّهاً لا عهد للناس به، يذكر بدقّة ـ غاية الدقّة ـ ما يتلقّاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه، ثم نزول الوحي لم يكن يقترن حتماً بالغيبوبة الحسّية مع تنبّه الإدراك الروحي غاية التنبّه، بل كثيراً ما يحدث والنبي في تمام يقظته العادية»[1].

ولكن (وات) قد ترجم الرؤيا المنامية، ورأيه هذا يخالف رأي المحدثين من أنّ الرؤيا الصادقة هي الرؤيا المنامية»[2]. وذهب إلى أبعد من هذا بقوله: «إنّ تفسير المسلمين المعتاد لهذا هو انّ الرؤى المذكورة هنا هي رؤية النبي لجبريل، ولكن هناك أسباب تدعو للقول بأنّ محمّداً

---

(١) الصغير، تاريخ القرآن: ص١١ ـ ١٢، بكري أمين، التعبير الفني: ص١٩.

(٢) جعفر الشيخ إدريس، مناهج المستشرقين: ٢١٤/١.

فسّر بداية ما رآه بأنّه الله».

وربّما صدر (وات) في رأيه هذا عن اعتماده على الطبري في بعض رواياته عن جابر بن عبدالله حول سورة المدّثر إذ يقول محمّد ﷺ في الرواية: سمعت صوتاً يناديني فنظرت حولي فلم أرَ أحداً فرفعت رأسي فإذا هو جالس على العرش[1]، ويبدو انّ المستشرق (وات) قد أغفل ما ورد في القرآن الكريم ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾؛ لأنه لو أقرّ بهذه الحقيقة لاعتقد انّ القرآن إلهي، فهو من جهة أراد أن يظهر أنّ محمّداً قد غلب عليه الخيال والوهم، ومن جهة أُخرى أراد إبراز التناقض في مسألة رؤية الله.

وكان المستشرق الأمريكي واشنتجون ارفنج قد أدرك خصومة بعض الكتّاب الغربيين للرسول ﷺ ما نسبوا إليه من حالات مرضية عند تعرّضهم لظاهرة الوحي وقد قال: «هي المسألة التي يثيرها خصومه من الكتّاب المسيحيين»[2]. وقد ناقش الدكتور جوستاف ويل (Dr. Gustav Well) في بحث بعنوان (Mohammed der Prophet).

٢ ــ ظاهرة الأثر الديني:

لا تقلّ ظاهرة الأثر الديني عن ظاهرة الوحي في مراميها

---

(١) الطبري: ٣٠٢/٢.

(٢) ارفنج، حياة محمد: ص٥٦ ـ ٥٨.

وأغراضها، ويقصد منها النيل من شخصية الرسول ﷺ وتأثّره بالديانتين اليهودية والمسيحية، فبعض المستشرقين من خصّ التأثير بإحدى الديانتين، وبعضهم من مزجهما معاً، ويعلّل الدكتور جواد علي هذه الظاهرة الاستشراقية بالقول:

«انّ معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين أو من المتخرجين من كليات اللاهوت، وهم عندما يتطرّقون إلى الموضوعات الحسّاسة من الإسلام يحاولون جهد إمكانهم ردّها إلى أصل نصراني، وطائفة المستشرقين من اليهود وخاصّة بعد تأسيس إسرائيل وتحكّم الصهيونية في غالبيتهم يجهدون أنفسهم لردّ كلّ ما هو إسلامي وعربي لأصل يهودي وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع لسلطان العواطف والأهواء[1].

وقد انساق وراء هذه الفرية عدد من المستشرقين وذهبوا إلى القول انّ الرسول ﷺ قد اتصل باليهود في مكة، وإنّه كان يسأل خادمه زيداً، وهو مملوك للمسيحيين عن الديانتين المسيحية واليهودية ليأخذ منهما وقالوا: كان محمد في المدينة تلميذاً لليهود وهم الذين كوّنوه ثمّ بدأ جبريل يمدّه ببعض الأساطير التي عرفها اليهود والمسيحيون[2].

---

(١) جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام: ٩/١ ـ ١١.

(٢) التهامي نقره، مناهج المستشرقين: ٣٢/١.

ويذكر الدكتور التهامي نقره نقلاً عن هامش حداد على كتاب الدكتور موريس بوكان الطبيب الفرنسي في كتابه (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم) قائلاً: «والسرّ الكبير في ثقافة محمّد الكتابية والإنجيلية وجود العالم المسيحي ورقة بن نوفل من بني أسد ابن عم السيدة خديجة في جوار النبي وهو الذي زوّجه ابنة عمّه، فقد أجمعت الآثار على انّ ورقة تنصّر، وكان يترجم التوراة والإنجيل إلى العربية، فهو إذن عالم مسيحي كبير، وقد عاش محمد في جواره خمسة عشر عاماً قبل مبعثه، ألا تكفي هذه المدّة لنابغة العرب محمّد بن عبدالله لكي يأخذ عنه شيئاً من علوم التوراة والإنجيل»[1].

ويذهب توراندريه إلى القول: انّ أسلوب النبي ﷺ قد تأثّر بموعظة التبشير المسيحي على لسان المبشّرين العرب من جنوب الجزيرة، ولا يقوم على صحّة هذه الدعوة أثر في القرآن الكريم، أو لمح من التاريخ، وكذلك ما ادّعاه من وضوح التأثير النصراني في لغة النبي ﷺ باطّراد[2].

وكان المستشرق بيدرو باسكال قد ربط الأثر المسيحي على الرسول الكريم ﷺ بالراهب المسيحي (بحيرا) الذي وصفه بالراهب المرتد وقال: هو الذي كان يتعلّم منه محمّد تعاليمه، وانّ اعتزال محمد

---

(١) التهامي نقره، مناهج المستشرقين: ٣٧/١.

(٢) الصغير، تاريخ القرآن: ص٢٣.

في تلال مكّة كان يعدّ عدّته مع هذا النصراني المرتد في السر لتهيئة تفاصيل التزوير[1]، وقد اختلط بحيرا هذا عند بعض المستشرقين بجريج الراهب أو جرجيس، ومع هذا الاختلاط فإنّه أخذ حظّه من الإهانة والتجريح عند بعضهم والمديح الشامل عند الآخرين، فقد وصفه جماعة بالقدّيس والحبر الكاثوليكي المخلص الذي علّم محمّداً الدين الصحيح، إلاّ أنّ محمّداً حرّف تعاليم هذا الراهب، ووصفه آخرون بأنّه مرتدّ خبيث يبطن اليهودية أو الزندقة، ولذلك استغلّ محمّداً للحطّ من دين روما حقداً أو كرهاً للبابا.

ومن الغريب أنّ بعضهم ذهب إلى القول:

إنّ محمّداً كان كاردنالاً كاثوليكياً، وكان يطمح أن يفوز بمقعد البابا، فلمّا لم ينتخبه الكرادلة لكرسي البابوية غضب وذهب إلى مكّة وأعلن ديناً جديداً مضاداً لروما، ولما كان العرب كلّهم نصارى فلذلك نجح في إغوائهم، ولكن هؤلاء قد اختلط عليهم الأمر ـ عمداً أو غفلةً ـ فقد ربطوا قصة النصراني النسطوري (أو أحياناً نسطور نفسه الذي أدين بالزندقة في مجمع أخسوس عام ٤٣٥م، وحكم عليه الامبراطور بالنفي) الذي أدانه مجمع القسطنطينية لإنكاره ثنائية طبيعة المسيح، واخترعوا له اسم سرجيس وجورجيس فذهب إلى الجزيرة العربية فأُعجب به محمّد وجعله معلّماً له وكان يسمّيه جبريل رئيس

---

(١) السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية: ص٥٥.

الملائكة[1].

وهناك نفرٌ من المستشرقين من يردّد انّ الإسلام كلّه بقرآنه وحديثه وحضارته مستمدٌّ من اليهودية والنصرانية، وأنّ القرآن الكريم هو صنع محمّد في محاولة لإزالة صفة الإلوهية عنه، وصفة الرسالة السماوية عن النبي ﷺ، فأرادوا بذلك أنّ النبي ﷺ قد استقى قرآنه من الأحبار والرهبان، وأنّه تلقّى تعاليمه عنهم وعن كتبهم المقدّسة، وإلى ذلك يذهب جولد تزيهر، في رأيه أنّ المعرفة الدينية التي تلقّاها الرسول ﷺ تضمّ عنصرين: خارجي وداخلي، فيقول: فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثّر بها تأثّراً عميقاً، والتي رآها جديرة بأن توقظ في بني وطنه عاطفة دينية صادقة، وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت في وجدانه ضرورية لإقرار لون من الحياة في اتجاه يريده الله.

لقد تأثّر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه وأدركها بإيحاء قوّة التأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً[2]. ويذكر (وات) في كتابه (محمّد في

---

(١) السامرائي، الاستشراق: ص٥٦.

(٢) التهامي نقره، مناهج المستشرقين: ٣١/١، جولد تزيهر. العقيدة والشريعة في الإسلام: ص١٢.

مكة): إنّ الحاجة إلى العزلة واستحسانها، يمكن أن يدلّ عليه الأثر اليهودي والنصراني كمثل الرهبان، أو أن يكون نتيجة تجربة شخصية قصيرة[1].

ومن الغريب أنّ المستشرق (همفري بريد) في كتابه (حياة محمّد) والذي دوّنه المستشرق الأمريكي (ارفنج) قد خلط بين الصحابي سلمان الفارسي وعبدالله بن سلام الذي كان يتّهمه الكتّاب المسيحيون بأنّه كان يساعد محمّداً في تأليف القرآن[2].

ثالثاً: ظاهرة تعدّد الزوجات:

ضرب بعض المستشرقين على نغمة، وردّدوها كثيراً في كتاباتهم، وهي توجيه النقد اللاذع للرسول ﷺ على تعدّد زوجاته واتّهامه بأنّه مسرف في اللذة والمتعة فيقول (سلون): «فما دام محمّد قد اعتبر ناشراً لوحي زائف، فقد أصبح هو كذلك تجسيداً للشبق والفسق والشذوذ الجنسي، وسلسلة كاملة من الخيانات المتنوعة التي اشتقت جميعها بصورة منطقية من انتحالاته المذهبية»[3]. ويذكر الأستاذ العقّاد انّه قال

---

(١) وات، محمد في مكة: ص٨١.

(٢) ارفنج، حياة محمّد: ص١٢١.

(٣) ادوارد سعيد، الاستشراق: ص٩٢.

له بعض المستشرقين: إنّ تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية عند الرسول ﷺ، فأجابه: إنّك لا تصف السيد المسيح بأنّه قاصر الجنسية؛ لأنّه لم يتزوج قط، فلا ينبغي أن تصف محمّداً بأنّه مفرط الجنسية؛ لأنّه جمع بين تسع نساء[1]، وعلى الرغم من عرض المستشرق (ارفنج) للسيرة عرضاً فيه قوة بيانية تملك القارئ في كثير من أجزائه، إلاّ انّه قد تحامل على الرسول ﷺ في مسألة تعدّد زوجاته فيقول: «رغم انّ الإسلام لا يبيح للمسلم الزواج بأكثر من أربعة إلاّ أنّ محمّداً لم يشأ أن يخضع لهذا القيد، فإنّ النبي له من الامتيازات ما يجعله غير خاضع لهذه القوانين»[2].

فالرسول الكريم ﷺ الذي قضى على الانحلال الخلقي والاجتماعي وكان مثال النبل وسمو الأخلاق لا يمكن أن يفكّر في لذّة أو متعة، كما أنّ كثيراً من الأنبياء الذين سبقوه قد تعدّدت زوجاتهم كإبراهيم ويعقوب وموسى وداود، وبطبيعة الحال انّ هؤلاء ما تعدّدت زوجاتهم لمجرّد المتعة، وقد ظلّ الرسول ﷺ مع زوجة واحدة، وفيّة مخلصة هي أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) حتّى وفاتها، وقد دفعه بعد ذلك إلى تعدّد الزوجات أسباب سياسية واجتماعية وإنسانية. ولم يخجل بعض المستشرقين من إعطاء بعض زيجات

---

(١) العقّاد، عبقرية محمد: ص١١٨.

(٢) ارفنج، حياة محمد: ص٩٦.

الرسول ﷺ صفات لا أخلاقية، ولعلّ أغربها زواجه من زينب بنت جحش التي صوّرها هؤلاء بأنّ الرسول ﷺ رآها وهي نصف عارية أو تكاد، وقد انسدل شعرها على ناعم جسمها الناطق بما يكنّه من كلّ معاني الهوى. ويذكر آخرون أنّه حين فتح باب زيد بن حارثة زوج زينب بنت جحش، لعب الهواء بأستار غرفتها وكانت زينب ممدّة على فراشها في ثياب نومها، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها فكتم ما في نفسه وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلاً. وأمثال هذه الصور التي أبدعها خيال بعض المستشرقين من أمثال: موير و درمنجم و ارفنج و لامنس وغيرهم[1].

وكان المستشرق الأمريكي ارفنج قد عرض هذه القصة بإيجاز شديد قد يدعو إلى الغموض والشكّ، ولم يحسن عرضها، ومن المحتمل أنّه اعتمد على بعض الروايات المضطربة أو ذات الأثر الإسرائيلي، ولايستبعد أنّه استقى بعض نصوصه من الطبري، فقد ورد فيه أنّ الرسول ﷺ قد افتقد زيداً فجاء منزله، فهرعت زينب تستقبله، وقد أعجلتها اللهفة عن استكمال ثيابها للقاء الرسول ﷺ فقالت: ليس هو هاهنا يا رسول الله فادخل بأبي أنت وأمّي. وفي رواية أخرى للطبري: جاء الرسول ﷺ يطلب زيداً، وعلى باب زينب بنت جحش ستر من شعر، فرفعت الريح الستر فانكشف عنها وهي في حجرتها حاسرة،

---

(١) محمد حسنين هيكل، حياة محمد ﷺ: ص٣١٦.

فوقع إعجابها في قلب النبي ﷺ، فلمّا وقع ذلك كرهت إلى الآخر، قال: فجاء فقال: يا رسول الله، إنّي أُريد أن أفارق صاحبتي، فقال: ما لك أرابك منها شيء، فقال: لا والله يا رسول الله، ما رابني منها شيء، ولا رأيت إلاّ خيراً، فقال له رسول الله ﷺ: امسك عليك زوجك واتق الله[1]، فلذلك قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾.

ونحن نستشفّ من هذه الرواية أنّ زينب بنت جحش قد تزوّجت بزيد كرهاً، وهذا أمرٌ طبيعي في العلاقات الزوجية ويكون مؤدّاها الانفصال في نهاية المطاف، وفي هذا الزواج والطلاق نزلت الآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾[2]، وتجد في عبارة المستشرق ارفنج «ولما كانت زينب في البيت فقد كانت لا تضع الخمار على وجهها، ووقعت أنظار محمّد على جمالها الفاتن وبدأ عليه علامات إعجابه بجمالها»[3]، تدلّ على ضربه على نفس النغمة التي يردّدها غيره من المستشرقين في تفسيرهم

---

(١) الطبري، التاريخ: ٥٦٢/٢ ـ ٥٦٤. أنظر التفسير: ٢٢/ ١٠ ـ ١١.

(٢) الأحزاب: ٣٧.

(٣) ارفنج، حياة محمد: ص١٧٣ ـ ١٧٤.

الجنسي لبعض أحداث السيرة النبوية.

ومن المفارقات التي ذكرها (ارفنج) حول زواج النبي ﷺ من خديجة بنت خويلد (رض) يقول: «كان أبوها خويلد يحبّ النبيذ فأقبل يصب منه حتّى ثمل، وطلبت خديجة من أبيها، وهو واقع تحت تأثير الخمر أن يوافق على زواجها من محمّد، فأبدى موافقته متناسياً فقر محمّد» ولعلّ الأكثر غرابة أنّ مترجم هذا الكتاب الدكتور علي حسني الخربوطلي لم يعترض على هذا القول وكأنّه يؤكّد هذه الرواية بالقول:

«انتهزت خديجة فرصة وقوع أبيها تحت تأثير الخمر فطلبت منه الموافقة على زواجها بمحمّد فوافق دون تفكير، فقامت خديجة ـ حسب العادة العربية ـ إلى أبيها تعطّره وألبسته حلّة جميلة، حتّى إذا عاد إلى وعيه امتنع عن الموافقة، فقالت خديجة: ألا تستحي، تريد أن تسفّه نفسك عند قريش، تخبرهم أنّك كنت سكران؟ فاضطرّ إلى القبول[1].

رابعاً: نسبة القرآن الكريم إلى النبي ﷺ:

أطلق بعض المستشرقين على القرآن الكريم لفظ (كتاب محمّد)

---

(١) الخربوطلي، هامش حياة محمد لـ(ارفنج): ص ٥٠.

يقول المستشرق فايل:

«إنّ النبي كان يعرف القراءة والكتابة، وإنّ القرآن يشير إلى ذلك ولكنّه أخفق في الاستدلال المقنع في الموضوع»[1]، وكان الكثير من المستشرقين وراء الرأي الذاهب إلى معرفة الرسول ﷺ القراءة والكتابة في محاولة لإثبات القرآن الكريم لمحمّد ﷺ والشكّ في إلهيته وسماويته، ولذلك حاولوا إيجاد بعض الجوانب للدخول منها؛ لأجل نقد القرآن نقداً لاذعاً، يقول المستشرق الفرنسي شالوبريان:

«كان القرآن (كتاب محمّد) وهو لم يحتو على أيّ مبدأ للحضارة أو أيّ تعليم يسمو بالشخصية»[2].

وتجد الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو في حديثه عن القرآن الكريم وشخصية الرسول ﷺ يخلط بين التقليل من أهمية القرآن، وبين تأثير محمّد ﷺ على الناس لتعزيز أهمية القرآن في النفوس فيقول:

«من الناس من يتعلّم قليلاً من العربية، ثمّ يقرأ القرآن يضحك منه ولو أنّه سمع محمّداً يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة، وذاك الصوت المقنع المطرب، المؤثّر في شغاف القلوب، ورآه يؤيّد

---

(١) الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنية: ص٢٨.

(٢) ادوارد سعيد، الاستشراق: ص١٨٦.

أحكامه بقوّة البيان، لخرّ ساجداً على الأرض وناداه أيّها النبي رسول الله خذ بأيدينا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والأخطار، فنحن من أجلك نودّ الموت أو الانتصار»[1].

أمّا المستشرق شبرنكر (Sprenger) فإنّه نحا في العلاقة بين النبي ﷺ والقرآن الكريم منحىً آخر فيه لون جديد من الغرابة فيقول:

«إنّ اسم النبي ورد في أربع سور من القرآن هي: آل عمران، والأحزاب، ومحمّد، والفتح، وكلّها سور مدنية، ومن ثمّ فإنّ لفظة (محمّد) لم تكن اسم علم للرسول قبل الهجرة، وإنّما اتخذه بتأثير قراءته للإنجيل واتصاله بالنصارى»[2]، وإذا كان النبي ﷺ قد التقط اسم (محمّد) من خلال قراءاته لنبوءات الإنجيل فأين ذهب إذن (محمّد) الحقيقي الذي بشّر به العهدان القديم والجديد[3].

وكثير من المستشرقين لم يكن لديهم تصوّر واضح عن مصدر القرآن الكريم، ولا عن نزول الوحي، ولذا أخذوا وفق منظوراتهم الخاصة يفسّرون القرآن والوحي تفسيرات تتفق مع أهوائهم وآرائهم،

---

(١) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية: ٧١/١.

(٢) جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام: ٧٨/١.

(٣) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة: ص١٩، مناهج المستشرقين: ١٣١/١.

فقد ذكر أحد المستشرقين ما يلي:

«كان أسلوب النبي في القرآن أول عهد بالدعوة مفعماً بالعواطف، قصير العبارات، فخم الصورة، يقدّم أوصاف العقاب والثواب في ألوان صارخة، وكثيراً ما يكرّر الآيات تكراراً مملاً، حتّى تنقلب معانيها إلى الضدّ، فلما تقدّم الزمن بالنبي فقد الأسلوب منهجه الأول، وأخذ يغص في نغمات هادئة بديعة قصص الأنبياء، مثلما تراه في قصة حب يوسف وزوجته بوتيفار وكانت هذه الصورة مثيرة لخيال كثير من الشعار الفرس والترك، وفي آخر عهد النبي فقد الأسلوب كلّ حرارة وكلّ فن، وأغرم بالجدل الديني مع اليهود والنصارى»[1].

ونحن لا نريد أن نتوسّع في موضوع القرآن الكريم وترجمته، ولكن أودّ الإشارة إلى أنّ بعض الترجمات المشوّشة والمشوّهة التي جاءت عمداً أو جهلاً، وهذه العملية لا شكّ تؤدّي إلى تحريف مشوّه للقرآن الكريم، فقد حرّفت ـ على سبيل المثال ـ كلمة المسلمين إلى الإسماعيليين في بعض الترجمات، وكان أبرز المستشرقين في هذا الباب (روبرت اف كيتون) فقد أصدر قرآناً مصنوعاً، فاعتمد المدافعون عن النصرانية على قرآنه هذا وعلى أمثاله من الترجمات الممسوخة، وفسّروها كما شاء لهم هواهم[2].

---

(١) محمد صبيح، القرآن: ص١٤٤ ـ ١٤٧.

(٢) السامرائي، الاستشراق: ص٦٣.

وكانت مسألة التحريف التي أثارها المستشرقون قد نالت اهتماماً كبيراً عند الأستاذ بول (Fr. Bull) فكتب في موضوع التحريف بحثاً في دائرة المعارف الإسلامية باللغة الألمانية، وعدّ التحريف تغييراً مباشراً لصيغة مكتوبة، وانّ الأمر الذي حدا بالمسلمين إلى الاشتغال بهذه الفكرة هو ما جاء بالقرآن الكريم من آيات اتّهم فيها النبي ﷺ اليهود بتغيير ما أنزل إليهم من كتب وبخاصة التوراة، ولكن عرضه للوقائع والشرائع التي جاءت في التوراة انطوى على إدراك خاطئ أثار عليه النقد والسخرية من جانب اليهود، فكان في نظرهم مبطلاً.

وهنا أثار الكاتب دعاوى لم يستطع أن يدلّل على صحّة واحدة منها على الإطلاق، فكيف استنتج أنّ ما عرضه النبي من شرائع اليهود انطوى على إدراك خاطئ، وما هو مصدر هذا الزعم ومن صرّح به، وكيف أصبح النبي مبطلاً في نظر اليهود؟ ولم لم يذهب إلى تعصّب اليهود في ذلك؟ وليته اكتفى بهذا أضاف بأنّ دعوى النبي ﷺ انّه هو يأتي بالنصّ الصحيح دعوى جريئة؛ نظراً لأنّ كتب اليهود كانت مجهولة عند أتباع محمّد من المؤمنين بصدق كلماته، وإذا كانت هذه الكتب مجهولة عند قومه، فهل جهلت عند اليهود، ولم لم يعارض ذلك بدليل تاريخي عندهم[1] وعندما يخونهم الدليل يعمدون إلى مثل هذه المزاعم الباطلة دون نقد أو تمحيص، ومثال ذلك يقول موير في كتاب (الخلافة

---

(١) الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنية: ص٣٩.

سموّها وانحطاطها وسقوطها): «إنّ سيف محمّد والقرآن، هما أكثر أعداء الحضارة والحرية»[1].

وفي موضوع القرآن الكريم وحركة الاستشراق، كتب عدد من الباحثين ولا سيما زميلي الدكتور محمد حسين علي الصغير في كتابه (المستشرقون والدراسات القرآنية) ونحن هنا أوردنا القضايا المشتركة التي أوردها المستشرقون بين القرآن والسيرة النبوية، دون الإشارة إلى حدّ الغلو، وأختم حديثي في هذا الموضوع بأن أنوّه بالجهد الكبير الذي قدّمه الأستاذ نولدكه في تاريخ القرآن الذي بحث في حقيقة الوحي والنبوة وشخصية الرسول ﷺ، وقد سلك في كشف تاريخ السور مسلكاً قويماً يهدي إلى الحقّ أحياناً، فإنّه جعل الحروب والغزوات الحادثة في زمن النبي ﷺ وعام تاريخها كموقعة بدر والخندق وصلح الحديبية وأشباهها من المواقع لفهم تاريخ ما نزل من القرآن فيها، وجعل أيضاً اختلاف لهجة القرآن وأسلوبه الخطابي دليلاً آخر لتاريخ آياته[2].

خامساً: الديانة المحمدية:

يطلق الكثير من المستشرقين لفظ «الديانة المحمدية» و«المذهب

---

(١) ادوارد سعيد، الاستشراق: ص١٦٨.

(٢) الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنية: ص٨٨ ـ ٨٩.

المحمدي» على الإسلام في محاولة لإبعاد الدين الإسلامي عن سماويته، واعتباره ديناً ناسخاً للديانات السابقة له، ولذا كالوا الشتائم والسباب لهذه الديانة، يقول المستشرق الفرنسي كيمون في كتابه «ميثولوجيا الإسلام»:

«ان الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً بل هو مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء، ويدمن معاقرة الخمور ويجمع في القبائح، وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة والذهول العقلي، وتكرار لفظة (الله) إلى ما لا نهاية والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور والانغماس في اللذات»[1] وعلى هذا الوتد ضرب المونيسنيور كولي في كتابه «البحث عن الدين الحق» فهو يقول:

«برز في الشرق عدو جديد هو الإسلام الذي أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب، ولقد وضع محمد السيف في أيدي الذين تبعوه وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور

---

(١) محمد عبده: التاريخ ٣/ ٤٠٩ عماد الدين خليل: مناهج المستشرقين ١/ ١٢٧.

والسلب ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات في الجنة»[1].

وأشار جويليان في كتابه «تاريخ فرنسا» إلى أنّ محمداً مؤسس دين المسلمين، فقد أمر أتباعه ان يخضعوا العالم، وان يبدلوا جميع الأديان بدينه هو، ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين والنصارى، ان هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس أسلموا أو موتوا، بينما أتباع المسيح أراحوا النفوس ببرهم وإحسانهم، ماذا كان حال العالم لو أنّ العرب انتصروا علينا؟ إذن لكنا مسلمين كالجزائريين والمراكشيين.

وفي أسطورة «السيف» التي قال بها بعض المستشرقين وذهبوا إلى أنّ السيف هو الأساس في بناء الإسلام، وإلى ذلك يقول دوزي في كتابته «تاريخ مسلمي الأندلس»: «كان قواد محمد يدعون للدين حاملين القرآن في يد والسيف في أخرى»[2] وأخذ الدكتور غلوور في كتابه «تقديم التبشير العالمي» بتوجيه نقد لاذع لشخصية الرسول ﷺ فيقول:

«كان محمد حاكماً مطلقاً، وكان يعتقد أنّ من حق الملك على الشعب أنّ يتبع هواه ويعمل ما يشاء وكان مجبولاً على هذه الفكرة،

---

(١) عماد الدين خليل: مناهج المستشرقين ١/ ١٢٧.

(٢) دوزي: تاريخ مسلمي الأندلس ١/ ٢٧ ـ ٢٨.

فقد كان عازماً على أن يقطع عنق كل من لا يوافقه في هواه؛ أما جيشه العربي فكان يتعطش للتهديد والتغلب، وقد أرشدهم رسولهم أن يقتلوا كل من يرفض اتباعهم ويبعد عن طريقهم»[1].

وإلى أسطورة «السيف» التي أشاعها المستشرقون عن الإسلام يشير الأستاذ عباس محمود العقاد بقوله:

«شاع عن الإسلام أنه دين السيف، وهو قول يصح في هذا الدين إذا أراد قائله أنه دين يفرض الجهاد ومنه الجهاد بالسلاح، ولكنه غلط بين إذا أريد به أنّ الإسلام قد انتشر بحد السيف أو أنه يضع القتال في موضع الإقناع، وقد فطن لسخف هذا الإدعاء توماس كارليل فيقول: إنّ اتهامه بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم، إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصدقين وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها»[2].

وكان بعض المستشرقين قد اتّهم الإسلام بالقهر والعدوان، واستعمال السيف والقوة في تفسيرهم لانتشاره عن طريق عمليات

---

(١) عماد الدين خليل: مناهج المستشرقين ١/ ١٢٨.

(٢) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٣٧.

التحرير للعالم، ومن هؤلاء الكاتب البلجيكي (هنري بيرين Henri Pirenne) في كتابه «محمد وشارلمان» يقول:

«إنّ تدهور أوربا البيزنطية اقتصادياً وحضارياً أدى إلى ظهور الإسلام بعد أن كانت أوربا تعيش في بحبوحة وثراء. لأن طرق التجارة الموصلة إلى شواطئ بلجيكا وفرنسا وإسبانيا من شواطئ سوريا البيزنطية كانت مفتوحة لتوصيل الذهب والحرير والقراطيس وأنواع التوابل الشرقية، فكان الذهب يضرب نقوداً بيزنطية ليدفع ثمناً لمواد الترف الأسيوية كالتوابل من اندونيسيا، والقراطيس من مصر، والحرير من الصين، وقد انقطع هذا الترف في بداية القرن السابع/ الأول الهجري فانقطع سيل الذهب واختفت النقود الذهبية من العملات الأوربية ومعها اختفت البضائع الآسيوية، وسبب هذا كله يمكن تلخيصه بكلمة واحدة (محمد) الذي أخضع الجزيرة العربية لدينه، ومن بعده تولى خلفاؤه إخضاع سوريا ومصر وشمال إفريقيا وإسبانيا حيث تم على أيديهم قطع شريان الحياة نهائياً عن أوربا»[1].

ولا شك أنّ ما أورده المستشرقون حول انتشار الإسلام بالسيف، وأنّ ما حرره المسلمون ديار غيرهم فكان القرآن بإحدى اليدين والسيف بالأخرى بهتان عظيم، ترفضه النصوص التاريخية،

---

(١) السامرائي: الاستشراق ص ٣٢.

وإنّما شهر العرب المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم، وكفاً للعدوان عنهم، ثم كانت عمليات التحرير بعد ذلك من ضرورة نظام الحكم والإدارة، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم فكان الحوار طريق العلم بالإسلام، وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال إليه[1].

وكان المستشرق فويلز (G. Wells) قد تخيل الرسول الكريم محمداً ﷺ رجلاً دفعته طموحاته ووساوسه في سن الكهولة إلى تأسيس دين ليعد في زمرة القديسين، فألف مجموعة من عقائد خرافية، وآداب سطحية، وقام بنشرها في قومه، فاتبعها رجال منهم[2] ويعتقد فولتير: ان محمداً رجل سياسة ذو تفكير عميق، ومؤسس لدين عقلاني[3] دون الإشارة إلى نبوته ورسالته السماوية، بل انّ المستشرق (ريكولدو) قد نفي ذلك كلياً فيقول:

«يا محمد أنا لا أصدق أنك قد تسلمت هذه الآراء من الله؛ لأنك عجيب غريب في رسالتك؛ لأنك لا تتفق مع أي كتاب مقدس آخر... يجب أن ننبذ ما ادّعى محمد أنه تسلمه من الله لأنه مناقض تماماً للأحكام التي كتبها موسى والأنبياء والرسل بعده بوحي وأمر من

---

(١) محمد عبده: الأعمال الكاملة ٣/ ٤٦٢.

(٢) النهامي نقره: مناهج المستشرقين ١/ ٣١.

(٣) شاخت وبوزورث: تراث الإسلام ١/ ٦٦ ـ ٦٧.

الله»[1] ويبلغ الحقد عند بعض المستشرقين إلى حد التعاطف مع أعداء الإسلام وبخاصة مشركي قريش حيث وصفوا بالعقل والشجاعة، وصبوا اللعنات على يهود المدينة، لأنهم لم يقضوا على الإسلام في مهده. وقد وجه المستشرق بيدرو باسكال نداء للمكيين المشركين قائلاً[2]: «يا أهل مكة أنه لكان من الأحسن لو دمتم في مقاومتكم لدين محمد».

سادساً: مغالطات من هنا وهناك:

لقد اندفع بعض المستشرقين إلى إعطاء صورة مغلوطة عن جانب معين من جوانب السيرة النبوية، ووقعوا في أوهام نتيجة لعدم قراءتهم التاريخ والسيرة قراءة عميقة مستفيضة، ففي عام ١٧٢٠م نشر أحد الكتاب المجهولين كراساً يحمل عنواناً فيه الكثير من التحدي للرسول الكريم ﷺ سماه «محمد ليس مبدعاً»[3] (Mahomet no Impostor).

ونرى المستشرق الألماني بروكلمان يغفل الإشارة ـ متعمداً ـ إلى دور اليهود في تأليب الأحزاب على المدينة، أو إلى نقض يهود بني

---

(١) السامرائي: الاستشراق ص ٦٢.

(٢) ن. م ص ٦٣.

(٣) شاخت وبوزورت: تراث الإسلام ١/ ٦٦ ـ ٦٧.

قريظة عهدها مع الرسول ﷺ في أشد ساعات محنته وأحرجه ويقول: «ثم هاجم المسلمون بني قريظة الذين كان سلوكهم غامضاً، على كل حال»[1]، ويظهر مرغوليوث عطفه على اليهود ويرى أنّ اقتحام المسلمين حصن خيبر محض ظلم نزل باليهود ولا مسوغ له على الإطلاق فيقول: عاش محمد هذه السنين ما بعد هجرته على التلصص والسلب والنهب، ولكن نهب أهل مكة قد يسوغه طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه، وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية في المدينة، فقد كان هناك ـ على أي حال ـ سبب ما حقيقياً كان أم مصطنعاً، يدعو إلى انتقامه منهم إلاّ أنّ خيبر التي تبعد عن المدينة كل هذا البعد، لم يرتكب أهلها في حقّه، ولا في حق أتباعه خطأ يعتبر تعدياً منهم جميعاً لأن قتل أحدهم رسول محمد لا يصح أن يكون ذريعة للانتقام[2].

ولم يتورع المستشرق الأمريكي ارفنج حينما وصف العلاقة بين الرسول ﷺ واليهود في المدينة من أن يقول: إنّها نقطة سوداء في تاريخ محمد، ثم يقول أيضاً: «يلاحظ انّ محمداً في بعض مراحل حياته كان رسول السيف»[3]، وقد أعطى بندلي جوزي فرضيات ونتائج دون

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ١/ ٦٢.

(٢) عماد الدين خليل: مناهج المستشرقين ١/ ١٣٨.

Mohammed and Tbe Rlse of lslam. Pp. 262. 63.

(٣) ارفنج: حياة محمد ص ١٩١.

ان يشير إلى مصادره التي استقى منها نصوصه فيقول:

«إنّ سياسة النبي مع المكيين قد تغيرت كثيراً في المدينة تحت تأثير عوامل جديدة ولأسباب عديدة أوجدتها الظروف وأدّى إليها الاختيار، وحب النبي لوطنه الأصلي وأهله وذويه إلى غير ذلك من الانفعالات النفسية والعوامل السياسية التي ظهرت بعد موقعتي بدر وأحد وحصار المدينة، وكان من نتائجها أنّ النبي أخذ يلطف من سياسته نحو إخوانه المكيين، كما أنّ أصحاب السلطة في مكة رأوا، بعدما أصابهم في موقعة بدر، وبعدما لحق بتجارتهم من الخسائر، أن يتساهلوا في أمور كثيرة مع النبي على شروط تضمن بقاء الكعبة والحج وعكاظ على ما كانت عليه قبل الإسلام، وأن يشملهم بالعفو ويشركهم في عمله الجديد الذي أخذوا يتوقعون منه خيراً، وربما كان من شروطهم التفاهم».

وعندما تعرض إلى صلح الحديبية وما نتج عنه من شروط قال: «إنّ من جملة الشروط التي اتّفق عليها الطرفان في الحديبية ـ أو في زمان أو مكان آخرين ـ أن يكف النبي عن الطعن من الملأ المكي، وألاّ يحرض صعاليك العاصمة الحجازية وارقاءها عليه، وهذا على ما يظهر لي أحد أهم أسباب خلو السور المدنية ولاسيّما تلك التي نزلت في الدور الأخير من العبارات القارصة والطعن في سكان مكة»[1] وكان

---

(١) عماد الدين خليل: دراسة في السيرة ص ٢٣.

ارفنج هو الآخر قد ساح في خيال أبعده عن العقلانية عند تعرضه لصلح الحديبية فقال:

«يبدو انّ الرسول لم تكن لديه القوى الكافية لقتال المشركين في ذلك الحين، فتخلى عن المسألة الشكلية، ورضي أن يكتب في الوثيقة (محمد بن عبدالله) بدلاً من (محمد رسول الله) ولكن هذا أغضب بعض المسلمين[1] وكان يشير بذلك إلى ما روي عن الخليفة عمر بن الخطاب أنّه قال للرسول ﷺ[2]:

ألست رسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين. قال: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين. قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنيّة من ديننا. فقال الرسول ﷺ: أنا عبدالله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يضيعني.

إنّ من حقّنا أن نطالب بعض المستشرقين أن يذكروا المصادر التي اعتمدوها في دراسة السيرة النبوية، أو أي جانب من جوانبها، فالمستشرق الأمريكي ارفنج في دراسته «حياة محمد» ينساق مع خياله عند تعرضه لمؤامرة قريش على قتل النبي ﷺ ليلة الهجرة فيقول:

«هناك رواية أخرى محتملة الحدوث، تقول إنّ محمداً قفز من فوق حائط خلفي بالبيت، ويساعده خادم له على النزول بأن أحنى له

---

(١) ارفنج: حياة محمد ﷺ ١٩٥.

(٢) الطبري: التاريخ ٢/ ٦٣٤.

ظهره فاتخذه سلماً، واستطاع محمد النزول ومغادرة البيت»[1].

ولا شكّ أنّ هذا القول خيال هو أقرب إلى القصص البوليسية أو الأفلام ذات الطابع اللصوص أو فعاليات العصابات، ولم تكن هذه هفوة ارفنج الوحيدة، فإن لديه هفوات أخرى تخالف النصوص المعتمدة منها قوله:

«كان عمر الرسول ﷺ شهرين عندما توفى والده»[2] وهذا القول يناقض ما أجمعت عليه المصادر من أنّ وفاة عبدالله كانت قبل ولادة محمّد ﷺ.

ونختم حديثنا بذكر بعض المغالطات بشأن وفاة الرسول ﷺ فنجد كازانوفا في كتابه «محمد ونهاية العالم» يقول: «إنّ النبي ﷺ لما كان مؤمناً بأن العالم لن يستمر بعد وفاته، وأنّ الساعة ستقوم قبل موته أو بعده مباشرة لم يعين من يخلفه على المسلمين»[3].

ومن الحكايات الأسطورية التي ذهب إليها بعض المستشرقين أنّ النبي ﷺ أفرغ على جسده ماءاً لأنه أراد أن يعمد نفسه قبل وفاته، إلا أنّ الشيطان منعه من ذلك، ولم يقف بهم الخيال عند حد بل أخذهم بعيداً عن الواقع فقالوا إنّ جسد النبي ﷺ أكلته الخنازير ولهذا

---

(١) ارفنج: حياة محمد ﷺ ١١٨.

(٢) ارفنج: حياة محمد ﷺ ٣٣.

(٣) التهامي نقره: مناهج المستشرقين ١/ ٤٢.

السبب منع القرآن أكل لحم الخنازير[1] وعدّ لامنس الأحاديث النبوية كلها موضوعة، وقد تحامل على الرسول الكريم ﷺ تحاملاً شديداً في كتبه: «القرآن والسنة» و«هل كان محمد أميناً» و«عصر محمد وتاريخ السيرة» و«وفاطمة وبنات محمد» وغيرها[2]، وكان لامنس يتجاوز الأدلة كثيراً إذ أنّ طريقته العابثة في المعالجة ليست طريقة علمية، فهو يرفض هذا الرأي ويقبل الآخر حسب أفكاره الخاصة ومعتقداته، دون أن يعبأ بالموضوعية[3].

***

(١) السامرائي: الاستشراق ص ٦٨ نقلاً عن كتاب:
(Islam and The West. P. 103).

(٢) عبدالرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص ٣٤٨.

(٣) عماد الدين خليل: دراسة في السيرة ص ١٦ ـ ١٧.

مصادر البحث ومراجعه

إنّ خير ما أبتدىء به من المصادر «القرآن الكريم».

ادوارد سعيد:

١ ـ الاستشراق (المعرفة، السلطة، الإنشاء) نقلة إلى العربية كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية/ بيروت.

الأعظمي: محمد مصطفى.

٢ ـ المستشرق شاخت والسنة النبوية، بحث في كتاب (مناهج المستشرقين) مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤٠٥هـ/ ارفنج، واشنتجون.

٣ ـ حياة محمد، ترجمة الدكتور علي حسني الخربوطلي، دار المعارف/ القاهرة.

٤ ـ التعبير الفني في القرآن، دار الشروق/ بيروت ١٩٧٢م.

بروكلمان كارل:

٥ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين/ بيروت ١٩٦٠م.

توماس كارليل:

٦ ـ الأبطال، ترجمة محمد السباعي، دار الكتاب العربي.

التهامي نقره:

٧ ـ القرآن والمستشرقون، بحث في كتاب (مناهج المستشرقين).

جعفر شيخ الأرض:

٨ ـ منهج مونتغمري واط في دراسة نبوة محمد ﷺ، بحث في كتاب (مناهج المستشرقين).

جواد علي (الدكتور):

٩ ـ تاريخ العرب في الإسلام (السيرة النبوية) مطبعة الزعيم / بغداد ١٩٦١.

جولد زيهر: اجنتس:

١٠ ـ العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف موسى، وجماعته، القاهرة ١٩٦٤م.

الحكيم: حسن عيسى (الدكتور):

١١ ـ مع المستشرقين في دراساتهم للشيخ الطوسي، بحث في مجلة الرابطة النجفية، العدد الرابع، السنة الثالثة ١٩٧٧م.

دوزي، رينهارت:

١٢ ـ تاريخ مسلمي اسبانيا، ترجمة حسن حبشي، المؤسسة المصرية العامة، دار المعارف / القاهرة، ١٩٦٣م.

السامرائي، قاسم (الدكتور):

١٣ ـ الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، مطابع الفرزدق التجارية / الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

ابن سيد الناس:

فتح الدين أبو الفتح محمّد بن محمّد اليعمري الاندلسي (ت٧٣٤هـ).

١٤ ـ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار المعرفة / بيروت.

١٥ ـ تراث الإسلام، ترجمة الدكتور محمد زهير السمهوري، مطبعة اليقظة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

شكيب أرسلان:

١٦ ـ حاضر العالم الإسلامي.

الصغير: محمد حسين (الدكتور):

١٧ ـ تاريخ القرآن الكريم، الدار العالمية للدراسات والنشر / بيروت ١٩٨٣م.

١٨ ـ المستشرقون والدراسات القرآنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع / بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الطبري: أبو جعفر محمّد بن جرير (ت٣١٠هـ):

١٩ ـ تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف / مصر.

٢٠ ـ جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة / بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

عبدالرحمن بدوي (الدكتور):

٢١ ـ موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين/ بيروت.

العقيقي، نجيب:

٢٢ ـ المستشرقون، دار المعارف/ مصر ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥، الطبعة الثالثة.

العقّاد، (عباس محمود):

٢٣ ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، دار الهلال ١٩٦٥م.

٢٤ ـ عبقرية محمد، مطبعة دار التأليف / مصر.

عماد الدين خليل (الدكتور):

٢٥ ـ دراسة في السيرة، دار النفائس، الطبعة العاشرة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٢٦ ـ المستشرقون والسيرة النبوية، بحث في كتاب (مناهج المستشرقين).

محسن جمال الدين (الدكتور):

٢٧ ـ المستشرقون والأماكن المقدسة، شركة دار العروبة العالمية / بغداد، الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م.

محمد حسنين هيكل:

٢٨ ـ حياة محمد، مطبعة السنة المحمدية / القاهرة ١٩٦٣م، الطبعة الثامنة.

٢٩ ـ بحث جديد عن القرآن، شركة مطابع الطنطاوي/ القاهرة ١٩٦٦م.

محمد عبده (الإمام):

٣٠ ـ الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبده، تحقيق: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢م.

محمد كرد علي:

٣١ ـ الإسلام والحضارة العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٦٨م.

محمود إسماعيل (الدكتور):

٣٢ ـ البطل التاريخي بين كارليل وتوينبي، مجلة المؤرخ العربي، العدد السابع ١٩٧٨م.

وات، مونتغمري:

٣٣ ـ محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية/ بيروت.

***

الاستشراق..
ماضيه وحاضره

د. سعدون محمود الساموك

الاستشراق علم[1] يدرس لغات الشرق وتراثهم وحضارتهم ومجتمعاتهم وماضيهم وحاضرهم. فتدخل ضمن مفهوم الشرق أية منطقة شرقية، لكن (المصطلح) يعني ما له علاقة بالدراسات العربية أو اللغات التي تؤثر عليها العربية، كاللغات الفارسية أو التركية، ومنذ قد بدأت الدراسات تتسع وتستقل أصبح لكلّ منطقة من المناطق تسميتها، فبدأ البعض يدعو دراسة اللغة العربية وشؤون العرب بالدراسات العربية أو (الاستعراب) ويدعو المستشرقين المتخصصين بالعربية (المستعربين).

---

(١) يرفض ادوارد سعيد أن يدعو الاستشراق (علماً) لأنّه ـ في رأيه ـ يجهل موضوعه ويصوّر لنفسه حقائق غير موجودة. أُنظر نبيل بيهم، الاستشراق علم موضوعي أم سياسة مقنّعة: ص١٥١.

يرى الكثير أنّ جذور الاستشراق تمتدّ إلى عصر الصليبيين[1] فيكون الاستشراق نسبة إلى هذا المفهوم قد مرّ بمرحلتين:

المرحلة الأولى: وهي التي نقل المبشّرون الغربيون فيها علوم الكنيسة وفلسفة اليونان من حاضرة العرب (بغداد) وغيرها من البلدان العربية إلى روما، حيث كانت الكنيسة في احتضار فكري. وكان قد صعب عليها ترجمة اليونانية القديمة قبل ذلك فتولّى العرب تلك المهمّة. فكان قيامهم بترجمة آداب وفلسفات العالم وخاصّة اليونانية والرومانية والهندية والفارسية ومناقشتها والرد عليها هي أعظم ما قام به العرب إلى جانب نشرهم الإسلام وتأليفهم في علومه المختلفة. وكانت علوم الكنيسة هي الأُخرى من العلوم التي تناولها العرب بالترجمة والنقد والمناقشة.

ولا شكّ في أنّ بعض الفلاسفة المسلمين قد استفادوا من الفلسفة اليونانية ومزجوها بالفكر الإسلامي، فأخذت الفلسفة الإسلامية تحاكي الفلسفة اليونانية، ولكن لابدّ وأن نؤكّد بأنّ الفكر الإسلامي لم يكن بحاجة بذاته لهذه الفلسفة، فلقد انتشر الإسلام وآمن الناس به بدونها قبل معرفتها، ولا يعود لتلك الفلسفة أيّ فضل على الإسلام. فإن كان هنالك من فضل ففضل الإسلام على أمم الغرب، إذ بدون هذه الترجمات، لم يكن لدى الكنيسة في روما ـ كما ذكرنا ـ قدرة على

---

(١) د. عرفان عبدالحميد، المستشرقون في الإسلام: ص٤.

ترجمة آثارها اليونانية وخاصة في العصر الذي أطبق الجهل فيه على شعوب أوربا. فلقد وفد على (بغداد) وكذلك غيرها من الحواضر العربية والإسلامية عشرات من كتّاب الكنيسة لينهلوا في المعرفة التي انتشرت فيها، وأن يصلوا إلى المؤلفات اليونانية ومناقشات العرب والمسلمين عليها ليترجموها بعدئذٍ إلى لغاتهم وخاصة اللاتينية (لغة الكنيسة آنذاك) لتعتمدها في نشر أفكارها.

ويمكن اعتبار رحلاتهم العلمية تلك، أول موجة استشراقية بالمعنى الذي نقصده، فقد تعلّموا خلالها العربية ونقلوا علومها إلى شعوبهم، إلاّ أنهم نقلوا أفكاراً مشوّهة عن العرب والمسلمين، وصوّروا نبيّهم ودينهم أبشع تصوير، فقالوا عن الرسول ﷺ بأنّه كاردينال منشق على البابوية طمع في كرسيها فلما خابت آماله ادّعى النبوة، وصوّروه لصاً وقاتلاً وزير نساء وكافراً وساحراً ودجالاً وخائناً وفاجراً وشيطاناً وإرهابياً يشيع الموت وينشر الدمار وداعية إباحية، اتخذ من شيوعية المرأة وسيلة لهدم الكنيسة المسيحية وفضائل الأخلاق[1]، وصوّروا الإسلام مزيجاً مشوّهاً مستقى من أصول مسيحية ويهودية تلقّاها الرسول ﷺ من أساتذته أحبار اليهود ورهبان النصارى، ووصفوا الإسلام بالزندقة، أو فرقة منشقّة عن الكنيسة. وصوّروا القرآن الكريم بأنّه «كتاب يناقض بعضه بعضاً وغير منسجم

---

(١) المصدر السابق: ص٦.

في أفكاره وغير منتظم فيما يحويه، وكلّ ما فيه يخالف العقل[1]، أمّا المسلمون فهم وحوش وأبناء شياطين وأهل لواط وعبدة أصنام[2]. وكان القدّيس يوحنّا الدمشقي الذي عاش في العصر الأموي في دمشق قد كتب بعضاً من هذه النعوت، وجاء بعضها في الرسالة منتحلة نشرها مؤلف يدّعي أنّه كان مسلماً وارتدّ عن الإسلام وآمن بالمسيحية، اسمه عبدالمسيح بن إسحاق، أعاد المستشرقون نشرها في لندن في القرن التاسع عشر لتخدم أغراضهم في الطعن بالأمّة العربية وتراثها المقدس[3]، فساعدهم ذلك الدسّ والافتراء على تأجيج حقد الشعوب الغربية ضدّ العرب والمسلمين، إضافةً إلى استغلالهم أحداث أُخرى حصلت أيام السلاجقة في فلسطين لتقوم الكنيسة الغربية في دفع شعوبها للزحف نحو البلاد العربية والبدء في حروب صليبية دامت طويلاً كان لها هدفان:

الأول: القضاء على معالم الإسلام وإنهاء دوره الذي غطّى على دور الكنيسة الغربية آنذاك ـ وهو الهدف الظاهري لتلك الحملات ـ

الثاني: تأسيس مستعمرات في الأراضي العربية ينقل ملوك

---

(١) م.ن: ص٩ ـ ١٠.

(٢) م. ن.

(٣) أفاض الدكتور عرفان عبدالحميد في بحثه (المستشرقون والإسلام) وفصّل في أكاذيب المستشرقين وتجنّيهم على الأمة العربية وتراثها.

أوربا وأمراؤها مراكز حكمهم إليها، بعد أن اشتدّ الصراع بينهم وبين بابا روما على السلطة ـ وهو الهدف الرئيس لحملات الصليبيين ـ

ويذكر البعض بأنّ دراسات أُخرى للشرق، سبقت دراسات الصليبيين بزمنٍ طويل، فقد عثر على كتاب لمؤلف غربي مجهول اسمه (الطواف حول البحر الأرتيري) يعود ـ حسب رأي الدكتور جواد علي ـ إلى نهاية القرن الأول الميلادي[1]، وظهرت معلومات مفصلة عن الخليج العربي كتبها (فلافيوس أريان) اليوناني في مؤلفاته عن حملات الاسكندر الكبير، أو رحلات القائد (نيرخوس) قائد الاسكندر في الخليج العربي، كما وأنّ المؤرخ (سترابو) الذي رافق حملة (غاليوس) سنة ٢٥م والتي كان الغرض منها السيطرة على اليمن وطرق تجارتها قد تحدّث في مؤلف له عن مدن العرب وقبائلهم ووصف أحوالهم التجارية والاجتماعية والاقتصادية[2]، وليست محاولات البرتغاليين لاستعمار المنطقة العربية والسيطرة على التجارة في الخليج عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر فيما بعد بخافية على أحد، فقد سبقتها «حركة نشطة يطلق عليها اسم حركة الاستكشاف الجغرافية، وهي استكشافات عملية في ظاهرها من أجل الوصول إلى المناطق المسيطرة على طريق الهند التجاري ولكنها في واقعها وبما

---

(١) د. عبدالجبار ناجي، تطوّر الاستشراق في دراسة التراث القومي: ص١٣.

(٢) نفس المصدر السابق: ص ١١ ـ ١٢.

استطاع روادها من جمع معلومات جغرافية واجتماعية واقتصادية مفصلة عن المنطقة مهّدت السبيل وقدمت العون الكافي للقائد البرتغالي (البوكيرك) في أثناء توغّله العسكري في منطقة الخليج العربي وغزوه عدداً من المراكز فيها غزواً عسكرياً مضطهداً عرب المنطقة بوحشية، وكان هدفه في ذلك إضعاف هيئة العرب التجارية والاستحواذ على مصادر التجارة والثروة في الخليج العربي[1].

لقد ساهم أولئك الغربيون في التعريف بالمناطق العربية وسكانها قبل الحروب الصليبية وبعدها، مما ساعد كثيراً في التوجه نحو البلاد العربية وغزوها واضطهاد سكانها.

ويميل بعض المؤرخين إلى اعتبار ذلك جزءاً من حركة الاستشراق الغربية[2] أما آخرون فلا يعتبرونها حركة استشراق بالمعنى العلمي الذي اصطلح عليه[3].

وعلى أية حال فإن تلك المساهمات لا يمكن إغفالها حيث كانت البداية لحركة استشراقية أعمق وأغزر دخلت مرافق الحياة العربية والإسلامية، وكانت لها تأثيرات بالغة الأهمية سنأتي على ذكرها.

---

(١) كذلك ص/ ١٣ ـ ١٤.

(٢) د. عرفان عبدالحميد، المستشرقون والإسلام ص/ ٤.

(٣) د. عبدالجبار ناجي، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي ص/ ١٤.

أما الثانية: وهي المرحلة التي يتفق الجميع على أنها حركة (استشراق) بالمعنى العلمي الذي اصطلح عليه، والتي بدأت بشكل واضح في نهاية القرن السابع عشر، فلقد خدم فيها المستشرقون أغراضاً شتى منها:

١ ـ التبشير:

حيث نشطت الكنيسة في إرسال أعضائها إلى مناطق عديدة في أفريقيا وآسيا، وخاصة في المناطق العربية كشمال أفريقيا، وسوريا ولبنان وبعض مناطق الجزيرة، وكان عملهم ناجحاً في المجال الثقافي والاجتماعي والسياسي أكثر من المجال الديني، فالمسلمون لا يعطون إذناً صاغية للمبشرين، وبالتالي فقد أفلس رجال الكنيسة الغربية في تحويل المسلمين إلى مسيحيين، مما جعلهم ينقمون عليهم، وينقلون تراثهم إلى أوربا بصورة مشوهة لا تعكس الحقيقة، فنظر الأوربيون إلى العرب والمسلمين نظرات فيها حقد وازدراء بسبب ذلك.

وكان لوجود المبشرين في الأراضي العربية فرصة كبيرة لهم لتطوير إمكانياتهم اللغوية، حيث تمكنوا من دراسة العربية الأم، إضافة إلى اللهجات المحلية واشتغل المهتمون منهم بالتراث العربي فبرز الكثير منهم في المجال الاستشراقي.

فمن قدماء المبشرين المستشرق الانجليزي (هنري بريدو) الذي ألف كتاباً عن الرسول الكريم ﷺ وكان كاهناً في نورويج في بريطانيا

سنة ١٦٨١م، و(سيمون أوكلي) المستشرق الانجليزي، مؤلف كتاب تاريخ العرب بجزئين، قسيس سوانسي بكمبردج في انجلترا عام ١٧٢٠م، وجاجينز (المستشرق الفرنسي) الذي ألف كتاباً عن حياة الرسول ﷺ معتمداً على (المختصر في أخبار البشر) لأبي الفداء طبعة عام ١٧٣٣م. ومن المحدثين المبشر المستشرق جاك جوميبيه والأب لويس كارديه أستاذ اللاهوت والفلسفة في معهد تولوز بفرنسا. والأب لامانس والأب صاموئيل زويمر الأمريكي وغيرهم.

على أنّه لابدّ من التذكير بأن كثيراً من المبشرين الذين أفلسوا دينياً في المناطق العربية وخاصة المستشرقين منهم، قد قدموا خدمات جليلة إلى الغرب حيث نقلوا لهم وبدقة كلما درسوه في الشرق من صفات لأخلاق العرب والعوامل الاجتماعية التي تحيط بهم وحياتهم الاقتصادية والمؤثرات السياسية والثقافية وكل ما يمكن الاستعمار من الدخول فيه من الثغرات وبمعنى آخر كان المستشرقون من المبشرين عاملاً مهماً لدراسة الطبيعة التي يحتاج الاستعمار لمعرفتها عن الوطن العربي، هذا من جانب.

ومن جانب آخر فقد جلب المبشرون من المستشرقين أخلاق الغرب وثقافته وحضارته وكان التصاقهم بالشعب العربي أو بطوائف منه قد فتح الأذهان على الغرب مما جعل لوجودهم بين العرب أثر في تغلغل الثقافة الغربية وانتشارها وهي من العوامل المساعدة على دخول

الغرب كله إلينا بعدئذ. ويمكن أن نلخص دور أولئك المبشرين من المستشرقين في ثلاثة أمور:

الأوّل: إنّ دراساتهم قد كونت صورة مشوهة عن الإسلام في أوربا، كانت تستمد موادها الأولية من مصادر سبقهم إلى كتابتها (المستشرقون) الأوائل الذين ذكرناهم خلال وبعد الحروب الصليبية.

الثاني: إنّ تلك الدراسات قد كوّنت شكلاً منهجياً وإطاراً فكرياً في أوربا اعتبرها الجميع مسلمات وحقائق، رغم ما توصل إليه الكثيرون من نقائض لها في بحوثهم.

الثالث: تعتيم أجواء الاستشراق بحقد دفين على الإسلام والأمّة العربية بالذات، رغم ما تدعيه تلك الدوائر من التجرد والموضوعية والعلمية.

ولقد ضربنا أمثلة على الإساءة إلى تراثنا سواء إلى مقدسات أمتنا أو إلى عظمائها، وكذلك في قدرات الأمّة العربية على النهوض، فهم يأخذون من الأمور والصور شكلياتها دون أن يدرسوا الأسباب التي أدت إلى نتائجها.

فحين يتكلمون عن كثرة نساء النبي ﷺ فإنهم يصفون النبي زيراً للنساء وداعية للإباحية ـ كما ذكرنا ـ وذلك بإقراره تعدّد النساء، فيصفون ذلك التعدد شيوعية للمرأة اتخذها محمد ﷺ وسيلة لهدم

الكنيسة المسيحية وفضائل الأخلاق[1]. متناسين أنّ تعدد الزوجات كان موجوداً في القرن المسيحي الأول ومنعته الكنيسة في القرن الثاني. وكان أوغسطين مؤرخ الكنيسة يهاجم (ترتوليان) أحد أعمدة الكنيسة في القرن الأول لاتخاذه أحدى عشرة امرأة له.

ولم يقف حدود الهجوم على شخص النبي ﷺ بل تعداه إلى القرآن الكريم. فراحوا يصفونه بأنه مستقى من أصول مسيحية ويهودية تلقاها النبي ﷺ من أحبار اليهود أكثر من الرهبان، وإذا جاءوا إلى تفسير آياته فإنهم يترجمون الكلمات التي تحتمل معنى في لغاتهم إلى المعنى الذي يتفق وأهدافهم التبشيرية دون الرجوع إلى تفسير العلماء المسلمين للاستفادة من المعاني التي ذكروها[2].

وقد أشرنا فيما سبق إلى بعض الملاحظات التي أساء بها المستشرقون إلى أمّتنا العربية ووصفوها بالعجز. ففي محاضرة ألقاها الفيلسوف (رينان) في جامعة السوربون في ٢٩ آذار ١٨٨٢م، زعم أنّ الإسلام يقف ضد العلم والفلسفة وحرية التفكير، بل وأنه عرقل أي تقدم علمي أو فكري لأنّه ـ على حد زعمه ـ دين غيبة وخوارق، وقال رينان:

---

(١) د. عرفان عبدالحميد، المصدر السابق: ص ٦.

(٢) أفاض الدكتور محمد صادق البنداق في كتابه (المستشرقون وترجمة القرآن الكريم) في ذكر أمثلة على إساءة الترجمات لمعاني القرآن الكريم.

إنّ الإسلام دين جبري وإيمان استلامي وادعى ان الفلسفة الإسلامية مسخت الفلسفة اليونانية، وأنّ العرب لا يملكون عقلاً فلسفياً أما سبب ظهور البحث العلمي والفلسفة عند العرب أبان العصور الوسيطة فقد عزاه إلى الأجانب الذين دخلوا في الإسلام[1].

إنّ أفكار رينان تلك يلمسها المرء في كل المدارس الاستشراقية، فالمستشرقون يتغنون بفضل الرومان واليونان والكنيسة الغربية والفرس على الفكر العربي ويعزون إليهم تقدمه.

٢. الاستعمار:

وهنا لابدّ من التقرير بأن المستشرقين قديمهم وحديثهم خدم بشكل أو بآخر أغراض الاستعمار، فقد سبق أن أشرنا إلى ظهور مؤلف عن البحر الاريتيري منذ القرن الأول الميلادي، ثم أن هناك دراسات عن الواقع العربي في عصر الصليبيين شهدت ـ كما ذكرنا ـ حملات نابية شديدة على الإسلام والتراث العربي برمته.

وهناك دراسات اجتماعية وسياسية واستراتيجية صاحبت الحملات البرتغالية إلى الخليج العربي والبحر الأحمر، وعندما بدأت أوربا بالانتعاش الاقتصادي وصارت لها الأساطيل الحربية القومية، بدأ

---

(١) د. فيصل السامر (الفكر العربي في مواجهة الفكر الغربي) ص/ ١٠.

ملوكها بإرسال علمائهم إلى الأرض العربية لتدارس أوضاع سكانها وتراثهم، صاحب ذلك حملة قوية لتعلم العربية، حتى نادى رجال الكنيسة أنفسهم بفتح مراكز لتعليم العربية في جامعات أوربا المختلفة والتي بدأت بالتوسع.

وكانت الكنيسة هي الأخرى قد تطوعت لخدمة الاغراض الاستعمارية، وذلك بإرسال بعثاتها لتدارس الأوضاع في المشرق العربي ومغربه، والكتابة إلى الدوائر المعنية في بلدانها للاستفادة منها.

وبدأت البعثات الدبلوماسية تلعب دورها الاستشراقي، أيضاً فكثير من أعضائها وقناصلها كانوا من العاملين في حقل الاستشراق، وكتبوا عن العرب الشيء الكثير، فكان (بوكون) قنصلاً لفرنسا في حلب، و(كلرمون) قنصلاً لفرنسا في القدس والأستانة، و(بوتي) الذي كتب عن المدينة الإسلامية، قد عين من قبل الإدارة الفرنسية في المغرب الأقصى[1]، وهناك (كاتافاكو) قنصل فرنسا في دمشق الذي كتب شرحاً باللغة الفرنسية على تعاليم الطائفة النصيرية، وكان هناك آثاريون قد عملوا في الأراضي العربية وعينوا بمناصب دبلوماسية، فكشف (لوفتوس) مثلاً موقع نينوى، وعثر على بقايا قصر آشور، فانتخب بعدئذٍ عضواً في مجلس العموم البريطاني ثم وكيلاً لوزارة

---

(١) د. عبدالجبار ناجي. تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي ص/ ١٥.

الخارجية[1]، وكان الأب (جوسين)، والأب (جاك جومييه)، والأب (صموئيل زويمر)، والأب (كارديت) قادة الحملات التبشيرية ذات الطابع السياسي الذي كانت الدوائر الاستعمارية تزودهم بنفقات بحوثهم ومعيشتهم في الشرق العربي.

وهكذا فنحن نجد أنّ المستشرقين يخضعون بأعمالهم الاستشراقية إمّا إلى التبشير فيحاولون أن يعكسوا أفكارهم المشوهة عن الإسلام، فإذا ما توفر فيها بعض إخلاص فإنّ أدوات المستشرقين الفكرية تقتصر عن فهم طبيعة العرب والمسلمين، وإمّا أنّهم يتأثرون بوجهات النظر الاستعمارية فيخدمون عن طريق مباشر أو غير مباشر فيسيئون عن عمد إلى كل ما هو عربي وإسلامي[2].

لقد هدف الغرب أن يستعمر عقولنا قبل أن يغزو أرضنا، فقد كانت هناك ولا زالت «ثقافة غربية تتسلل إلى عقل إنساننا في هذه المنطقة بأساليب مباشرة وغير مباشرة لتوجيهه لصالح الغرب»[3]. وبهذا الطريق خدم المستشرق ذلك المستعمر وأراد أن يذل علومنا، لأنه أخضع كل علومنا إلى مقاييسه وصوره وأطره تحت اسم البحث العلمي الرصين، وطرق البحث الجديدة والنظرة العلمية المجردة، راغباً

---

(١) المصدر السابق: ص ٦.

(٢) أنور الجندي، التراث الإسلامي والمستشرقون: ص٦٠.

(٣) عبدالمالك التميمي، الاستعمار الثقافي في منطقة الخليج العربي: ص١٢٨.

أن يستعمر ماضينا كما استعمر حاضرنا (سابقاً)، لذلك فإنّ أعمالهم قد اتجهت لما يلي:

أولاً: بعد أن نجحوا في شدنا إلى الماضي، راحوا يشككون به ويزيفون بعضاً من حقائقه تزييفاً يرفضه أي مفكر، وقد برز بينهم من يكشف ذلك التزييف دفاعاً عنا، وبعضهم كان يقصد من دفاعه هذا تمرير أمور أهم وأقوى.

ثانياً: أن يغلّبوا أموراً ليست ذات قيمة تأريخية على حقائق ثابتة عن طريق تحقيق مخطوطات لم تنل عناية الماضي فجعلوا لها حاضراً، درسوا من خلالها الماضي، فنشرت دواوين وأشعاراً وفلسفات طائفية وآراء فقهية لم يلتفت ذلك الماضي الزاهر لها فجعلوا حولها أطراً لدراسات اجتماعية وسياسية، وأخرجوا من خلالها نظريات لتحليل الفرد العربي والمجتمع العربي قد لا تصل إلى مرتبة القبول، فجعلوا منها حقائق راحوا يبنون عليها، فأصبحت بمرور الأيام بديهيات يعتمدها الغربي في بحوثه وكأنها حقائق ثابتة، ونجحوا في جر الكثير من أبنائنا للأخذ بها كمقاييس لدراسة ذلك الماضي العظيم، كما وأنّ هناك «إلهاء لعامة الناس عن الأمور الجادة والمفيدة والأساسية في حياة المجتمع ومستقبله وطرح القضايا الجانبية على أنها أساسية والترويج لها»[1].

---

(١) عبدالمالك التميمي، الاستعمار الثقافي في منطقة الخليج العربي: ص١٢٧.

ثالثاً: وبعد أن أثبتوا عظمة الماضي، نسبوه إلى غيرنا ولعل هذا من أخطر ما يشددون عليه، فالفرس والهنود والرومان واليونان كانوا ـ في رأيهم ـ أصحاب فضل على ذلك الماضي، فبدون حضاراتهم لم تكن لنا حضارة عظيمة أو مجد تليد، وهذا ما كانت الشعوبية ترمي إليه فيما مضى، والغرب قد تبنى هذا الأمر من بعدها فكتب فيه النظريات الكثيرة وكثير من علمائنا يتغنى بتلك النظريات، فيقول بأن «العرب تمكنوا أن يهضموا العناصر الغربية التي اختاروها عن حضارة اليونان والرومان ويتمثلوها ويدخلوها في نسيج حضارتهم الزاهي الألوان المتناغم الألحان، بحيث وفقوا بين العقيدة الإسلامية وهذه العناصر الغريبة توفيقاً مدهشاً دللت عليه حيوية الحضارة العربية الإسلامية طوال العصور الوسيطة الأولى»[1].

وهذا الكلام أضعف بطبيعة الحال من أن يقال عن الحضارة العربية الإسلامية أنها مسروقة ومستقاة من الحضارات الأخرى، كما يردّد ذلك الكثير من المستشرقين ذوي الاتجاهات الدينية والسياسية المعروفة.

وسواء أكان ترديد الكلام بصيغته الأولى بحسن النية أو بصيغته القاسية الثانية، فإن ذلك الكلام يسيء إلى الحضارة العربية والتراث

---

(١) الفكر العربي في مواجهة الفكر الغربي ص/ ٨.

العربي الإسلامي لأن الفكر الإسلامي قد تشكل أساساً قبل الاتصال بالفكر اليوناني أو الفارسي أو الهندي»[1]، فما جاء به العرب كان مميزاً، وبقيت سمات تفصل ما بين حضارة العرب وحضارة الفرس، أو ما بين حضارة العرب وحضارة الروم واليونان، فإن كانت هناك تأثيرات متبادلة فذلك أمر طبيعي حيث أنّ الحضارة هي ثمرة الجهد الإنساني، لكن غلبة الحضارة العربية وانتشار الفكر الإسلامي جعل الفكر الشعوبي يتأرجح حقداً عليها منذ الأيام الأولى للحركة الإسلامية. فهل هنالك مثلاً شك في أسبقية العرب بترجمة كتب اليونان وإعطائها إلى الأوربيين لهضمها بعد أن عجزوا عن ترجمتها والانتفاع بها[2]؟، وهل تأثر محمد ﷺ بأحد حين أسس دولته في المدينة وجعل لها دستوراً يعتبر أول دستور في التاريخ؟

ألم يكن هنالك شعراء وأدباء في الجاهلية؟ وهل احتفظت أية حضارة بعشر أبنائها كما حفظها العرب إلى اليوم الحاضر؟ وآلاف الكتب والمؤلفات منذ العصر الإسلامي الأول، وحتى نهاية العصر العباسي الأول، ألا تثبت أصالة الحضارة العربية والإسلامية؟

---

(١) أنور الجندي، التراث الإسلامي والمستشرقون: ص٦٠.

(٢) قام المستشرق الانجليزي (أدورد أوف باث) بترجمة أعمال الفلاسفة اليونانيين من العربية إلى اللاتينية في العصور الوسطى. انظر لسلي مكلوفن، الدراسات العربية في الجامعات البريطانية: ص٩.

قد يرى البعض تداخل الفلسفة اليونانية مع الفكر الإسلامي، ويعبر عنها بتأثير الفكر اليوناني على الإسلام، فالسؤال هنا: ألم يكن هنالك فكر إسلامي قبل دخول الفكر اليوناني؟ ثم ما قيمة الجبر والقدر، وأية فلسفة أخرى دون الأصل، سواء تداخل الأصل مع هذه الفلسفات أم لم يتداخل؟

إنّ زوال أثر تلك الفلسفات وبقاء الأصل، لرد كاف على من يردد بأن العرب نهلوا وهضموا الغريب والجيد من الحضارات العالمية وأدخلوها في حضارتهم، فميزات كل حضارة واضحة، وترديد ذلك ضرب من العبث أو تطاول على الحقيقة.

وحين نتحدث عن حضارة العرب (المميزة) نحتاج بطبيعة الحال إلى بضعة أمثلة تؤكد أصالتها... أفلم يكن العرب قد أوجدوا منطق (الاستقراء) وهو غير منطق أرسطو القياسي. فالعرب ـ إلى جانب اهتمامهم بالبحوث الفلسفية والدينية ـ قد اهتموا بالعلوم التي تستند إلى مناهج الاستقراء، فاستخدموا في دراستها الملاحظة، ومارسوا التجريب واستعملوا الآلات التي صنعوها يومذاك وعنهم أخذتها أوربا في عصر النهضة[1].

كان الحسين بن الهيثم (ت سنة ٤٣٠هـ) يلاحظ الظواهر الحسية الجزئية ويعمد إلى التجريب الذي يدعونه (الاعتبار) فيصل

---

(١) أنظر: د. فيصل السامر، الفكر العربي في مواجهة الفكر الغربي: ص١٤.

عن هذا الطريق إلى الحقائق ويصوغ القوانين العامة نتيجة مزاولته التجربة في دراسته ويكون ابن الهيثم قد سبق الفيلسوف الانجليزي (فرنسيس بيكون) بستة قرون في توصيته بضرورة اتباع منهج (الاستقراء) وتنوع التجارب وتكرارها لتحاشي الوقوع في الخطأ[1].

ويقول المستشرق الإيطالي نالينو بهذا المعنى: «ولقد نقلت العلوم العربية شيئاً آخر إلى أوربا. شيئاً كانت تفتقر إليه عبقرية اليونان إلى حد ما. لقد لقنت العلوم العربية درساً هاماً، وهو أنّ الدراسات الفيزياوية والتجريبية تتطلب مثابرة مستمرة وصبراً في المشاهدات والملاحظات (النتائج العلمية) قبل الانتهاء إلى نظريات عامّة، وبينت العلوم العربية في مجال الفلك والفيزياء وفي فروع الكيمياء والتنجيم أيضاً كيف تقوم أسس المنهج الوضعي للدراسات. ذلك المنهج الذي بلغ جاليلو وبيكون المجد في العصر الحديث»[2].

كما وإنّ كثيراً من المقالات الأصلية لجابر بن حيان في الكيمياء قد نقلت إلى الغرب، واعتبر (بيرتلو) في كتابه «الكيمياء في العصور الوسيطة» أنّ جابر بن حيان أعظم كيماوي في تلك العصور.

واستفاد ديكارت من أسلوب الشك العلمي من أجل الوصول إلى الحقيقة للغزالي: فقد قارن الكاتب الفرنسي (شارل سومان) بين

---

(١) المصدر السابق: ص١٥.

(٢) د. سوزان اسكندر، مع المستشرقين الإيطاليين: ص٨٨.

نبذ من مؤلفي ديكارت (رسالة الأسلوب) و(التأملات في الفلسفة الأولى) وبين مقاطع من كتاب الغزالي (المنقذ من الضلال) وتوصل من هذه المقارنة إلى أنّ ديكارت قد اطّلع على كتب الغزالي وعنه أخذ أسلوب الشك العلمي من أجل الوصول إلى الحقيقة»[1].

أمّا ابن خلدون فلا زال علماء الاجتماع في العالم يشيدون بآرائه ويعتبرونه عالم الاجتماع الأول. فقد قال عنه المستشرق استيفانو كلوزيو: «أليس ابن خلدون باستنباطه على أنّ تقدم الزمن لمرافق الحياة ولشروط المعاش ومقوماته فعل كبير في نشأة الطباع واكتساب الملكات الجديدة دالاً على بعد نظره ونفاذ بصيرته؟ وما هذه الحقيقة إلا مبدأ أساسي في علم الاجتماع يعود الفخر في تقريره إلى المؤلف المسلم قبل الفلاسفة الوضعيين وعلماء النفس العصريين بقرون متطاولة»[2] أما الشريعة الإسلامية فقد اعتبرها الكثيرون مصدراً من مصادر القانون العصري في المعاملات. وفي مجال العلم والعلماء، فهل كان في دول الحضارات آنذاك عدد يحصى أكثر من العلماء العرب، فقد أصبح عدد الأطباء في القرن الرابع الهجري كما أحصاه (لكير) في كتابه (تاريخ الطب العربي) أكثر بكثير من الأطباء الذميين[3] عدا الأدباء

---

(١) د. فيصل السامر، الفكر العربي في مواجهة الفكر الغربي ص/ ١٥.

(٢) المصدر السابق ص/ ١٥ ـ ١٦.

(٣) كذلك ص ١٦.

والشعراء والمؤلفين والمترجمين وعلماء الدين، وغيرهم ممن أشبعتنا الكتب العربية والعالمية ذكراً لهم ولمنجزاتهم العلمية.

وبعد... فهل يجوز القول بأن الحضارة العربية، هي وليد اختلاط الحضارات العالمية المحيطة بها آنذاك؟

لقد سلّط المستشرقون أضواء كثيرة على هذا المفهوم، حتى أنّ ذلك أصبح من الأمور البديهية عند الغربي، والأنكى من ذلك أنّها قد أصبحت (بديهية) عند المتأثرين بالمستشرقين من علمائنا وكتابنا، فلقد دأب الاستشراق منذ نشأته على سلب حقنا في تصوير حضارتنا، فرسم لنا صورة مشوهة عنها تبدو في مظهرها رائعة، لكن التعمق بها يظهر لنا زيفاً كبيراً، فلقد أريد للاستشراق أن يكون أسلوب مخاطبة للإنسان العربي «يحكي ما يجب أن يقال عن الشرق في المجتمعات الغربية، ويساعد في إكساب تقييم المستعمرين للشرق مقام الحقيقة»[1]، ولكن ذلك الأسلوب قد بات أسلوباً لبعض باحثينا ليشاركوا في تزييف حقيقة تراثنا سواء عن قصد أو دون قصد.

إنّ المستشرقين قد اتخذوا من ماضينا أداة لتشويه حاضرنا، فزيفوا ذلك الماضي كما زيفوا الحاضر، حين عكسوا للمجتمع الغربي أموراً ليست هي من صلب حقيقتنا، وكانت الدوافع كما ذكرنا مرة

---

(١) نبيل بيهم «مقتطف عن ادوارد سعيد «الاستشراق»، الاستشراق علم موضوعي أم سياسة مقنعة ص/ ١٥٧.

دينية، وأخرى سياسية وثالثة هي «الجهل» فالغربي لا يمكن أن يفهم الشرقي فهماً كافياً من خلال بضعة كتب تحقق أو تترجم، وان التعرف الذي يدعيه الغربي لحقيقة الشرق، إن هي «إلا ضرب من المثالية اللاواقعية؛ إذ أنّ الشرق لا وجود له ضمن الأطر التي وضعها المستشرق له، لأن في الشرق مجتمعات ذات بنيات مختلفة متعددة من المتعذر على الغربي أن يحصرها في إطار معين واحد، والمستشرق من خلال هذا المفهوم يخدم الغرب في أمرين:

الأول: أن يسلب الشرقي حق التعبير عن نفسه والتكلم بالنيابة عنه بالإدعاء بأنّه يملك الأداة التي يبحث بها علمياً في تراثنا ونفتقر لها.

الثاني: أن يجعل الشرقي يتحدث بالطريقة وبالصورة التي رسمها له ووضعه ضمن إطارها[1].

فالمستشرق يقول بأنه: «من المفيد دائماً أن ينظر المرء ثانية إلى حضارته أو لغته من خلال نظرات الآخرين إليها، إذ أنه من الممكن أن ينجم عن هذا الاتصال وهذا الحوار تفهم أفضل، وتعمق في المعلومات»[2].

فنظرتنا إلى تراثنا وفهمها لها لا تكفي إذن في رأي المستشرق.

---

(١) المصدر السابق ص ١٥١/ ١٥٢.

(٢) الأب ميشال الار الاستشراق الفرنسي المعاصر ص/ ٦١.

أي لابدّ وأن نعتمد على نظرتهم هم وتحليلهم هم. فهل شاركونا في تحليل تراثهم؟ هل أخذوا رأينا فيه؟ أم أنهم يريدون ان يقنعونا بأننا دون مستوى فهم تراثنا لذلك يمدون إلينا أفكارهم لنفهم أنفسنا وحضارتنا وتراثنا من خلالهم؟

إنّ للاستشراق قديمه وحديثه بنية واحدة لا تختلف، وهي بنية علاقات السيطرة والهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية للغرب على الشرق فالاستشراق ليس نتيجة للامبريالية وإنما هو جزء لا يتجزأ منها[1].

بقي أن نذكر أنّ البعض سيعترض على اتهام المستشرقين جميعهم بالانحياز ضدنا. حيث ان البعض منهم قد أثبت تفانياً في خدمة التراث العربي وان شباباً منهم يمد يده إلينا، يتعاون معنا ويفيدنا في كثير من المواقف العلمية والسياسية. أما ردنا على هذا الاعتراض فيمكن أن نجمله في أنّ ذلك الاتهام يكمن في الآراء التي كونوها عن الأمّة العربية ـ كما أسلفنا ـ والتي اتخذها جميع المستشرقين، قديمهم وحديثهم مسلمات بديهية بنى عليها استشراقهم وكيانهم العلمي.

إنّ الاستفادة من المستشرقين وطلاب الاستشراق يمكن أن يتم عبر التعاون معهم، إلا أنه يجب ألا نعتقد بأنّ دور المستشرق سيكون

---

(١) نبيل بيهم، الاستشراق علم موضوعي أم سياسة مقنعة ص/ ١٥٢.

كدور السفير العربي في بلده، لأنّ المستشرق ـ حتى وإن مد يده إلينا ـ إنسان يمت إلى عالمين مختلفين عنا تماماً، فالأول هو عالم (الكنيسة الغربية) وقد يكون يهودياً. أما الثاني فهو عالم (الغرب) نفسه، فإن كانت عند بعضهم بعض المناقب العلمية، فإن لمعظمهم مثالب منكرة تعكس عالميهما اللذين لن يتوافقا معنا على أية حال، إضافة إلى أنّ مصلحة بلد المستشرق تتقدم على أية مصلحة علمية تمت إلى علم الاستشراق لكن ذلك لا يمنع أن تمتد الأيادي إليهم وإلى جيل الشباب الذين لا زالوا في طريقهم العلمي للتعاون معهم، لكن لابدّ من الحذر من الأنماط والأساليب الاستعمارية وخاصة الثقافية منها وخصوصاً من خلال الدعوات لحوار للتفاعل الثقافي والحضاري بين الشرق والغرب، حيث لا يقف الاستعمار وحده وراء مثل هذه الدعوات وإنما تقوم منظمات صهيونية بتمويله والتشجيع على إقامتها[1].

فنحن إذن إزاء تحول الاستشراق إلى ميدان العلوم الإنسانية نحس بأنّ الخطر أصبح أشدّ قوّة وعمقاً، وأنّ الاستشراق يغيّر جلده ليدخل في مرحلة جديدة أكثر خطراً[2].

***

(١) نبيل بيهم، الاستشراق علم موضوعي أم سياسة مقنعة. ص/ ١٦٠.

(٢) أنور الجندي، التراث الإسلامي والمستشرقون ص/ ٦٧.

(المراجع)

١ ـ نبيل بيهم، الاستشراق علم موضوعي أم سياسة مقنعة؟ مجلة الطريق. العدد الخامس. بيروت. ت ١/ ١٩٨١.

٢ ـ د. عرفان عبدالحميد، المستشرقون والإسلام. بغداد ١٩٦٩.

٣ ـ د. عبدالجبار ناجي، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي. بغداد/ ١٩٨١.

٤ ـ د. محمد صادق البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم بيروت/ ١٩٨٠.

٥ ـ د. فيصل السامر، الفكر العربي في مواجهة الفكر الغربي. بغداد/ ١٩٧٢.

٦ ـ أنور الجندي، التراث الإسلامي والمستشرقون. مجلة الهلال: العدد الأول. السنة الرابعة والثمانون. القاهرة. يناير ١٩٧٦.

٧ ـ د. عبدالملك التميمي، الاستعمار الثقافي في منطقة الخليج العربي مجلة الباحث. العدد/ ١٣. بيروت ـ أيلول ـ تشرين الأول ١٩٨٠.

٨ ـ لسلي مكلوخن، الدراسات العربية في الجامعات البريطانية ـ محاضرة القيت ضمن (الدراسات العربية والإسلامية في بعض البلاد الأوربية) بيروت/ ١٩٧٣.

٩ـ د. سوزان اسكندر، مع المستشرقين الإيطاليين. مجلة الهلال. العدد الأول. السنة الرابعة والثمانون. القاهرة، يناير / ١٩٧٦م.

١٠ ـ ميشال آلار، الاستشراق الفرنسي المعاصر، محاضرة ألقيت ضمن (الدراسات العربية والإسلامية في بعض البلاد الأوربية) بيروت، ١٩٧٣.

***

الاستشراق.. أهدافه وآثاره

د. عبدالقاهر العاني

من العسير حقّاً على أيّ باحث أن يفصل العمل الاستشراقي عن الهدف الديني التبشيري في جملة دراسة المستشرقين عن الإسلام، وإذا كان بعضهم يجهر بهذا الهدف بشكلٍ واضحٍ في كلّ مناسبة تقتضي ذلك، فإنّ فئةً أُخرى منهم تجنح إلى أُسلوب الدسّ الخفي وإخفاء الحقائق وإبراز الشبهات وبتر النصوص وإثارة الشكوك في كلّ ما يتعلّق بالدراسات عن الإسلام (عقيدته وأحكامه وتاريخه ورجاله).

وإنّ دراسة المستشرقين للإسلام قامت من أوّل الأمر بوحي من الكنيسة الكاثوليكية خاصّة للانتقاص من تعاليم الإسلام وإهدار قيم تعاليمه حرصاً على مذهب الكثلكة من جانب، وتعويضاً عن الهزائم الصليبية في تحرير بيت المقدس من جانبٍ آخر. ولقد كان التبشير والاستشراق الطلائع الاستعمارية لغزو المسلمين والسيطرة على بلادهم...

أهداف التبشير:

إنّ لنتيجة إرساليات التبشير في البلاد الإسلامية مزيتين:

أ ـ مزية تشييد.

ب ـ مزية هدم (أو مزيتي التحليل والتركيب).

لقد عمل التبشير على محاربة الإسلام ودعوته والقضاء على الحركات الإسلامية، باعتباره ـ أي التبشير ـ أداةً من أدوات الاستعمار، فهو يعمل على إظهار الغرب المسيحي بمظهر المحبّة والسلام والعلم والنور واتّهام الإسلام وتأريخه بأنّه تاريخ العداوة والظلام والجهل، وهذا هو ما هدف إليه الاستشراق في شتّى مراحله، عمل التبشير والاستشراق بكلّ جدّ في القضاء على وحدة المسلمين، ولهذا نجدهما يشيدان إسهاب الخصومات ويشيدان النظريات العنصرية والطائفية في الشرق الإسلامي، ويحييان اللغات الميتة للأقوام البائدة؛ لتنشأ في العالم الإسلامي طوائف متناحرة متخاصمة؛ ليصفو له الجو ويهيمن على العالم الإسلامي هيمنةً لا يستطيع أيّ بلد إسلامي أن يدفع عن نفسه غائلة الاستعمار وقيوده إلاّ بعد جهاد طويل. وإنّ أكبر دليلٍ على ما ذكروه انّ الدول الأجنبية الاستعمارية كانت وما تزال ترتبط بها مراكز التبشير وتأتمر بأمرها، وتنسّق بين الدوائر الدبلوماسية الغربية وبين المنظمات والمؤسسات التبشيرية في تلك البلدان، لقد عُرف المستشرقون والمبشرون بالعمالة للاستعمار، وهم الذين يعملون

جنباً إلى جنب في تحقيق أهداف الاستعمار من التشكيك بالإسلام وفكره، وغرس الفكر الغربي في النفوس.

السياسة التوجيهية العامّة للتبشير:

إنّ مجال نشاط المبشرين والمستشرقين يبلغ المدى البعيد بين صفوف رجال التوجيه في بلدان الشرق، ولهم في ذلك وسائلهم الخاصة في تفريق شمل المسلمين وإضعاف شوكتهم والعمل على الغض من اللغة العربية، وأهمّ وسائلهم تتمّ بصورتين:

أ ـ استخدام تلاميذ المستشرقين والمبشّرين (عملاء الاستعمار) من الوطنيين الذين درسوا بجامعاتهم وتشرّبوا بمبادئهم وهؤلاء ـ وقد أصبحوا قادة الفكر والسياسة في الشرق ـ إنّما ينفّذون سياسة المستعمر بقصد أو بغير قصد منهم، وبإيحاء من توجّهات المستشرقين والمبشّرين.

ب ـ كتابة بعض الغربيين مؤلفات عن الثقافة الإسلامية، وعمل موازنات بينها وبين الثقافة الغربية (النصرانية)، ثمّ العمل على تشويه الحقائق، وذلك بإبراز الخلافات المذهبية، وتأكيد الفجوات والثغرات بين الطوائف والشعوب الإسلامية من جهة الشعوبية، أو الجغرافية أو نظام الحكم.

شكى المبشّرون في عددٍ من المؤتمرات التبشيرية من إخفاقهم في

تحويل المسلمين إلى النصرانية وقالوا: إنّه لا يستجيب أحدٌ من المسلمين للتبشير إلاّ أحد اثنين: طفل مخطوف من أهله وهو صغير فيربّى على النصرانية وهو جاهل بأصل عقيدته. أو رجلٌ معدَم لا يجد سبيلاً للعيش إلاّ الدخول في النصرانية ليحصل على لقمة الخبز ويظلّ من المشكوك فيه أنّه غيّر عقيدته حقيقةً.

فلمّا بدا واضحاً أنّ الغربيين الحاقدين ـ من مبشّرين ومستشرقين وغيرهم، أدركوا إخفاقهم في تحويل المسلمين إلى نصارى ـ لجأوا إلى خطتهم الرامية إلى تشويه المفاهيم الإسلامية بكلّ وسيلة وركّزوا اهتمامهم على تلوين المسلمين بالنصرانية والمفاهيم الغربية والمادّية تلويناً يبعدهم عن عقيدتهم الإسلامية، ثمّ يدنيهم فكراً وخلقاً وولاءً وشعوراً من الغربة[1].

بعض ما قالوه عن الإسلام[2]:

«إنّ الإسلام هو الذي وضعه محمّد، تأثّر فيه بالتعاليم الدينية السابقة عليه كتعاليم اليهودية والمسيحية، وهو حين اقتبس من تعاليم

---

(١) التبشير: أحمد خليل، مصر، وانظر التبشير والاستعمار في البلاد العربية، عمر فروخ والخالدي.

(٢) عبدالجليل شلبي، الحضارة الإسلامية: ص٤٨، وانظر مناهج المستشرقين: ج٢، د: مصطفى الشكعة: ٣٠٩ ـ ٢٧٧.

هاتين الديانتين حرف ما اقتبسه نتيجة لتأثّره بعوامل شخصية وبشرية، ولذا نجده مثلاً ينكر ألوهية المسيحية، والإسلام بعد ذلك دين فردي شخصي لا يصحّ أن يتدخّل في حياة الأفراد وعلاقاتهم، ولذا يجب فصله عن المجتمع والدولة، والإسلام نفسه يخضع لعوامل الزمن والتطوّر الاجتماعي، فلابدّ من تطويره تبعاً لتطوّرها، فهو موقوت (بمبادئه وأحكامه) بهذا التطوّر».

فهذا (كولد تسيهر) يقول: «إنّ الإسلام يكره التجديد وكلّ بدعة في نظر الجماعة الإسلامية هي موضع للشكّ أو الشبهة وظهورها مدعاة للأسى؛ إذ أنّها تهدر وحدة الجماعة وتؤدّي إلى انهيار الشريعة» ويقول أيضاً: «وما من أحد كان يرغب في إسراع الخطى خشية أن يتهم بالزيغ والمروق...»، «الإسلام مزيج مشوّه مستقى من أُصول المسيحية واليهودية تلقّاها الرسول عن أساتذته أحبار اليهود ورهبان النصارى وقسسهم وصوّر الإسلام أيضاً في صورة زندقة ـ بل ومنبع الزندقات ـ والإسلام ـ على رأي بعض ـ فرقة منشقّة عن الكنيسة»[1]. «إنّ الإسلام لم ينتشر إلاّ بحدّ السيف».

يقول تايلور: «الإسلام يهودية مهذبة» وقال جيوم: «إنّ محمّداً كان تلميذاً مبتدئاً في دراسة التلمود ولم يستطع فهمه جيداً»، وقيل: «ليس في الإسلام ما يسمّى بالتصوّف» ويقول كولد تسيهر في معرض

---

(١) المستشرقون والإسلام، د. عرفان: ص٩ ـ ١٠.

آخر: «كان العرب في هذا العهد من تاريخهم لا يبالون بنشر الإسلام بين رعاياهم بل كادوا يقاومون حركة هذا التحوّل إلى الدين الجديد، ومع ذلك فإنّهم تحت تأثير الثقافة الإسلامية بدأت أفكارهم تتّجه نحو الفتح الرومي، وأخذ الإسلام ينتشر بخطوات حثيثة إلى الحدّ الذي أثار قلق الخلفاء فعملوا على تبطئ هذا التحوّل إلى الإسلام خشية أن يؤدّي ذلك إلى إغراق العربي المخلص في هذا الخضمّ من الشعوب الأعجمية ليس في الإسلام نظم وقوانين منظّمة وجيدة ولذلك فإنّ المسلمين انتحلوا من البلاد التي فتحوها نظماً قضائية وإدارية، وإنّ هذه النظم مستمدّة من نظم شتّى هي القانون الروماني والفارسي والتلمود وقانون (الكنائس الشرقية).

إنّ الإسلام لا يساير التقدّم العلمي والتكنولوجي وبعيد عن التطوّر والتجديد فهو رجعي، وهذا أحد أركان النهضة الأوربية يقول عن الإسلام: (إنّ الإسلام مزيج مشوّه مستقى من مصادر مسيحية... وإنّ الإسلام انتشر بحدّ السيف وشيوعية المرأة) (وإنّ الإسلام يشجّع الخرافيات والسحر وما تأريخه وعقائده إلاّ مواد أسطورية مصطنعة). هذا غيض من فيض ممّا قيل عن الإسلام.

السيف والإسلام:

لم يجد المستشرقون ما يقولونه حول المعجزة الربانية في انتشار

الإسلام في فترة وجيزة لم يشهدها ولن يشهدها تاريخ البشرية إلاّ أن يقولوا (إنّ الإسلام انتشر بالسيف) ويكفي تكذيب هؤلاء تعريف الإسلام نفسه شرعاً. إذ أنّه: (الانقياد والخضوع لأوامر الله واجتناب نواهيه عن رضى واختيار) فشرط الإسلام الذي لا يصحّ إلاّ به (الرضى) فكيف يجتمع (إكراه) مع (الرضى) ومع هذا فإنّنا نورد إضافة إلى ما قدّمناه ما يفنّد مزاعمهم بأدلّة من القرآن والسنّة والتاريخ:

من القرآن الكريم نختار الآيات التالية:

﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لاَ انْفِصامَ لَها وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: رادّاً على مذهب أهل الكفر في إكراه الناس على كفرهم ووصفهم على لسان نوح عليه السلام: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

﴿قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾.

و﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾.

و﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾.

﴿وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾.

و﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾.

وقوله تعالى مبيّناً همّة الرسول ﷺ في تبليغ دعوة الله تعالى وعدم إكراه الناس عليها: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾.

و ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

ومن السنّة النبوية نختار ما يلي: «إنّما أنا رحمة مهداة» والرحمة والهداية ليس من لوازمها الإكراه والعنت، وإنّما الرضا والخير والبركة، وقوله ﷺ: «من آذى ذمّياً فأنا خصمه يوم القيامة» وجادل رسول الله ﷺ أهل الكتاب وباهلهم بعد الحجّة، فقال تعالى حاكياً حال رسول الله ﷺ حين باهل أهل الكتاب من النصارى ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ﴾، وقال تعالى حاكياً حاله وهو يجادل أهل الكتاب في عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ﴾.

ومن كتب التاريخ نأخذ هذه المقتطفات، فقد أوردت كتب الاحتساب أحكاماً تخصّهم، وإنّ النصّ التالي يرد على من ادّعى انتشار الإسلام بالسيف والإكراه. قال صاحب كتاب (معالم القربة في أحكام الحسبة) في معرض كتابته عن الحسبة على أهل الذمة: (وإن أسلم منهم صبي مميّز أتى بالشهادتين لم يصحّ إسلامه للخبر المشهور؛ لأنّه غير مكلّف، فلا يصحّ إسلامه كالمجنون، فعلى هذا يحال بينه وبينهم فإن بلغ ووصف الكفر هدّد وضرب، فإن أصرّ على الكفر ردّ إلى أهله وقيل يصحّ إسلامه في الظاهر دون الباطن، فعلى هذا لو بلغ ووصف الإسلام حكم بإسلامه من حين أتى بالشهادتين، وإن وصف الكفر ولم يصف الإسلام لم يحكم بإسلامه؛ لأنّه لا يوثق منه بما كان

منه في الصغر إلاّ بما ينضاف إليه البلوغ)، فالمتأمل لهذا النص على الرأيين يدرك كذب دعواهم بإكراه الناس على الإسلام، فإن كان إسلام صبي من اليهود والنصارى وهو مميّز لا يقبل إلاّ بعد تمحيص رضاه بعد تعقّله وفهمه للإسلام، وإلاّ ردّ إلى أهل دينه.

التصوّف والإسلام:

يذهب كثير من المستشرقين إلى أنّ كلّ ما يعتبر عالمياً أو عند الغرب من الأُمور الحسنة المرغوبة والتي تعتبر قضايا تمجّدها عقولهم وتهفو إليها نفوسهم، ينسب إلى الغرب في فكره المسيحي الماضي أو فكره الحضاري الحالي ويستبعدون كونه إسلامياً، حتّى ولو اشتهر به ونسبه الناس إليه، سواء كان ذلك الأمر مما هو فعلياً من مصادر الفكر أو كان غير ذلك، ومن الأُمور فكرة التصوّف، فحين ظهر في الغرب تيّار عارم يبحث عن الروح ويريد معرفة كنه الزهد والتصوّف وما شاكلها وصار أكثر الذين أسلموا يميلون إلى كتب الزهد والتصوّف من أمثال كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي وغيره..

بدأ المستشرقون يكتبون عن هذا المسلك بطريقة يراد بها نفي الصوفية عن الإسلام مطلقاً صحيحة أو منحرفة، فصاروا يقولون بأنّ الصوفية والزهد ليسا من الإسلام، وإنّما هما مأخوذان من رهبانية النصارى ومسالك الهندوس ومذاهب اليونان، ولعلّ التوجّه نحو هذا

المسلك الزهدي والتعمّق فيه من قبل الغرب بدأ في أوائل القرن التاسع عشر، فلم يرق اهتمام المستشرقين بالتصوّف الإسلامي إلى ما هو أبعد من القرن، وكانت أولى نظراتهم فيه أو أوّل أهدافهم من بحوثهم حول هذا الموضوع هي محاولة إثبات ارتباطه بغيره من التصوّف في الأديان الأُخرى السابقة على الإسلام كالمسيحية والمجوسية والمانوية أو البوذية أو المذاهب الهندية القديمة والتدليل على أنّه مأخوذ منها أو متأثّر بها إلى حدٍّ فقده ذاتيته ويبعد به قدر المستطاع عن الكتاب والسنّة..).

إذاً من خلال تتبّعنا لدراسات المستشرقين ومؤتمراتهم حول الإسلام نجد أنّهم ينشئون فكراً معقّداً مضطرباً متناقضاً عن الإسلام...

وهكذا نجد هؤلاء المستشرقين ووفق مخطط استعماري وغزو فكري يتسابق وبصورة عشوائية لإعطاء صورة مشوّهة عن الإسلام، مخافة أن يطّلع العالم الغربي والشرقي على مفترياتهم، وساعد على ذلك الخمول الفكري والانعزال الجامد عند المسلمين في بيان الإسلام على حقيقته سواء في عالم الغرب أو الشرق، أو في عالم المسلمين، مما سنبيّنه في فصلٍ خاص إن شاء الله.

وبهذه الطريقة الحاقدة المشوّهة يمكن أن يجنّدوا الغرب كلّه مفكريهم وعامّتهم لاستعمار البلاد الإسلامية واللعب بمقدّراتهم وممتلكاتهم... نترك بحوثهم عن الإسلام لنتكلّم ولو باختصار عن افتراءاتهم وأكاذيبهم عن الرسول الكريم محمّد صلى الله عليه وآله.

بعض ما قالوه عن الرسول الكريم محمد ﷺ [1]:

(محمّد مصلح ديني وضع نظاماً جديداً دينياً أسماه (الإسلام) وأولى بهذا النظام أن يسمّى بالمذهب المحمّدي، ومحمّد في الوقت نفسه إنسان عادي)، أمّا دانتي (الشاعر الإيطالي المشهور) فقد صوّر الرسول ﷺ وقد أُلقي في الدرك الثامن والعشرين من جهنّم وقد شطر إلى نصفين من رأسه إلى منتصفه وصوّره وهو بيديه في جسمه عقاباً له على ما اقترف من فضائح وآثام وسبب من شقاق ـ ولأنه في رأيه تجسيد كامل للروح الشريرة).

ويصف أحد نماذج حركة التنوير رسولنا الكريم بما يلي (إنّ محمّداً رمز الفتن، وهو دجال، ويدّعي كذباً المناجاة مع روح القدس).

وهذا (ديدرو) الذي هو أيضاً من رجال التنوير الفرنسي يصف الرسول بأنه: (قاتل رجال وخاطف نساء وأكبر عدو للعقل الحر) ومن أركان النهضة الأوربية يقول أحد أعضائهم عن الرسول ﷺ: (إنّ محمّداً كان مصاباً بالصرع) وقيل: (إنّ محمّداً يدعي النبوة وهو ليس بنبي، بل انّ معلوماته استقاها من مصادر معروفة منها صاحباه صهيب الرومي وسلمان الفارسي وزوجه مارية القبطية...) (إنّ محمّداً كان يقرأ

---

(١) المستشرقون والإسلام، د. عرفان عبدالحميد: ص٦، وات (W. Monlgorenery) وانظر منهج مونتغمري واط في دراسة نبوة محمد ﷺ.

ويكتب، أي أنّه لم يكن أمّياً ـ بدليل أنه كان تاجراً) ثمّ (إنّ محمداً كان شديد الإخلاص لدعوته وشديد الثقة في نفسه فكان إذا حدثت حادثة في حياته، أو اعتقد أنّ شيئاً ما صالح انفعلت نفسه بما حدث أو اعتقد فيصوغه في كلام قرآني، ثمّ يعتقد هو نفسه أنّ هذا كلام الله أوحي إليه فيقدمه للناس على أنّه كلام الله) ثمّ قيل: (إنّ معارضة العرب لمحمد ﷺ وتكذيبه دليل على بطلان دعوته).

يقول توراندريه: (لا يعرف بالضبط متى ولد محمد، وأكثر ما جاءنا عن حياته الأولى معلومات أسطورية).

ويقول برنارد لويس: (لا يعرف إلا القليل عن نسب محمد وأوائل حياته، بل إنّ هذا القليل قد أخذ يناقض شيئاً فشيئاً كلّما تقدّم البحث الأوربي) وأثار شبهة أخرى حول ما تحويه الأخبار الإسلامية ـ وتاريخه.

ويقول نيكلسون: (إنّ الحقيقة المجردة هي أنّ محمداً قبل نبوته كان قريشياً مغموراً، وكلّ ما روي عن حياته التي سبقت نبوته لا يمكن اعتباره حوادث تأريخية واقعة سوى زواجه من خديجة).

ويقول بروكلمان: (لسنا نعلم علم اليقين السنة التي ولد فيها النبي والمشهور ان ولادته كانت سنة ٥٧٠م، ولكن الذي لا نشك فيه أنّها متأخرة عن ذلك بعض الشيء...).

فهذه أمثلة مما لا حصر فيه من المغالطة والكذب والافتراء على أعظم إنسان عرفته البشرية، وكيف لا وهو الذي وعاه الله وأوكل تربيته وحفظه إلى ملائكته المقربين حتى وصل من الخلق الرفيع إلى أن يقال فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾... فهو الكامل خَلْقاً وخُلُقاً، ولضيق المجال نأخذ بعض الفقرات للمناقشة لأن كذب البعض الآخر أظهر وأوضح من نور الشمس عند من كان عنده قليل من المعرفة ومسكة من العقل.

ونأخذ على سبيل المثال: اتهامهم للرسول ﷺ بأنه أخذ دينه من صهيب الرومي وسلمان الفارسي ومارية القبطية، فمن جهلهم لمسائل التاريخ أنهم لم يعلموا أنّ صهيباً عربي الأصل، فهو من بني النمر بن تولب سبته الروم طفلاً وباعته ونشأ بمكة، ويقال إنّه عتيق عبدالله بن جدعان، فماذا عسى أن تكون ثقافة طفل أو صبي حتى يستفيد منه محمد وهو لم يذهب إلى بلاد الروم، ولم تكن الدولة البزنطية دولة توفر العلم حتى يفيض على الصبيان ويقال إنّ صهيباً هذا نشأ في العراق.

ثمّ لماذا أنّ كل ما جاء في كتبهم الدينية التي يعود تاريخها إلى ما قبل الإسلام صحيحة وبعيدة عن الخطأ إلاّ أنّ حياة النبي محمد ﷺ مجهولة ومبهمة لهم علماً أنّ الله عزّوجلّ الذي نزل القرآن وأوكل بحفظه هو الذي رعى حياة حبيبه ورباه...

أنكر بعض المستشرقين أمّية الرسول ﷺ [1] وأرادوا أن يثبتوا أنه كان يقرأ ويكتب بدليل كونه تاجراً، فمن مستلزمات التجارة القراءة والكتابة لتسجيل الحسابات ونحن نرد عليهم رداً واقعياً يخزيهم.

إنّنا الآن في القرن العشرين نعرف تجاراً كباراً في السوق لا يعرفون الكتابة والقراءة ولهم من المحاسبين والإداريين من يصرف لهم شؤون تجارتهم، والحقيقة ان الأدلة النقلية من القرآن والسنة والتاريخ الصحيح تدل على أمّية الرسول ﷺ فمن القرآن: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ وقوله: ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ومن السنة: نحن أمّة أمّية لا نقرأ ولا نكتب...

ومن كتب التاريخ المعتمدة: (وحين تجمعت قريش لغزو أُحد أرسل العباس بن عبدالمطلب كتاباً سرياً يخبر به رسول الله بهذا التجمع فدفع النبي الكتاب إلى أبي فلمّا قرأه وعلم النبي بهذا الخطر الذي سيواجه المسلمين استكتم أبياً ما قرأ ولو كان هو يحسن القراءة لأبقى هذا السر وما احتاج ان يستكتمه من قرأه (لأن هذا سر عسكري خطر كما نسميه في اصطلاحنا الحاضر) وحين كتبت ثقيف شروط

---

(١) لقد ردد هذا القول أستاذ التاريخ في جامعة بغداد في الستينات لأنه يؤمن بالفلسفة المادية.

إسلامها للنبي أجازت فيها الربا والزنا فلما قرئ الخطاب على رسول الله ﷺ قال للقارئ وهو يقرأ كلمة الربا، ضع يدي عليها فوضع يده فمحاها وقال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا﴾ ولما بلغ كلمة الزنا قال: ضع يدي عليها فمحاها أيضاً وقرأ: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى﴾.

إذ أنّ معارضة العرب للرسول تعتبر دليلاً عليهم لا لهم، فتكذيب المشركين للرسول عند المستشرقين يعني بطلان رسالة النبي ﷺ ولكن تكذيب مشركي اليهود للنبي موسى ماذا يعني؟ وتكذيب مشركي المسيحية للمسيح ماذا يعني؟ بل إنّ اليهود أنفسهم ذاق منهم موسى عليه السلام الأمرين، فعبدوا العجل وأرادوا رؤية الله عزّوجلّ وغير ذلك، ووقف اليهود بل كهنتهم وكتّابهم الموقف العدائي من عيسى عليه السلام وأرادوا قتله، بل نفذوا القتل فيمن جعله الله شبيهاً به، ومع هذا فهم قد أصروا على قتله فهل كان أولئك الأنبياء كلهم لا كرامة لهم ـ ذلك ما تظهره ألسنتهم وما تخفي صدورهم أكبر، وهل يتوقع من العرب المشركين الذين سفهت أحلامهم، وكشفت قلة عقولهم في عبادة الأصنام والدعاء لها، وتصور النفع والضرر ..

منها فمن البديهي أن يلقى كل داعية إلى دين جديد أو مذهب جديد في قوم لم يعرفوا ذلك من قبل ـ إلا أنّ هؤلاء في ضلالاتهم إنما يصورون حقدهم وحسدهم وجهلهم في هذا الواقع المتدني من

الافتراءات والأكاذيب اتباعاً للهوى وإطفاء للحقد ولكن مثلهم كما يقول الشاعر:

اصبر على مضض الحسود فإنّ صبرك قاتله
النار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

الخاتمة لمناقشة افتراءاتهم وأخطائهم بصدد الرسول ﷺ:

نأتي إلى مناقشة رأي المستشرق الانكليزي[1] (Montgamery W.) ـ وحسب الأسلوب التالي:

الإخلاص للدعوة والثقة بالنفس. هاتان خصلتان تدلان على الصدق تثبتان أنّ ما قاله الرسول ﷺ حق وصدق، إذ أنّ الإنسان إمّا أن يكون ربانياً في دعوته يبتغي بها وجه الله تعالى، أو أن يكون ذا طمع دنيوي في منصب أو جاه أو مال أو غيرها من متع الدنيا التي وصفها الله في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإن كان ربانياً أخلص لدعوته ووثق بنفسه، وإن كان من أهل الدنيا ومغانمها استخدمها من أجل غاياته وأهدافه الدنيوية وانكشف أمره ـ لابدّ في فترة من فترات

(١) أنظر مناهج المستشرقين ج ١ د. محمد بن عبود.

حياته ـ فإخلاص رسول الله ﷺ لدعوته دليل على أنّه رسول ونبي مرسل من عند الله تعالى، وأنّ القرآن كتاب موحى منه تعالى ـ وأما الثقة بالنفس فهي صفة ملازمة لأهل الحق دائماً ـ فإنّما الضعيف هو صاحب النفس الذي يدعو إلى الباطل وتداهن نفسه في عقيدتها وفكرها...

وأكبر دليل على هذا، ما يفعله أهل الباطل من أصحاب الفكر الصليبي أو الفكر الإلحادي المادي حين يخفون موقفهم من الإسلام ويداهنون فيه بغية إرضاء الشعوب الإسلامية للسيطرة عليها ونهب خيراتها والقضاء على إيمانها وعقيدتها تدريجاً، تنفيذاً لوصية كبار المفكرين منهم من أمثال كلادستون الذي وقف في مجلس العموم البريطاني رافعاً المصحف بحقد وحمق قائلاً: «مادام هذا المصحف فيهم فلا قرار لنا عندهم، فلابدّ من القضاء عليه أو قطع صلتهم به».

ولما كان الأمر الأول مستحيلاً شرعاً وعقلاً، فإن الأمر الثاني هو الذي خططوا له ونجحوا فيه نجاحاً عظيماً، إذ نرى في زماننا هذا ملايين من المسلمين ممن يدين بالفكر الإلحادي والعلماني، ويحارب الإسلام وأهله ويدين لأهل الكفر من حيث يعلم أنه قد ارتد بذلك عن دينه أو لايدري، وتلك هي المصيبة العظمى حيث يتصور الجمع بين الأمرين من غير أن يكون ذلك سبباً في نقص دينه أو ضياعه...

إنّ الاستعمار أدرك بأنّ سيرة سيدنا محمّد ﷺ هي مدرسة

حرية بأن تدرس، وهي كفيلة بتربية أجيال مؤمنة صادقة صالحة ـ لذلك يحاولون عبثاً إسدال الستار على حياته وأخلاقه الكريمة ـ لأنها نور يضيء ظلام شرهم وانحرافه ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

(إنّ قرآن محمد صنعة بشرية يكثر فيها التناقض وعدم الانسجام) و(القرآن مخلوق) يقول أحد رواد حركة التنوير: (إنّ محمداً يزعم أنه صاحب رسالة ـ إنّ كلّ سطر في رسالته ينم عن السخف الذي يناقض مبادئ العقل الأولي...) ويقول كولد تسيهر في معرض كلامه عن الوحي: (إنّ الأمراض التي تصيب الرجال الذين فوق البشر دون سواهم والتي يشتقون منها حياة جديدة كانت قبل ذلك مجهولة كما يجدون فيها قوة تهدم جميع العقبات ومن ذلك حمية النبي أو الحواري...)[1].

ويقول بروكلمان: (أعلن أي الرسول ﷺ ما أصابه أنه قد سمعه كوحي من الله...) ونعود إلى ما ذكرناه قبل قليل من قول (W, Monlgomovry) الآتي (... فكان إذا حدثت حادثة في حياته أو اعتقد أنّ شيئاً ما صالح انفعلت نفسه: أحدث أو اعتقد فيصوغه في كلام قرآني، ثم يعتقد هو نفسه أنّ هذا كلام الله أوحي إليه فيقدمه

---

(١) المستشرقون والإسلام د. عرفان عبدالحميد ـ ١٦ ـ ٢٠.

للناس على أنه كلام الله).

اهتم كثير من أعداء الإسلام بإثارة الشكوك حول الوحي مقتفين أثر جهلاء قريش وسفهاء المشركين في ادعاءاتهم الملفقة الكاذبة حول الرسول الأعظم ﷺ حين قالوا عنه أنه ساحر أو مجنون أو شاعر.

أما سبب هذا الاهتمام الكثير فيعود إلى الأسباب التالية:

١ـ لما يتمتع به القرآن من مركز ديني وثقافي في الإسلام. فهو يعتبر الأساس الأول الذي تقوم عليه العقيدة والثقافة الإسلامية، كما أنه المصدر الأول للنظام والشريعة الإسلامية.

٢ـ النظرة التقديسية التي ينظر بها الفرد المسلم إليه. ثمّ إنّ القرآن وظاهرة الوحي من أظهر وأقوى الأدلة على صدق محمد ﷺ على أساس ما فيها من أفكار وتشريعات وأخبار لا يمكن أن تكون وليدة عصر البعثة ولا من خلق شخص محمد، الأمر الذي أدركه المستشرقون بشكل واضح ودعاهم إلى مهاجمة القرآن وظاهرة الوحي...

ثمّ للرد على شبهاتهم الواهية نذكر الآية الكريمة المبينة لأنواع الوحي: ﴿**وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**...﴾ ثمّ إنّ الوحي

ليس من قبيل الحدس أو الشعور الباطني ودلالات النفس والفراسة السريعة التي غالباً ما تتأثر بالرياضات الروحية والتفكير المستديم الطويل ـ بل أنه ـ أمر طارئ زائد على الطباع البشرية خارج عن النفس والباطن، لا يخضع لأيّ تأثير يطرأ عليهما، يتلقاه النبي ﷺ من الذات الإلهية بواسطة الملك الموكل بذلك؛ لضيق المجال نأخذ فقرتين من المذكورات سابقاً للمناقشة:

خلق القرآن: إنّ هذا الرأي هو رأي المعتزلة، وقول جمهور المسلمين ان القرآن كلام الله تعالى، والكلام صفة المتكلم فهو قديم قدم الباري عزّوجلّ، ولقد دفع المستشرقين جهلهم بهذا الموضوع إلى أنّ يتصوروا ان المقصود برأي المعتزلة (إنّ القرآن ليس من الله تعالى بل هو من عند رسول الله ﷺ) ومن علمه الذاتي وسماعه وتعلمه من الغير وليس وحياً من الله تعالى منزلاً على رسول الله ﷺ مع أنّ المقصود بأنّه مخلوق أي خلقه الله تعالى كما خلق الكون كلّه، وكلّ المسلمين ومنهم المعتزلة يقرون بأنّ القرآن كتاب منزل وحياً من عند الله تعالى على النبي محمد ﷺ وأنّه المعجز، وأنّه المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته، وأنّه القرآن الذي بين أيدينا لم يزد فيه ولم ينقص منه، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ...﴾ والعالم الحافظ الأمين المتثبت هو من يتصدى للحقيقة الكبرى ويطلبها ويتبين معالمها بكل أمانة وصدق الحقيقة.

إنّ القرآن من الله تعالى وان الله يتحدى به البشر جميعاً عربهم، وهم أهل اللغة، وأعاجمهم أن يأتوا بسورة من مثله وقد عجز العرب وعجز غيرهم من باب أولى، ومع هذا فلا يزال هذا النور يهتدي به أهل العقل والفكر واليقين والصدق عن رضا واقتناع وفداء في سبيل هذا الدين الذي آمنوا به...).

(فيصوغه في كلام قرآني) هذا قول يدل على عدم المعرفة بالوحي القرآني؛ إذ أنّ كلام رسول الله ﷺ غير كلام الله تعالى يميزه من له أدنى معرفة بالقرآن واللغة العربية ليس هذا فحسب بل إنّ كلام رسول الله رغم أنّه وحي من الله تعالى بأسلوبه ﷺ من غير إعجاز فإنّ أقوال الرسول ﷺ نوعان:

حديث قدسي وأحاديث غير قدسية، فالحديث القدسي هو وحي من الله تعالى، من كلامه من غير إعجاز وهذا مايميزه عن القرآن حيث أنّ القرآن كلام الله المعجز المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر المكتوب في المصاحف، وهكذا تخبط أهل الاستشراق في مسائل كثيرة عن جهل أو تجاهل من ذلك عدم معرفتهم للناسخ والتعارض والترجيح.

تصورهم للمسلمين[1]:

يستفسر أحد المستشرقين عما إذا كان الإله الذي يعبده

---

(١) المستشرق والإسلام د. عرفان عبدالحميد ص ١٠ ـ ١٢.

المسلمون هو إله اليهود والنصارى أم لا؟ يصرّح الدكتور لبسيوس بأنّ إله الجميع واحد، إلاّ أنّ القسيس زويمر خالفه في هذا الرأي وقال: (مهما يكونوا موحدين فإن تعريفهم لإلههم يختلف عن تعريف المسيحيين؛ لأنّ إله المسلمين ليس له قداسة ومحبة...).

إنّ المسلم في نظر الدراسات الاستشراقية هو: وحش ـ ابن شيطان ـ أهل لواط، مشرك، يعبد الأصنام، ولهم مجمع من الأصنام الذي يضم الإلهة جوبيتز، آبولو، دايانا، أفلاطون، والمسيح الدجال...) وقيل: (إنّ العربي المسلم) هو راكب الجمل إرهابي معقوف الأنف، شهواني شره، وإنّ الثروة التي عندهم لا يستحقّونها وإنّ هذا إهانة للحضارة الحقيقية.

هذا مجمل رأيهم في الأمّة الإسلامية والمسلمين، ونسوا أو تناسوا بأن أمّة الإسلام هي تلك الأمّة التي قال الله في حقها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ و﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ والتاريخ شاهد على أنّ المسلمين كانوا دوماً رمز الرحمة والسلام والأخوة والتقدم والعزة والأمان.

الاستشراق والتاريخ الإسلامي:

لسنا ننظر إلى الدراسات الاستشراقية من حيث أثرها على

أقوامهم فحسب لأن المسألة قد تهون، ولكننا نجد خطورة عظيمة في انسياب هذا المنهج في الشرق الإسلامي والتزام بعض المفكرين من أساتذة الجامعات وغيرهم لذلك المنهج حتى وجدنا ان المستشرقين الغربيين وجدوا في تلامذتهم وأتباعهم ما يغنيهم ويرضي رغباتهم ويحقق أهدافهم ولهذا سبق أن قلت أني لم أجد فيما وصل علمي أحداً من أبناء المسلمين ممن تخرج في جامعات الغرب أو الشرق من لم يتأثر بالمنهج الأجنبي سواء في كلياته أو في بعض جزئياته؛ ولهذا وجدنا كثيراً من الباحثين يتحدث عن النبي محمد ﷺ وكأنه زعيم أو فيلسوف أو باعث حضارة وموجد أمّة وليس نبياً مرسلاً.

(إنّ منهجية المستشرقين مهمة بالنسبة للتاريخ الإسلامي؛ إذ أنّها تمس موضوعاً دقيقاً هو طبيعة التاريخ الإسلامي وجوهره، ومن ثم فقد أثرت على الطريقة التي كون المسلمون بها صورة لأنفسهم في سياق تاريخهم، والسؤال الذي يثير حساسية أكبر هو «كيف حاول المستشرقون أن يؤثروا على مجرى التطورات في العالم الإسلامي عن طريق تطوير موضوعات ونظريات وفروض عديدة تتصل بالتاريخ الإسلامي التي برغم احتفاظها بالمظهر الأكاديمي تخفي في كثير من الأحيان دوافع وأهدافاً كامنة ترجع إلى الهيمنة على العالم الإسلامي والشرق بعامة عن طريق الاعتماد القوي على النشاطات البشرية والاستعمارية والامبريالية).

وتميّزت الدراسات الاستشراقية للتاريخ الإسلامي بمميزات جعلتها تبعد الحقائق العلمية والثمرات الحضارية:

١ـ اعتمادهم على المصادر الضعيفة الواهية المنكرة ككتاب الأغاني وغيره.

٢ـ عدم إدراكهم لحقيقة المجتمع الإسلامي وأسس تكوينه.

٣ـ تقصدهم في تصيّد الآراء الشاذة والروايات الضعيفة المنكرة، وتركهم الآراء المجمع عليها أو الغالبة.

٤ـ عدم أمانتهم في النقل.

٥ ـ استعمالهم طريقة التمويه وبتر الرواية، والأخذ منها ما يفيدهم.

٦ ـــ الافتراء والكذب أحياناً وإلصاق الأخبار ببعض الشخصيات القيادية في التاريخ الإسلامي.

٧ ـ إظهار الحركات الهدامة وإبرازها بأنها تمثل حركة الحرية والديمقراطية كالباطنية والقرامطة والبرامكة والبهائية والقاديانية وغيرها ويصدق هذا على الاستشراق الغربي والشرقي.

٨ ـ محاولة تفسير الأحداث التاريخية تفسيراً مادياً بعيداً عن النزعة الروحية المخلصة لله التي يقسم بها قادة العرب والمسلمين في الفتح الإسلامي.

٩ ـ النظر إلى الإسلام أنه دين قد أخذ تعاليمه وأنظمته من

اليهودية والنصرانية وأنّ محمداً ﷺ لم يكن إلا مفكراً استقى أفكاره عمّن سبقه[1].

١٠ ـ العمل على إبراز أحداث النزاع في التاريخ الإسلامي، وترك الفترة التاريخية الحضارية المشرقة من أجل أن يؤكدوا على فرية يفترونها في أن التاريخ الإسلامي لم يكن إلا أحداث نزاع وقتل وتنافس على السلطة. ويريدون بذلك ان يوحوا إلى الشرق الإسلامي أن المسلمين لا يمثلون وحدة الكفاح ضد الكفر والاستعمار، وأنهم فرق مختلفة ولا تجمعهم عقيدة التوحيد ولا يمثلون أمّة موحدة عبر التاريخ ولا يمكن أن يعيدوا الدور الذي بدأه الأجداد العظام.

نماذج من خطة الاستشراق والتبشير في إثارة الفتن بين الأديان والفرق:

حين انسحب إبراهيم باشا سنة ١٨٤٠ من بلاد الشام، وانتشر القلق والفوضى والاضطراب فيها وانقسم الناس على أنفسهم، واغتنم الموفدون الأجانب ـ لا سيما رجالات البعثات التبشيرية ـ ضعف نفوذ

---

(١) يقول ماكدونالد (لا يسعني إلاّ أن أعتقد هنا بأننا أمام حالة من حالات التكرار على لسان محمد وعلى نحو غير مقصود بالمرة لعبارة من العبارات التقطتها ذاكرة اللاوعي لديه حينما كان في كنيسة مسيحية سمعها في أثناء صلاة مسيحية) مناهج المستشرقين ص ٣٨٩ عن كتاب ماكدونالد ـ جوانب إسلامية ص ٦٥١ وهذه هي الصفة الغالبة على اعتقاد الكثير من المستشرقين.

الدولة العثمانية في البلاد، وحينئذٍ أخذوا يشعلون نار الفتنة وما مرّ عام واحد وحلّت سنة ١٨٤١م حتّى وقعت اضطرابات خطيرة في جبل لبنان بين النصارى والدروز استفحل شرّها حتّى اضطرّت الدولة العثمانية بتأثير ضغط الدول الأجنبية أن تضع للبنان نظاماً جديداً فقسّمته إلى قسمين: يسود النصارى في قسم مدة ويسود الدروز في القسم الآخر ويعيّن حاكم للقسمين، وأرادت بذلك أن تتفادى الاحتكاك بين الطائفتين غير أنّ هذا النظام لم ينجح؛ لأنه لم يكن طبيعياً.

الفتن باب من أبواب التدخل الأجنبي الاستعماري، وقد تدخّلت كلّ من انكلترا وفرنسا في هذا الخلاف، وكانتا تشعلان نار الفتنة كلّما حاول القائمون على الأمر إخمادها، وأخذ الانكليز والفرنسيون يتخذون هذا الاحتكاك بين الطوائف ذريعةً للتدخل في شؤون لبنان، وانحاز الفرنسيون إلى جانب الموارنة وانحاز الانكليز إلى جانب الدروز، مما أدّى إلى تجديد الاضطرابات سنة ١٨٤٥م بشكلٍ فظيع شمل الاعتداء فيه الأديرة والكنائس واستعمل فيه السلب والنهب والقتل مما اضطرّ الحكومة العثمانية إلى إرسال ناظر خارجيتها إلى لبنان ليتلافى الأمر بما لديه من الصلاحية المطلقة، ولكنّه لم يستطع أن يفعل شيئاً ناجحاً، وإن كان قد أخمد الحالة نوعاً ما، إلاّ أنّ المبشرين ازدادت لهم وما أن جاءت سنة ١٨٥٧ حتّى بدأت فكرة الثورة

والاصطدامات المسلّحة في طائفة الموارنة، فقد قام رجال الدين الموارنة بتحريض الفلاحين على الإقطاعيين وهاجموهم في لبنان الشمالي هجوماً عنيفاً، واشتعلت نار الثورة ثم امتدّت إلى الجنوب فثار الفلاحون النصارى على الاقطاعيين الدروز وأخذت كلّ من انكلترا وفرنسا تؤيّد جماعتها، فالانكليز يؤيدون الدروز، والفرنسيون يؤيّدون النصارى، وبذلك توسّعت الفتنة توسّعاً عاماً حتّى شملت جميع لبنان، وأخذ الدروز يقتلون جميع النصارى لا فرق بين رجال الدين وغيرهم حتّى قتل وشرّد آلاف من النصارى من جراء القسوة التي كانت تنطبع بها الاضطرابات إلى سائر بلاد الشام.

الفتنة بين المسلمين والنصارى:

لقد عمد الاستعمار ومن ورائه المستشرقون والمبشّرون إلى إشعال الفتنة بين المسلمين والنصارى وبين المسلمين والهندوس، ويهدف من هذا إلى إيجاد جوّ من البغضاء والشحناء، وتأصيل العداوة بين أبناء البلد الواحد بغية إبعادهم عن معرفة الإسلام والتحقّق من أهداف القرآن الإنسانية ونوره ورحمته للعالمين؛ ولهذا فالإسلام يحرص على إيجاد جوّ هادئ حرّ من أجل إقناع الناس؛ لأنّ الرضى شرط من شروط الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقد نهج الاستعمار هذا المنهج وهو

نفس منهج الجاهلية الذي اختطّه المشركون فقال تعالى حاكياً حالهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

وقد نفذ مثل هذا في بلدان كثيرة، ففي الهند أثاروا ولا يزالون يثيرون الفتن والقتل والخصومات بين المسلمين والهندوس، كما أنهم كانوا وراء موجة من البغضاء والمقاتلة بين المسلمين والنصارى في الشام أدّت في شهر تموز سنة ١٨٦٠م إلى أن يهاجم المسلمون حي النصارى ويقوموا بمذبحة كبيرة، وقد صاحب تلك المذابح شيء من التعذيب والتدمير والاضطراب، حتّى اضطرّت إلى وقف الفتنة بالقوة، وبالرغم من الاضطرابات خمدت وكادت تنتهي لولا أنّ يداً أجنبية أرادت استمرار الفتنة؛ لأنها من أسباب بقائهم وسيطرتهم على البلاد.

ويكشف (حقيقة الإسلام) رجل اتصل بأهله قنصلاً لبلاده في تقرير رسمي طبع ونشر عام ١٨٧١م هو السير ريتشارد وود الذي عمل في دمشق والجزائر يقول في تقريره[1]:

«إنّ من أوهام الناس أنّ الإسلام يمنع مساواة أهل الذمّة بالمسلمين فيما لهم وما عليهم وينبو عن الأخذ بأسباب التقدّم والحضارة؛ لأنه لا يحبّذ انتشار المعارف والتحلّي بالعلوم، وهذه الأوهام باطلة» ثم يقول: «وأكثر بواعث سوء الفهم هو انتشار الظن في أوربا

---

(١) ترجمة السيد محب الدين الخطيب وطبعته المطبعة السلفية (القاهرة) ١٨٦٠.

بأنّ الإسلام دين القوة والسيف وهذا الظن مخالف للواقع».

والذي يبحث بحثاً دقيقاً عن أسباب الفتن التي سفكت فيها الدماء في الشرق، يعلم أنّ الباعث الوحيد على حدوثها هو اصبع السياسة الأجنبية التي تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوي الأحقاد. ومن هذا القبيل واقعة الدروز، وواقعة الصقالبة، والبلغاريين، فقد تبيّن أنّ الاعتداء يبتدئ من جانب النصارى، وكان ريتشارد قنصلاً في دمشق في فتنة ١٨٦٧.

وزعت وكالة تاس السوفياتية في بيروت مقالاً نشرته جريدة (برافدا) في موسكو لمراسلها في بكين عاصمة الصين جاء فيه: (لقد أدخل الاستعماريون الأمريكيون إلى الصين مبشرين من مختلف المذاهب، استخدموهم منذ أمد بعيد في أعمال الجاسوسية)[1].

الاستعمار وآثاره الطائفية:

قال المطران مبارك اللبناني سنة ١٩٤٨ في باريس: «إنّ لبنان بلد كاثوليكي، ويحاول المسلمون أن يستعبدوه، كما يحاولون استعباد جميع المواطنين الذين يسكنون معهم في بلد واحد كاليهود في فلسطين، ويجب أن يكون لليهود وطن قومي؛ كي يتمكّنوا من العيش الهادئ،

---

(١) النشرة الصادرة في الثالث عشر من حزيران من عام ١٩٥١ في العدد ١١٣.

وإلاّ فإنّ أيّة ولاية غير إسلامية لا تستطيع أن تعيش بحرّية وتمارس معتقداتها الدينية تحت سيطرة إسلامية بحتة»[1].

ويرى زويمر حينما علم أنّ نفراً من النصارى يدعون إلى مصادقة المسلمين في الصين (إنّ هذه الصداقة تخلق في نفس النصارى جبناً عن التبشير).

وفي عام ١٨٨٧م أنشأ الفرنسيون جمعية للمستشرقين ألحقوها بأخرى في عام ١٩٢٠ وأتبعوا ذلك بإصدار (المجلة الآسيوية).

تألّفت في لندن في عام ١٨٢٣م جميعة لتشجيع الدراسات الشرقية وقبل الملك أن يكون ولي أمرها، وأصدرت هذه الجمعية (مجلة الجمعية الآسيوية الملكية).

وأنشأ الأمريكيون في عام ١٨٤٢م جميعة باسم (الجمعية الشرقية الأمريكية) وأصدروا بهذا الاسم مجلة تعنى بالدراسات الاستشراقية.

وأخطر المجلات التي يصدرها المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر هي مجلة (العالم الإسلامي) (The Muslim W ot) وهي مجلة أنشأها (صموئيل زويمر) في سنة ١٩١١.

---

(١) مجلة بيروت المساء في ٢١ حزيران عام ١٩٤٨ ص٥ نقل عن مجلة (Paris) الباريسية.

وللمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة (العالم الإسلامي) في روحها واتجاهها العدائي التبشيري واسمها (Le Mond Musulman).

والأسلوب الأخير: إنشاء (الموسوعة الإسلامية) وقد أصدروها بعدة لغات وبدأوا بإصدار طبعة جديدة منها. وقد بدئ بترجمة الطبعة الأولى إلى اللغة العربية، وصدر منها حتى الآن (١٣) مجلداً.

ومن هذه الموسوعة التي حشد لها كبار المستشرقين وأشدّهم عداءً للإسلام قد دسّ السمّ في الدسم وملئت الأباطيل على الإسلام وما يتعلّق به، ومن المؤسف أنها مرجع لكثير من المثقفين عندنا بحيث يعتبرونها حجة[1].

وكانت بعض الصحف الغربية أدوات رئيسية في هذه المعركة وفي مقدّمتها (جريدة التايمس) التي يمكن القول بأنها من أشدّ الصحف الغربية عداوةً للإسلام وتأريثاً لضرام الحملة عليه[2].

من وسائل الاستشراق عقد المؤتمرات من أمثال مؤتمر لكنهو سنة ١٩١١:

عقد مبشّرو البلاد الإسلامية من البروتستان مؤتمرهم الثاني

---

(١) لمحات من الثقافة الإسلامية، عمر عودة: ص ٢٠٦ ـ ٢٠٩.

(٢) الإسلام في غزوة جديدة: ص٣١.

العام في مدينة لكنهو الهند يوم ٢١ يناير سنة ١٩١١، أي بعد خمس سنوات من مؤتمر القاهرة، ومعلوم أنّ المبشرين كانوا قد تفاوضوا في مؤتمر ادنبرج عن مقاومة الإسلام، ودرسوا وسائل مناضلته من كلّ الأوجه. ولما عقدوا مؤتمر لكنهو ارتاحوا إلى ما رأوا من نجاحهم واشتركوا مع رئيسهم القسيس زويمر في معرفة موقف الإسلام وقوته وأسبابها. وأظهروا استعداداً لتطبيق أعمالهم على الحالة الحاضرة. والظاهر من مطبوعات البروتستان ومنشوراتهم أنهم يتذرّعون بالتؤدة في بذل المجهود لمعرفة موقفهم وميدان عملهم ودرس عامتها، وهم لا يفوتون شيئاً من هذا القبيل ومنشأ هذا التضامن في جامعة المبشرين البروتستان هي المواهب العملية التي امتاز بها الانكلو سكسوني والمزايا النظامية التي اختصّ بها الجرماني. ثمّ قالت هذه المجلة طلبنا من القسيس زويمر أن يوافينا بملخص أعمال المؤتمر مذ انعقاده فأجابنا إلى طلبنا، وأرسل لنا مجموعة تضمّنت أبحاث المبشرين في ذلك المؤتمر.

الاستشراق واستغلال الشعوب والمؤسسات العلمية:

قال شكيب أرسلان: ثم اطلعت في هذا الكتاب[1] نفسه عن فصل آخر لمبشّر يقال له المسيو فور يتكلّم على البعثة الانجيلية في

(١) (عصر في أفريقية والاوقيانوس) لجمعية التبشير الانجيلية الباريزية، مطبوع في السنة ١٩٢٣.

بلاد الغبون أو الكونغو الفرنسي يقول فيه: إنّ هذه البلاد بعد أن ضمّت إليها مستعمرة الكامرون الألمانية صارت بقدر فرنسا أربعاً أو خمس مرات، وإنّ سكانها أقوام مختلفة من سود أفريقية منهم مسلمون وأكثرهم فتيشيون ومن جملة ما ورد في هذا الفصل قوله:

إنّ الأوربيين قد جنوا على السلالة السوداء جنايات كثيرة لا مندوحة لهم من التكفير عنها، فإذا كانت أمم لمبونغوي والغالوة والنكومي وغيرها قد انقرض أكثرها فما ذاك إلا لكون النخاسين البيض كانوا يصطادون أبناء هذه الأقوام ويستعبدونهم ويبيعونهم، ولكون أكثر أرباح التجار البيض هي من تجارة السلاح والبارود والمسكرات.

وبالآخر فلنقل الحقيقة وهي انّ الزنا مع ما يجره من الأمراض التي كانت تفني هؤلاء الزنوج إنّما فشى فيهم بواسطة الأوربيين، ولكم من حرم جره الأوربيون بين هؤلاء السود البؤساء، وممّا لا نقدر أن نكابر فيه هو انّ الاستعمار العصري إن هو إلاّ استغلال المستعمرات وأهلها بأي وجهٍ كان.

وقال المبشر المسيو الليغر في معرض حديثه عن (الكامرون):

أمّا موضوع الإسلام فهو من الطول بحيث لا أقدر أن أفتحه فقد سبق لنا أن بيّنا كيف انّ (نجويا) سلطان البامون ولّى وجهه شطر الإسلام، ولكن إسلامه كان ممزوجاً بعقائد وثنية وأخرى مسيحية،

وقد صنف كتاباً يعلن فيه مذهبه وسمّاه (طريق الحياة) وفي الحقيقة أنه (فيتشي) يعني أنه وثني، لم يسلم إلا ليكون القائد المطلق لشعبه، ولو لم تكن البعثة الانجيلية قد دخلت في البلاد لربما كان الإسلام قد عمّها، وقد خالطت بنفسي أمّة (البله) الذين في بامون فوجدتهم مسلمين غير متعصّبين وهم على جانب من الوداعة، فظهر لي أنه يمكننا أن نبذر زرع الانجيل بين هذه الأمم التي تغلغل فيها الإسلام، وأن نوقف تقدّمه بل نهاجمه رأساً في أماكنه فيلزم أن نعيد إلى الكنائس الأهلية الصبغة التبشرية ونجعلها دائماً تحت سيطرة رسالات رعاية، ولا ننفك عن الدعوة ونذكر كنائس سواحل الكامرون بأنّ الإسلام الذي أخنى على جميع كنائس شمال أفريقية عليه أن يخنى عليها هي إن لم تتدارك هذا الخطر عاجلاً[1].

المؤسسات التعليمية والمهنية:

وقد اتخذت المدارس والجامعات وسيلة من وسائل تثبيت أركان الاستعمار في البلاد الإسلامية ولم يكن ذلك يتخذ طريقاً سرّياً، بل بعضهم يعلن ما يخفي في نفسه دون خجل أو احترام لأهل البلد الذي ينعم بخيراته، يقول المستر بزوز رئيس الجامعة الأمريكية بين سنة ١٩٤٨ ـ ١٩٥٤ يقول: (إنّ المبشّرين يمكن أن يكونوا قد خابوا

---

(١) حاضر العالم الإسلامي: ج٣، ص١٨ التبشير.

في هدفهم المباشر وهو تنصر المسلمين جماعات جماعات، إلاّ أنّهم قد أحدثوا بينهم آثار نهضة..) ثم يتابع قوله فيقول: (ولقد برهن التعليم على انّه أثمن الوسائل التي استطاع المبشّرون أن يلجأوا إليها في سعيهم لتنصير سورية ولبنان).

ويبدو انّ معنى قوله (قد أحدثوا بينهم آثار نهضة) المقصود به العمل على سلخ المسلمين عن دينهم، وهذا فيما يبدو لي هو هدف المبشرين الذي أثبته زويمر في مؤتمر المبشرين حين قال: (ليس هدفنا أن نشرف المسلمين بالمسيحية، وإنّما هدفنا أن ننشئ جيلاً لا يؤمن بالله) وسنتحدّث في مجال آخر عن التعاون بين التبشير والحركات الإلحادية في بذر الأفكار الكافرة الملحدة وتشكيك المسلمين بربّهم وبدينهم.

إنّ جميع الأعمال التي تقوم بها المؤسسات الموفدة إلى بلاد المسلمين يجب أن تستغل كلّ أعمالها لخدمة التبشير وتثبت دعائم الاستعمار.

(ولقد استخدم المبشرون جميع الطرق في سبيل التبشير واستغلّوا جميع المناسبات، فصناعة التطبيب والتعليم والوعظ ونقل الكتب من لغة إلى لغة كلّها يجب أن توجّه توجيهاً يفيد التبشير).

وقد استخدمت مهنة الطب كوسيلة من وسائل التبشير والاستعمار، ولقد ضاعت الأهداف الإنسانية في مهنة الطب، وصرّح

هؤلاء المبشرون بغايتهم من الأعمال الطبية وغيرها، فيقول الطبيب هارنسون في كتابه (الطبيب في بلاد العرب):

«إنّ المبشر لا يرضى عن إنشاء مستشفى ولو بلغت منافع ذلك المستشفى منطقة عمان بأسرها، لقد وجدنا نحن في بلاد العرب لتجعل رجالها ونساءها نصارى»[1].

وقالت ايراهازيسي تنصح الطبيب الذاهب بمهمة تبشيرية «يجب أن تنتهز الفرص لتصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم فتكرّر لهم بالانجيل، إياك أن تضيع التطبيب في المستوصفات والمستشفيات فإنّه أثمن تلك الفرص على الإطلاق، ولعلّ الشيطان يريد أن يفتك فيقول لك إنّ واجبك التطبيب فقط لا التبشير».

وممّا نجده من الكتب المسمومة التي تدرس في بلادنا ومنها الطعن الفاحش وسوء الخلق وانعدام المروءة والحقد الكبير على الإسلام وأهله وهذا كتاب يدرس مثلاً في الصف الرابع من المدرسة البطريركية في بيروت ويدرس بلا ريب في مدارس أُخرى كثيرة في لبنان وفي غير لبنان (وهو مطبوع في لبنان) والاسم الكامل لهذا الكتاب هو هذا تاريخ محاضرات ج ايزاك. حرّرها أ. البا للشرق الأدنى، لطلبة الصف الخامس (العصور الوسطى) طبعته مطابع الآداب

---

(١) Paul W.Harison N.D Doctor orolac.

الفرنسية في بيروت جاء في هذا الكتاب: ص٣١.

واتّفق لمحمّد أثناء رحلاته أن يعرف شيئاً قليلاً من عقائد اليهود والنصارى، ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤيا أقنعته بأنّ الله اختاره رسولاً.

ص٣٢ والقرآن مجموعة ملاحظات كان تلاميذه يدوّنونها بينما كان هو يتكلّم وقد أمر محمّد أتباعه أن يحملوا العالم كلّه مع الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة.

ص٣٦: وبينما كان محمّد يعظ كان المؤمنون به يدوّنون كلماته على عجل.

ص١٢٦: ودخلت فلسطين في سلطان الكفرة منذ القرن السابع للميلاد.

وأمّا كتاب تاريخ فرنسا تأليف نيومان وف. لوستير (لصفوف الشهادة الابتدائية) هذا الكتاب يدرس في مدرسة القديس يوسف للبنات في بيروت وفي مدارس هذه الارسالية في غير بيروت بلا ريب، وقد جاء فيه مما نحن بصدده ص٨٠ ـ ٨١: إنّ محمداً مؤسس دين المسلمين قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو. ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين وبين النصارى. إنّ هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس: «أسلموا أو تموتوا» بينما أتباع المسيح رسّخوا النفوس ببرهم وإحسانهم. ماذا كان حال العالم لو

أنّ العرب انتصروا علينا؟ إذن لكنا نحن اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين.

النتائج السلبية للدراسات الاستشراقية:

١ ـ يقول أحد الباحثين عن نتائج الاستشراق ما يلي : (...ومهما كانت درجة احتفاظ الاستشراق بالغموض الذي أحاط به كمجرّد ميدان من ميادين الدراسة فلم يكن ممكناً إلاّ أن يكون الاستشراق متورّطاً في كل التطورات التاريخية التي حدثت في العالم الثالث، فالاستشراق هو الذي بسط لهم أسباب السيطرة ونظم المعلومات التي عاد بها المستكشفون، ووفر الخطوط الأساسية لإرشاد الغزاة والفاتحين، وأخيراً تقدّم للشعوب المقهورة بنظريات لخضوعهم وتخلّفهم وافتقارهم إلى التنمية وعدم قدرتهم على استيعاب العلوم بالإضافة لخلق الاختلافات المذهبية والنعرات الطائفية.

٢ ـ إذا كان الاستعمار وقواه احتلت الأرض وسلبت الأموال واستغلت الخبرات وعاثت في البلاد الفساد، فقد كان أخطر النتائج التي أعقبت الغزو والفكر ذلك الغزو الصليبي الجديد هي تلك التبعية الثقافية التي بدأت إعجاباً بالمعالم المدنية والمبتكرات الصناعية وتحولت إلى شيوع روح الانهزام الفكري وضياع روح الاعتزاز بالشخصية الإسلامية لدى فريق ممن تخرج على أيدي أساطين الاستعمار ووفق

خططه ومناهجه، إلاّ أنّ تأثيرهم السيئ قد تسرب إلى المجتمع الإسلامي بل تعدى الأمر أن بعض المسلمين يردد ببلاهة وضياع شخصيته ـ كلمات المرجعية والتقدمية والتطور والتجديد، ويحاول أن ينقل التجارب الخاصة بالغرب وحده إلى الجو الإسلامي نقلاً تاماً دون تمحيص أو تمييز وانتشر الإلحاد والانهيار الخلقي، وأخذ التقليد لأعداء الإسلام صورة التشبث التام بأسس الثقافة الغربية والحضارة المادية، بل لقد بلغ الإسفاف في هذا التقليد حد الذوبان الكامل في بعض تفاهات المجتمع الغربي وأوضاعه التي يشكو هو منها وصح في هؤلاء قول الرسول ﷺ : «لتتبعنّ سنن من قبلكم شبراً بشبر أو ذراعاً بذراع حتى لو دخل أحدهم جحر ضبّ لدخلتموه...» وقد كان لهذا الغزو الفكري آثار بالغة في تأثير الثقافة الغربية على الناشئة المسلمة فلقد كان الاستعمار بحملاته العسكرية وغزوه الفكري وسيطرته السياسية والاقتصادية محنة حقّاً للعالم الإسلامي كله[1].

وأخطر النتائج السلبية التي خلّفتها الأعمال الاستشراقية هي:

أ ـ تشويه الثقافة والفكر الإسلاميين بجوانبها المتعدّدة في العالم الإسلامي وعند المجتمع الغربي.

ب ـ إضعاف الروح الدينية والأسس العقيدية عند المسلمين،

---

(١) أنظر: الإسلام في غزوة جديدة، أنور الجندي: ص٣٤ ـ ٣٥.

أي انخفاض الروح الدينية بين المسلمين، واعتاد المسلمون نتيجة ذلك الحكم الكافر وأنظمته.

ج ـ قيام الأوضاع الاجتماعية والسياسية الكافرة في العالم الإسلامي.

د ـ تحريف الأسس ـ بل الدين الإسلامي ـ بأسماء وشعارات برّاقة مثل بدع التجديد.

هـ ـ انتشار الأفكار الغربية المسيحية والسيطرة الاستعمارية العسكرية والسياسية في العالم الإسلامي.

و ـ انقسام العالم الإسلامي إلى دول وبلاد مختلفة ومتنازعة فيما بينها في كثير من الأحيان.

ز ـ تسمم العقل الأوربي تجاه الإسلام، وخلق نظرة غريبة الهيئة وحاقدة على الإسلام.

٤ ـ إنّ الاستشراق قد فشل في أن يكون دراسة إنسانية بنفس القدر الذي فشل فيه بأن يقدّم لنا دراسة ثقافية فهو بمواقفه التي اتسمت بمعارضة لا تلين تجاه منطقة معينة من العالم يعتبرها غريبة عليه أظهر تقاعساً في التعاطف مع الخبرات الإنسانية.

***

(المراجع)

١ ـ السنة النبوية، د. مصطفى السباعي.

٢ ـ الاستشراق والدراسات الإسلامية، د. عبدالقهار.

٣ ـ المستشرقون والإسلام، د.عرفان عبدالحميد، مطبعةالإرشاد، ١٩٦٩ بغداد.

٤ ـ الإسلام في غزوة جديدة من الفكر الأوربي، أنور الجندي.

٥ ـ في الأدب الجاهلي، د. طه حسين، الحلبي بمصر.

٦ ـ المستشرقون، نجيب العقيقي، ط. دار المعارف بمصر.

٧ ـ مذاهب التفسير الإمامي، كولد تسيهر، ترجمة عبدالحليم النجار، عبدالقادر حسن.

٨ ـ العقيدة والشريعة في الإسلام، كولد تسيهر، ترجمة يوسف وموسى وزميله.

٩ ـ الطرق الحكمية، ابن قيم الجوزية.

١٠ ـ التشريع الجنائي في الإسلام، عبدالقاهر عودة.

١١ ـ ارنولد سير تماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن ورفاقه، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧١.

١٢ ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي، دار الفكر بيروت.

١٣ ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية المكتبة العصرية، بيروت ١٩٧٠.

١٤ ـ مجلة العالم الإسلامي (The muslim World).

١٥ ـ محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي.

***

فهرس الكتاب

المقدمة ٥

كلمة السيد عدنان البكاء ٧

القراءات القرآنية بين المستشرقين والنحاة ١٧

اختلاف القراءات ٢٢

أسباب اختلاف القراءات ٢٦

تعدد القراء ٣٠

مقياس القراءة الصحيحة ٣١

موقف المستشرقين من القراءات ٣٢

موقف النحاة من القراءات ٣٩

موقف سيبويه من القراءات ٥٩

موقف الفرّاء من القراءات ٦٥

مصادر البحث ٧٤

ظاهرة الوحي والمستشرقون ٨٧

١ ــ الوحي ١٠٨

٢ـ سماع كلام الله تعالى مباشرة من وراء حجاب دون معاينة ١٠٩

٣ ــ أو يرسل رسولاً ١١٠

أ ـ إلهام ١١٠

ب ـ التسخير ١١١

ج ـ الرؤيا الصادقة ١١١

المصادر والمراجع ١٢١

المستشرقون ودراساتهم للسيرة النبوية ١٢٥

المقدمة ١٢٥

أولاً: الدراسات البريطانية ١٢٦

ثانياً: الدراسات الأمريكية ١٢٨

ثالثاً: الدراسات الألمانية ١٢٩

رابعاً: الدراسات الفرنسية ١٣٠

خامساً: الدراسات الإيطالية ١٣٢

سادساً: الدراسات البلجيكية ١٣٣

سابعاً: الدراسات الهولندية ١٣٤

ثامناً: الدراسات الروسية ١٣٥
تاسعاً: دراسات استشراقية من دول مختلفة ١٣٦
المدخل ١٣٨
أولاً: الدراسات المحايدة ١٣٨
ثانياً: الدراسات المعادية ١٤٩
ثالثاً: ظاهرة تعدّد الزوجات ١٥٩
رابعاً: نسبة القرآن الكريم إلى النبي صلى الله عليه وآله ١٦٣
خامساً: الديانة المحمدية ١٦٨
سادساً: مغالطات من هنا وهناك ١٧٤
مصادر البحث ومراجعه ١٨٠
الاستشراق ماضيه وحاضره ١٨٥
١ ــ التبشير ١٩١
٢ ـ الاستعمار ١٩٥
المراجع ٢٠٨
الاستشراق أهدافه وآثاره ٢٠٩
السياسة التوجيهية العامّة للتبشير ٢١١
بعض ما قالوه عن الإسلام ٢١٢

السيف والإسلام ٢١٤
التصوّف والإسلام ٢١٨
بعض ما قالوه عن الرسول الكريم محمد ﷺ ٢٢٠
الخاتمة لمناقشة افتراءاتهم وأخطائهم بصدد الرسول ﷺ ٢٢٥
الاستشراق والتاريخ الإسلامي ٢٣١
نماذج من خطة الاستشراق والتبشير في إثارة الفتن ٢٣٤
الفتنة بين المسلمين والنصارى ٢٣٦
الاستعمار وآثاره الطائفية ٢٣٨
من وسائل الاستشراق عقد المؤتمرات ٢٤٠
الاستشراق واستغلال الشعوب والمؤسسات العلمية ٢٤١
المؤسسات التعليمية والمهنية ٢٤٣
النتائج السلبية للدراسات الاستشراقية ٢٤٧
المراجع ٢٠٥
فهرس الكتاب ٢٥١

***

إن الوعي الكوني الشامل الذي يعطيه القرآن للأمّة، ودعوته للتفكير، ودراسته الآثار والحضارات، والتفكير في النفس والأرض، وما فيها، والسماوات وما بها، حمل الأمّة على التفكير، كما حملها على النشاط العملي ولذلك كانت انطلاقتها قبل الترجمة التي تمكن من الاستفادة لا بعدها فهي مسببة لا سبب، وهي دراسة غايتها الهداية للأمم المدروسة، لا الاهتداء، ولذلك تضررت الأمّة بما زرعت هذه الفلسفات من شبه باطلة حول الوجود، وكيفية الخلق والعشرات غيرها مما تعب العلماء في ردها ومناقشتها، وقد أضيفت إليها موضوعات ليست منها إسلامية خالصة، وهي تضمّ الدليل النقلي إلى العقلي ولكن لابد للأمّة الشاهدة أن تناقش على علم...